حول كتابة التاريخ

التيجة التي ينتهي إليها الأستاذ حافظ الجمالي في مقالته المنشورة في هذا العدد من «المعرفة» تحت عنوان «ملاحظات حول التاريخ» هي أن تاريخنا يحتاج منا إلى أن نقوم بدراسته دراسة واعية تفضي إلى ردم هذه الانقطاعات التي تفصل بين الناس وبين تراثهم ، بين الفكر وبين المفكر ، وصولاً إلى استكشاف الطريق التي نمشي بها تاريخنا من جديد . وبمعنى آخر فإن تاريخنا يحتاج منا إلى أن نعيد كتابته .

ARCHIVE

وإذا لم أكن مخطئاً ، فإن الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ العربي ما تزال قائمة منذ مدة من الزمن ، دون أن تحظى بمن يجعلها مشروعاً عملياً تتولى تنفيذه نخبة مختارة من المفكرين والمؤرخين العرب ، باستثناء الحلقة التي انعقدت في الكويت في نهاية عام ١٩٧٤ لإعادة كتابة التاريخ العربي والإسلامي ، والتي انتهت إلى وضع مخطط لهذا المشروع الذي يحتاج تنفيذه إلى أربعين مجلداً .

ولكن أخشى ما يخشاه المتتبع لدعوة إعادة كتابة التاريخ العربي هو أن يخضع هذا المشروع الحضاري لمزاج شخصي أو سياسي أو عقائدي ،يحاول أن يفسر الواقعة التاريخية تفسيراً يخرج بها عن حقيقتها الأصلية . وأكثر من ذلك ،فان ثمة خطراً حقيقياً في اسقاط الحاضر على الماضي ، أي في تفسير الماضي بمنطق الحاضر وقيمه وأخلاقياته

وفلسفاته السياسية . ذلك أن الواقعة التاريخية لا تفسر بمعزل عن عصرها والمستوى الحضاري الذي بلغه ذلك العصر والعلاقات السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة فيه .

لقد فهمت هذه الدعوة على أنها دعوة إلى تنقية هذا التاريخ مما علق به من أضاليل وأكاذيب ، وما لحق به من تشويه وتزييف بفعل جهود مبذولة لسلب العرب من تاريخهم ، أو سلب تاريخهم منهم .

ولقد فهمت هذه الدعوة على أنها دعوة إلى إعادة النظر في بعض الوقائع التاريخية المعروفة بما يمكّن المؤرخ من تفسير الواقعة التاريخية تفسيراً أقرب إلى الدقة والصواب ، ومن تحليلها تحليلاً يستند إلى معرفة متقدمة بالظروف التي وقعت فيها ، ولم أفهمها على أنها دعوة إلى إسقاط رغباتنا وأهوائنا السياسية وغير السياسية على مشهد من هذا التاريخ أو مشاهد منه ، ولم أفهمها أيضاً على أنها دعوة إلى قسر الواقعة التاريخية وإرغامها على أن تقول شيئاً آخر مخالفاً لحقيقتها الموضوعية .

من هنا إشكالات هذه الدعوة إلى إعادة كتابة التاريخ العربي . ذلك أن هذه الدعوة على الرغم من أهميتها القصوى في إيقاظ الوعي بتاريخنا ، يمكن أن تفسح المجال لاجتهادات شتى ، ولتفسيرات مختلفة يحكمها غرض سياسي أو عقائدي مسبق ؛ فيصبح تاريخنا المعادة كتابته أقل إفصاحاً عن تاريخنا ، من تاريخنا الذي هو بين أيدينا الآن .

وسوف نحاول « المعرفة » في مرة قادمة أن تطرح هذه المسألة للمناقشة ، لعلها تتمكن من بلورة تصور جديد يسمح بأن تكون هذه الدعوة دعوة إلى إعادة كتابة التاريخ لا دعوة إلى إعدام التاريخ .

رئيس التحرير

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

قضايا قومية

الوحدة : من معها ومن عليها ؟

١

جورج صدقني

ARCHIVE

* « نحن أمة مجزأة ، نعيش وضعا شاذا ، نناضل من أجل أن نعود الى وضعنا الطبيعي ... ان وضعنا الشاذ مفروض علينا فرضا ، لم نأته بفعل ارادتنا ... هذا الواقع الذي وصلنا اليه ، واقع التجزئة ... نستطيع أن نقول بشكل مطلق إن هذا الواقع الذي نعيشه لم نأته مختارين ، ولم نأته بفعل ارادتنا ، انما انبناه بفعل ارادة غيرنا ، وبفعل من ارادة تتناقض مع مصالحنا تناقضا جذريا » .

* « ... المؤتمرات الصهيونية منذ بدئها ، وبشكل مستمر ... تنظر الى الوحدة العربية على أنها العدو الأول » .

* « ان العدو يدرك خطورة الوحدة العربية ... ولهذا تقوم استراتيجيته في المجالات المختلفة على تمزقنا نحن ، في الحرب كما في السياسة » .

* « كلنا يعرف أن اسرائيل قامت وخطتها الأبدية تعتمد على تمزق الصف العربي ... ان استراتيجية اسرائيل ، منذ ان قامت ، تقوم على تمزقنا ، وستبقى كذلك » .

* « إن اي تقارب ... بين أي قطرين عربيين ـ ولاسيما أقطار المواجهة ـ يقيم الدنيا في اسرائيل ويقعدها » .

حافظ الأسد

السؤال المطروح ليس بسيطا كما قد يبدو للوهلة الاولى، لانه لاينصب على المواقف المعلنة للاشخاص السياسيين او الفئات السياسية المحدودة من قضية الوحدة العربية ، ولا يتجه نحو الافراد في محاولة لتصنيفهم بين مؤيدين للوحدة ومعادين لهـا . انه لا يتوقف عند هذا كله لبعده عن الثبات والموضوعية ، ولاتصافه بقدر كبير من التأرجح والتقلب بسبب ارتباطه بعوامل ذاتية متغيرة تختلف من وقت الى آخر ، زد على ذلك ان الموقف الفردي المعلن قد يكون موقفا ظاهريا خادعا لا يمثل الموقف العملي الحقيقي بقدر ما يخفيه ويسدل عليه استاراً .

السؤال المطروح يتجاوز ذلك كله الى النزعات والتيارات والقوى والجهات التي يتصف وجودها بقدر كبير من الاستمرار ؛ او بقدر اكبر من الاستمرار على الاقـل ، والى تحليل مصالحهـا الموضوعية ، ثم استكشاف مواقفها الحقيقية الاستراتيجية الثابتة من قضية الوحـدة العربية بناء على هذا التحليل .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ان الجواب عن هذا السؤال سيكون بمثابة عملية فرز شاملة يتضح بعدها بجلاء من يقف الى جانب الوحدة ومن يقف ضدها ، من هم اعداء الوحدة ومن هم انصارها وجنودها المناضلون في سبيل تحقيقها . ولهذا الفرز ميزة كبرى من جانب آخر : ذلك انه لا يحدد اصدقاء الوحدة فقط ولا يكشف اعداءها وحسب ، بل انه يلقي ــ بنتيجة ذلك على وجه التحديد ــ اضواء ساطعة على طبيعة الوحدة العربية نفسها ، فيصبح موقعها اكثر وضوحاً ، وبالتالي يتبين بجلاء ان الوحدة العربية ليست حركة رجعية تعرقل نمو التاريخ أو تحاول شـدّه الى الوراء ، بل هـي حركة تحرر ، في القلب من حركات التحرر القومي في العالم ، تواكب مسيرة التاريخ وتدفعها دفعا الى الامام .

فلنبدأ باستعراض اعداء الوحدة

اولا ــ الاستعمار والامبريالية :

من المعروف ان التجزئة الحالية ، التي تعيش الأمة العربية تحت وطأتها اليوم ، تجزئة حديثة نسبياً ، ترجع بدايتها التاريخية الى القرن الماضي ، وتكاملت واصبحت تجزئة شاملة بعيد الحرب العالمية الاولى في اوائل القرن العشرين . واذا كانت التجزئة القديمة ، التي عرفتهـا الأمة العربية في العصر العباسي ، قد وقعت بفعل عوامل الانحلال الداخلي بالدرجة الاولى ، وبالتالي قد يجوز اعتبارها من بعض الجوانب تفتتاً ذاتياً ، فان التجزئة الحالية لا يمكن النظر اليها من الزاوية نفسها ، لان واقع التجزئة الحالي فرض علينا فرضاً بإرادة خارجية تتناقض مصالحها مع مصالح العرب تناقضاً جذرياً .

ARCHIVE

هذه الارادة الخارجية التي فرضت علينا واقع التجزئة الحالي هي ارادة الاستعمار . إن الاستعمار هو صانع التجزئة وخالقها ، والقصة معروفة : ذلك أن ازدهار النظام الراسمالي في الدول الصناعية الغربية قد حمل في طياته مشكلات اقتصادية ضخمة ، وهي مشكلات لم يكن بوسع هذا النظام ان يتفاداها ، لأنها نتجت بالضرورة من طبيعته القائمة على الاستغلال والربح . واهم هذه المشكلات ــ من زاوية موضوعنا ــ مشكلتان هما : تعاظم الحاجة الى المواد الاولية ، وتعاظم الحاجة الى الاسواق لتصريف البضائع المكدسة . لقد تميز النظام الراسمالي عن نظام الصناعة اليدوية بأسلوب الانتاج الكبير ، فازدادت الحاجة الى المواد الأولية زيادة كبيرة ، وبدأ البحث عن موارد جديدة لها ، وتفاقم الصراع بين الدول الصناعية الراسمالية من اجل السيطرة على مصادرها. ومن جهة أخرى لم ينعكس الانتاج الكبير رخاء ورفاهاً على المنتجين العاملين ، لانه لا يهدف الى سد الحاجات في الاصل ، بل انقلب ــ من

وجهة نظر الراسماليين – الى مشكلة اقتصادية ضخمة تمثلت في تكدس البضائع تكدساً أتخم السوق ، وادى الى انخفاض الاسعار ، بفعل تعاظم العرض ، وانخفاض الطلب لانخفاض القدرة الشرائية وانخفاض الاجور. ولما كان انخفاض الاسعار يتناقض مع تكديس الارباح ، فقد بدأ البحث عن أسواق جديدة لتصريف البضائع ، وتفاقم الصراع ايضا بين الدول الصناعية الراسمالية من اجل الحصول على هذه الاسواق والسيطرة عليها.

ليس غريباً – بعد هذا كله – ان تكون الدول الصناعية الرأسمالية الكبرى دولا استعمارية ؛ لانه لم يكن بوسع النظام الراسمالي – بحكم طبيعته القائمة على الاستغلال والربح – أن يكون إلا استعمارياً . لقد كان الاستعمار الحل الوحيد لمشكلتي تزايد الحاجة الى المواد الاولية وتصريف البضائع المنتجة ، الذي ينسجم مع طبيعة النظام الراسمالي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لعلنا قد أغفلنا كثيراً من التفاصيل في هذا العرض السريع ، ولكنه عرض صحيح في خطوطه العامة ، ويبرز الجوانب التي تهمنا في سياق هذا البحث . ما يعنينا الآن بالدرجة الاولى هو ان الصراع الذي دار بين الدول الصناعية الراسمالية الكبرى على السيطرة على مصادر المواد الأولية ، والتنافس بينها من اجل ايجاد اسواق جديدة لتصريف بضائعها المكدسة ؛ لقد أديا الى التوسع الاستعماري في العالم الثالث ، وشمل هذا التوسع الاستعماري وطننا العربي على النحو المعروف من اقصاه الى اقصاه .

واذا كان يمكننا القول بوجه العموم إن هدف الاستعمار كان واحداً في جميع البلدان التي أخضعها لسيطرته ، وان هذا الهدف كان يتلخص في جعل الدول المستعمَرة أسواقاً لتصريف بضائعه ، وفي نهب

الثروات القومية للشعوب المستعمَرة ، فانه يمكننا القول في الوقت نفسه بأن الاستعمار في وطننا العربي – رغم أن هدفه هنا لم يكن يختلف عن هدفه في اية بقعة اخرى من بقاع العالم – قد اتصف بصفات خاصة نشأت بسبب خصوصية الظروف التاريخية التي تم فيها استيلاؤه على وطننا العربي ، وخصوصية الظروف التاريخية التي كانت تحيط بأمتنا العربية في تلك المرحلة . ويمكن تلخيص اهم هذه السمات الخاصة في ما يلي :

١ – في تلك المرحلة كانت الدول الاستعمارية الغربية تنظر الى الوطن العربي على أنه « تركة الرجل المريض » . كان كالمال السائب يغري اللصوص ويسيل لعابهم ، ولذلك كان من الطبيعي ان يحرك اطماع الدول الاستعمارية وان يكون موضع صراع عنيف وطويل بين هذه الدول ، ومناورات وتحالفات واتفاقات خلقت شيئا من التوازن بين القوى الاستعمارية المتصارعة ، أدى في النهاية الى نتيجة بالغة الاهمية من وجهة نظر بحثنا هذا . وقد تمثلت هذه النتيجة في انه لم يتيسر للاستعمار الغربي ان يبسط سيطرته على الوطن العربي دفعة واحدة ، بل تم ذلك على دفعات وفي مراحل زمنية متقطعة ومتتابعة دامت قرنا كاملا او يزيد . وتمثلت ، من جهة اخرى ، في أن احتلال الوطن العربي لم تقم به دولة استعمارية واحدة ، بل قامت به دول متعددة هي فرنسا واسبانيا وايطاليا وبريطانيا في افريقيا العربية ، وفرنسا وبريطانيا في آسيا العربية : فعندما كانت الفرصة تواتي دولة من هذه الدول الاستعمارية ، كانت تسارع الى انتهاز الفرصة السانحة ، فتحتل الجزء من الوطن العربي الذي تهيأت لها الظروف المناسبة لاحتلاله ، وتفصله فصلا عن سائر

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

الأجزاء . وبكلمة أخرى لم يكن الاستعمار الغربي للوطن العربي استعمارا وحسب ، بل كان **استعمارا وتجزئة** في الوقت نفسه .

٢ ـ بعد أن صنع الاستعمار التجزئة ادركت الدول الاستعمارية أن التجزئة خير سلاح في يدها لتوطيد سيطرتها وترسيخ احتلالها ، فلجأت الى تعميق التجزئة بكل وسيلة ممكنة : ولذلك عمدت كل دولة من هذه الدول الاستعمارية الى اقامة الاسوار والحدود المصطنعة من حول ما احتلته ، لكي تحمي بها حصتها من الغنيمة من الاخطار التي قد تأتي من الاقطار المجاورة . ولم تكن هذه الاقطار متمثلة في اطماع الدولة الاستعمارية في الجوار ـ فهذه الاطماع ، وان كانت موجودة في أرجح الظن ، كانت في كثير من الاحيان منظمة بمقتضى الاتفاقات الاستعمارية السرية ـ ولكن الخطر الأعظم كان يتجسد في الاتصال الذي يمكن أن يتم بين الجماهير العربية ، وفي وحدة نضال هذه الجماهير . ولذلك فان كل دولة استعمارية كانت تقيم الحدود ، ليس في وجه القطر المجاور الذي تحتله دولة استعمارية اخرى وحسب، بل كانت تقيمها ايضا بين الاقطار الخاضعة لاحتلالها هي نفسها ، رغم اتصالها ببعضها اتصالا جغرافيا ، لانها كانت تدرك أن هذه التجزئة ادعى الى دوام سيطرتها ، والى اضعاف مقاومة الشعب العربي لها ، وليقينها بأن قدرتها على التصدي لنضال مجزأ اكبر من قدرتها على التصدي لنضال موحد واسع وشامل .

ولعل هذا يفسر لنا حرص فرنسا على ترسيخ الحدود بين تونس والجزائر والمغرب عندما كانت هذه الاقطار خاضعة للاستعمار الفرنسي، بل حرصها على ايجاد ثغرات اقليمية بين هذه الاقطار . ولعل هذا يفسر لنا أيضا حرص الاحتلال البريطاني ، الذي كان يجثم على مصر وعلى

السودان في وقت واحد ، على منع اي اتجاه للوحدة بين مصر والسودان، حتى في ظل الاحتلال البريطاني ، بل حرصه على تنمية النزعات الاقليمية وتغذية مشاعر الخوف من أي اتجاه وحدوي .

بل لعل ذلك يفسر لنا ما هو أبعد مدى من ذلك : انه يوضح لنا لماذا عمدت فرنسا ، بعد انتدابها على سورية الشمالية ، الى تقسيمها ، فانشأت دولة لبنان الكبير (لبنان بحدوده الحالية) ، وعمدت الى تقسيم ما تبقى من سورية الى دويلات متعددة ، وإن كانت لم تستطع الاستمرار في هذا التقسيم . ويوضح لنا كذلك لماذا عمدت بريطانيا ــ ضمن أسباب اخرى لسنا بصددها الآن ــ بعد انتدابها على سورية الجنوبية ، الى تقسيمها ، فاعتبرت أن فلسطين هي الاراضي الواقعة غربي نهر الاردن، واقامت من الاراضي الواقعة شرقي نهر الاردن امارة منفصلة .

ولم يكتف الاستعمار ، في سبيل توطيد أسس التجزئة وترسيخ اركانها ، باقامة الحدود المصطنعة بين الاقطار العربية ، بل سعى الى ذلك عن طريق اثارة التناقضات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وبذل كل ما يستطيع من اجل تغذية عوامل التمزق في المجتمع العربي كالاقليمية والطائفية والعشائرية وغيرها ، وهي أمور سيأتي الكلام عليها فيما بعد في القسم الثاني من هذه المقالة . يتضح من هذا كله ــ وكما جاء في « **بعض المنطلقات النظرية** » التي اقرها المؤتمر القومي السادس لحزب البعث العربي الاشتراكي في تشرين الاول عام ١٩٦٣ ــ أن الاستعمار هو « **خالق التجزئة والحريص على بقائها وتكريسها** باعتبارها وسيلة استمرار نفوذه واحتكاراته في الوطن العربي » (المنطلقات النظرية ، ص ٣٢) .

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها كان واضحا ان نظام الاستعمار القديم يلفظ انفاسه الاخيرة . وبالفعل فقد شهدت سنوات

ما بعد الحرب العالمية الثانية استقلال الدول العربية واحدة بعد اخرى، وشهدت رحيل قوات الاحتلال الاجنبي الى غير رجعة . ولكن انهيار الامبراطوريات الاستعمارية القديمة لم يؤد الى زوال التجزئة ، لان الاستعمار الجديد أو الامبريالية حلت محل الاستعمار القديم وورثت مصالحه واحتكاراته ، فكان من الطبيعي ان تبذل كل ما في وسعهالتوطيد التجزئة ، لأن فيذلك توطيداً لمصالحها واحتكاراتها فيالوطن العربي ،وكان من الطبيعي ان تقف موقفا معاديا شرسا من قضية الوحدة العربية ، لانيا على مثل اليقين بأن الوحدة العربية قمينة بالقضاء على مصالحها واحتكاراتها الى الابد .

وفي هذا المجال جاء في **المنطلقات النظرية** لحزب **البعث العربي الاشتراكي** ان الوحدة العربية « هي ضرورة مباشرة في معركة **الوجود** العربي ضد الاستعمار بشكليه القديم والجديد ، فالطريق الى استعادة الأجزاء السليبة من الوطن العربي ، وتدمير الاحتكارات الاستعمارية ، وسد المنافذ أمام تسلل الاستعمار الجديد ، لا يمكن ان تتم بصورةنهائية واكيدة إلا عبر النضال الوحدوي .

« إن التجزئة والتخلف هما المناخ الطبيعي الذي يعيش فيه الاستعمار الجديد . ففي غمرة التناقض والتنافس ، اللذين لابد ان يوجدا بين الكيانات الصغيرة المصطنعة ، يجد الاستعمار الجديد مجالا لتسلله ؛ وبالاضافة الى ذلك فان سياسة الدول الصغرى تبقى دوما والى حد كبير ــ مهما تحررت ــ مجرد رفض سلبي للسياسة الاستعمارية ، كما أن تعاونها مع الدول الاشتراكية يعرقله نوع من الخشية غير المنظورة من الاستعمار ومن العقدة ازاء المعسكر الاشتراكي ذاته . لذا فان دولة الوحدة ، وهي دولة كبيرة بالضرورة ، هي التي يمكنها ان تنقل السياسة العربية من مجرد الرفض السلبي الدفاعي الى ممارسة سياسة ثورية

ومبدئية على النطاق الدولي ، دون انتظار لالتقاط صدى هذه السياسة في المعسكرات الدولية . ان الثقل الكمي والنوعي لدولة الوحدة الضخمة يعطيها من القوة والمنعة ما يمكنها من توجيه الضربات الثورية العادلة والمشروعة لبقايا مواقع الاستعمار القديم واحتكاراته وعميلته اسرائيل ، وهو الذي سيسد الطريق بشكل حاسم ونهائي أمام تسلل الاستعمار الجديدة » . (المنطلقات ص ٣٤ ــ ٣٥) .

واذا كان الاستعمار هو الذي خلق التجزئة في الوطن العربي ، وهو الذي عزز وجودها ودعم استمرارها ، ثم جاءت الامبريالية من بعده لكي تقيم من نفسها حارساً للتجزئة يحميها ويمنع القضاء عليها ، لان في ذلك قضاء في الوقت نفسه على مصالحها الاحتكارية ، فان هذا كله يعني ان الاستعمار والامبريالية عدوان لدودان للوحدة العربية يحاربانها بلا هوادة، لأن قيام الوحدة العربية يؤدي بالضرورة الى القضاء على الاستعمار والامبريالية في الوطن العربي ، ويعد بالتالي بشيرا بالقضاء عليهما في العالم بأسره .

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

وهذا التناقض الحاد القائم بين الاستعمار والامبريالية من جهة، وبين الوحدة العربية من جهة أخرى ، يؤكد أن الوحدة العربية « تعبر عن حاجة الجماهير الى التحرر » (المنطلقات ، ص ٢٧ ، ص ٣٣) ، ويثبت مضمون الوحدة التحرري التقدمي ، ويبرز حقيقة اساسية : وهي أن الذين يناضلون في سبيل الوحدة العربية تقدميون ، لانهم بنضالهم من اجل الوحدة يناضلون في الوقت نفسه ضد الاستعمار والامبريالية ، وبالتالي فإن موقف اللامبالاة ، أو موقف الحياد ، من قضية الوحدة العربية هو موقف يستفيد منه الاستعمار وتستفيد منه الامبريالية ، ولا تستفيد منه قضية الوحدة العربية شيئاً . واذا سرنا خطوة اخرى الى الامام فإننا نقول : إن الذين يرفضون النضال في سبيل الوحدة العربية أو

يتحينون الفرص لوصمها بالرجعية ، أو يقفون منها موقف الرفض أو يناصبونها العداء ، يقدمون بموقفهم هذا ـ سواء اكانوا يدرون او لا يدرون ، وسواء اكانوا حسني النية أو سيئي النية ـ خدمة مجانية للاستعمار والامبريالية ، لان كل موقف معاد للوحدة العربية يقلل من رصيد القوى المعادية للاستعمار والامبريالية ، وبالتالي يزيد آليا ـ وان كان ذلك على نحو سلبي ـ في قدرة الاستعمار والامبريالية على المحافظة على مصالحهما الاحتكارية في الوطن العربي .

جاء في **المنطلقات النظرية** لحزب البعث العربي الاشتراكي : « لماذا يكون المتمسكون بالتجزئة اعداء للشعب ، ويصنفون ضمن الطبقة المستغلة ؟ لأن التجزئة احتياطي للاستعمار ، وهي تحطيم لجبهة الجماهير العربية ، وقسم لنضالها المضاد للاستعمار . إن الذين يتمسكون بالتجزئة ويتغذون منها ، ولو ادعوا الاشتراكية والتقدمية ، يكونون عمليا ضد الاشتراكية ، لأنه لا يمكن اقامة اشتراكية قبل القضاء نهائيا على الاستعمار ونفوذه بجميع اشكاله والوانه ، وان الجماهير العربية لن تستطيع مواجهة الاستعمار مواجهة جدية ونهائية الا اذا وسعت جبهة القتال معه . ولن يتم ذلك الا إذا تحققت وحدة النضال للجماهير في كل قطر في وحدة عضوية ارادية ، وحدة نضال ووحدة مصير . ولذلك تكون الحركات ، التي وضعت في أهدافها الاشتراكية دون الوحدة ، حركات اصلاحية عاجزة عن مقاومة البورجوازية والاقطاع ، وبالاجمال حركات غير ثورية لم تعط لمشاكل الواقع العربي الحل الجذري الكامل ، وهو ما يفسر تعثرها وعجزها عن اثارة الجماهير الكبيرة في وطننا ، لانها تتخلى عن مبدأ اساسي للاشتراكية ، الا وهو توحيد نضال الجماهير ضد الاستعمار » . (المنطلقات ، ص ١٤ ـ ١٥) .

* * *

ولكن الاستعمار والامبريالية ليسا العدوين الوحيدين للوحدة العربية ، فللوحدة اعداء غيرهما كثيرون ، تأتي الصهيونية في مقدمتهم ، وهذا ما نأمل ان نتابع الحديث عنه في المقالة القادمة ، التي هي بالاحرى القسم الثاني لهذه المقالة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ملاحظات

حول التاريخ

حافظ الجمالي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هؤلاء الذين يقرأون لي او لغيري مثل هذه الاحاديث ، لابد انهم كانوا طلابا في يوم من الايام . ولكني اظن انه ما من طالب يجد الدروس كلها واحدة في سهولتها ، ولا واحدة في صعوبتها ، فهذا درس ممتع ، وهذا الآخر فاقد المتعة . والأمر كذلك في الكتب التي نقرؤها . فهذا كتاب يروقنا ويعجبنا ونحبه ، وهذا الكتاب الآخر ، لا يروقنا ولا يعجبنا ولا نحبه ، بل إن هذا الانطباع ليصبح أيضا على اجزاء الدروس ، واجزاء الكتاب . فقد يعجبنا من مادة ما ، بعض دروسها ، ومن كتاب ما ، بعض فصوله ، على حين ان بقية الدروس ، او بقية الفصول ، لا تعجبنا ولا تروقنا . او لنقل ان الرضى وعدم الرضى درجات ، وقلما تحصل اجزاء اي كتاب ، او دروس اية مادة ، على نفس الدرجة من الرضى او عدم الرضى .

غير أننا نشعر جميعا ، لدى مادة التاريخ ، ولاسيما التاريخ الذي يخصنا ، بالتصاق من نوع آخر ، فما تمر بنا حادثة من حوادثه ، ولا قضية من قضاياه إلا تثير فينا ألوانا لا متناهية من العواطف تتراوح بين أقصى درجات الرضى ، وأقصى درجات الغضب .

ولعل الامر يبلغ بنا درجة أكبر من هذه يصبح معها التاريخ الماضي ، وكأنه الحاضر الواقع ، بكل قوته وعنفه . وهكذا لا أستطيع الا الأسف على عزل خالد بن الوليد من ولاية الجيش الفاتح في دمشق ، على الرغم من تقديري العظيم لشخصية أبي عبيدة ، والأسف كذلك على المصير الذي لقيه موسى بن نصير فاتح الاندلس ومحمد بن القاسم ، فاتح الهند والسند . ولعلني أحيانا أبكي على مثل هذه المصائر المحزنة . ولكن ما اكثر ما يلقى الانسان في تاريخه العربي (اللاعربي ـ بعد ذلك ـ بالدرجة الاولى) من مآس يحزن لها قلبه ، ويبتئس لها . لا لأنها مصائر فردية أصابها الشقاء ، وكان من حقها الهناء والسعادة ، بل لأنها كانت بائسة الآثار الى ابعد حد ، في الحياة العامة ، وبالمقابل

فاني لا أملك الا الفرح بما أصابه عقبة بن نافع ، وعمرو بن العاص ، وسعد بن أبي وقاص ، من أمجاد وانتصارات.

وهكذا ينتهي بنا الأمر الى حب عهود ، وكره عهود أخرى . أما الأولى فنتمنى لو عشنا فيها ، وشهدنا مشاهدها . وأما الثانية فنتمنى ألا تكون وقعت ، ونحمد الله على أننا لم تكن في أيامها . غير أن الانسان ابن تاريخه كله ، وكان كلا منا يعيش هذا التاريخ كله ، كما لو أنه وقع في أيامه هو ، لا في أيام بعيدة عنه . وربما تكون هذه الحادثة قد وقعت منذ ألف سنة أو أكثر ، أو وقعت تلك منذ عشرين عاماً ، أو البارحة ، ذلك أننا نتأثر بها ، فرحاً أو ترحاً ، بهجة أو بؤساً ، شقاء أو هناء ، كما لو أننا نعيشها الآن تماما .

* * *

وعندما نقرأ تاريخنا كله ، ونتابع حوادثه هنا وهناك في تفاصيلها ، ونفرح فيها لما يفرح الانسان العادي ، ونكره منها ما يكرهه هذا الانسان نفسه ، فليس بعيداً أن يتساءل أحدنا في أي عهود هذا التاريخ كان يجب أن يعيش فعليا ، وفي أيها كان يؤثر ألا يكون حيا ؟ ولقد تساءلت أنا مرات عديدة هذا السؤال نفسه ، وكان جوابي دوما ، انها عهود قليلة جدا ، تلك العهود التي كان يرضيني أن أكون من معاصريها ، ومن يحب منا مثلا ، أن يكون في عهود الحكم العثماني ، أو المماليكي ، أو الصليبيين ، او تيمورلنك ، او هولاكو ، أو ثورة الزنج او الثورات المماثلة ؟ من منا يريد أن يكون من معاصري سقوط الاندلس ، مدينة بعد مدينة ، ومملكة بعد مملكة ، ليقف اخيرا بين شهود حفلة الاستسلام التي قدمت فيها مفاتيح غرناطة الى الملك الاسباني الظافر ؟ ومن منا يريد ان يكون ممن عاصروا غارة الفرنسيين على الجزائر واحتلال اراضيها ، وانتزاع استقلالها ؟ وأخيرا من منا يريد أن يكون ممن عاصروا مأساة ميسلون ؟

إن هذا لايعني ابدا ان التاريخ العربي لم يعرف عهودا من الشموخ والتألق ، لايحب العربي وحده أن يكون من معاصريها ، بل لعل غير العربي يتمنى ان يكون عربيا ، ليشارك بسعادة رجالها واصحابها . وهكذا فان معركة القادسية واليرموك ، وفتح مصر ، وبلاد افريقية والأندلس ، كل هذه حوادث نتمنى أن نكون من معاصريها ، لا لانها انتصار عسكري سجله قومنا ضد الاخرين ، ولكن لأنه انتصار مثل عليا جديدة أسمى وأنبل من تلك التي كان الناس يعيشون فيها .

ولكن المشكلة ليست في وجود عهود بائسة ، الى جانب عهود زاهرة . بل هي في نسبة ما ، بين هذه وتلك . وفجأة يلوح للمرء ان نسبة الاتراح كانت اكبر من نسبة الافراح ، وأن العهود الزاهرة كانت أقصر واخصر من العهود البائسة . ولولا أن الامر كان كذلك ، لما كنا الآن نعاني من التخلف ما نعانيه . أو كان يمكن أن نرضى عن أكثر عهودنا

السابقة ، ولا يسخطنا إلا القليل منها ، ويكون وضعنا اليوم ، على الصورة التي نحن فيها ، أو تلك التي اتفقنا عليها ، على الأصح ؟ ذلك أننا اليوم بلا ريب أفضل بكثير مما كنا قبل عشر سنوات ، أو عشرين سنة ، ان لم يكن من كل النواحي ، فمن بعض النواحي الهامة جدا ، على الاقل .

غير ان هذه الانطباعات التي تخلفها لنا قراءة التاريخ العربي ، والتي تشعرنا بأن امتنا ذاقت من الشقاء ، اكثر مما ذاقت من الهناء ، وعرفت الفقر ، أكثر مما عرفت الغنى ، والتي يبدو لنا أنها انطباعات كثير من الامم المتخلفة اليوم ، ليست بالأمر الذي يلاحظ مجرد الملاحظة ، وكفى الله المؤمنين القتال ، بل انه ليدعو بالضرورة الى التساؤل عن الاسباب العميقة التي جعلته على حاله تلك ، ومضت به دوما في الاتجاه نفسه .

وعبثا يقول الانسان إن التاريخ ، كل التاريخ ، يعرف هذه التقلبات ، وإن الشعوب كلها تفرح تارة ، وتتألم تارة أخرى ، وتسعد بالانتصارات مرة ، وتشقى بالهزائم مرة ثانية ؛ وبالتالي فما من فرق اساسي ، أو جوهري ، بين تاريخنا ، وتاريخ الامم الأخرى . فان ذلك يبدو غير صحيح تماما ذلك ان نقلة السعادة الى الشقاء ليست واحدة في كل تاريخ . ولو صح هذا ، لوجب أن تكون نتائج التاريخ كلها واحدة . فلِمَ كانت هناك شعوب متقدمة ، واخرى متخلفة ؟ أو ، على الأصح ، لِمَ وُجدت شعوب تتقدم باستمرار بعد تخلف ، واخرى تتخلف باستمرار بعد تقدم ؟

إن هذا السؤال هو الامر الذي يؤرق أو يجب أن يؤرق نفوس كل الواعين على السواء . ولقد أرّق بالفعل نفوس فئات كثيرة من المفكرين ، في القرن الماضي ، وهذا القرن على السواء ، ولو أن مستوى التفكير لم يرق في قرننا هذا الى المستوى الذي بلغه في القرن الماضي . واظن أن علينا أن نتساءل دوما ، لا بلغة الشعب المتخلف الذي يدفع به الطموح الى بلوغ مستوى الشعب المتقدم ، ذلك ان هذه اللغة يمكن ان تؤول بلغة التطور وحده ، كأن نقول : إن هنالك اسبابا تاريخية لا علاقة لها بجوهر الشعب الذي تخلف ، ولكنها عاقته عن التقدم فترة ما ، وليس عليه ، بعد الآن ، إلا ان يستأنف المسيرة ، وينتظر الزمن الكافي ، حتى ينتج التطور ثمراته ، بل علينا ان نتساءل بلغة الشعب الذي يلاحظ ان التقلبات التاريخية التي عرقلت مسيرته ، وحالت دون تقدمه وهبطت به حتى عن المستوى الذي كان فيه ، قد تكون ملتصقة به ، ذاتية له ، إن لم يكن في كل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجوانب ، ففي بعضها على الاقل ، وأن يحاول أن يعرف هذه الجوانب ، معرفة دقيقة ، وببحث جدي ، لا بملاحظات عارضة ، أو بتفكير سطحي . وهنا على الاقل ينبغي أن يعهد المجتمع الى لفيف من أبنائه البارزين ، من علماء ، ونوابغ ، ومثقفين أن يحلوا له هذه المشكلة . إذ لا يعقل أن تؤلف لجانا لبحث أتفه المشاكل ، وأقلها خطورة ، أو تقرير مسؤولية شخص ما ، عن حادث ما ، لم نذهل عن انشاء لجنة بحث لمثل هذه المهمة الضخمة.

* * *

اني أريد تاريخا جديدا لهذه الامة ، ان لم يخل من الهزائم أحيانا ، فإن عليه أن يزيد نسبة أفراحه على أتراحه ، وهنائه على شقائه ، تاريخا جديدا ، اذا عادت الاجيال اللاحقة تقرأه وجدت فيه أسباب العزاء والسلوى ، أكثر مما تجد فيه من أسباب التعاسة والبؤس . ولكن من يضمن لنا ألا تكون السنون الألف القادمة صورة للسنين الألف السابقة ! بل لماذا تريد أو نظن أنها لن تكون صورة لها ، وتكرارا لنموذجها ، وإعادة لصيغها وتعابيرها ؟ إننا لا نضمن للمستقبل ألا يكرر الماضي ، ويعيده باستمرار ، الا بتغير جذري في نفوسنا ، وأساليب عملنا ، وصيغ تفكيرنا . فاذا وجد من يبرهن لي أن هذا امر قد تم فعلا ، فان في وسعي ووسع أي مواطن عادي مخلص ، ان يموت مطمئنا .

غير أني لم أجد بعد من يبرهن لي على ان هذا الامر قد تحقق فعلا ، او قل : اني لم أسمع بباحث ، أو مفكر ، أو كاتب قدم هذا البرهان . غير أننا نولد في الحياة من جديد ، دولا مستقلة — ما أكثرها — بعد الف سنة من الغياب عن التاريخ ، ومن حقنا أن تكون قلقين أشد القلق على المستقبل ، مستقبل الاجيال التي ستلينا في الوجود ، والتي ستعيش حاضرها وماضيها ، كما نعيشهما نحن . وهذا القلق نفسه هو الذي يحملنا على أن ننظر بأقصى الجد ، وأكبر الرصانة ، الى تلك العوائق التي غيبتنا عن مسرح التاريخ ، وجعلتنا من ضحاياه لا من صانعيه .

إنه ليس قليلا أبدا أن يقف شعب كامل موقف التساؤل عن معنى تاريخه ، وأن يكون هذا التساؤل قائما على مستوى الافراد ، أو بعض الافراد ، ممن وصلوا الى مستوى ما، من وعي حياتهم وحياة أمتهم ، دون أن يصبح تساؤلا جمعيا يوضع كمادة للبحث بين

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ايدي كبار مفكري هذه الامة وعقلائها والنابغين فيها ، والقلقين على مستقبلها . ومن العبث ان نظن ان هذه المشكلة تحل مباشرة على مستوى الشعارات السطحية ، دون أن يكون وراء هذه الشعارات مضمون واضح ، كبير رصين . واني لاتساءل حقاً ، هل وصل احد مفكرينا ممن عناهم هذا الموضوع الى قناعات معينة حوله ؟ وهل راوا ان صناعة التاريخ في الماضي ، كانت تشكو من هذا العيب او من ذاك ، او أنهم ظلوا قلقين حول هذا التساؤل ، لا يجدون له جوابا ، أو قل لا يطرحونه أصلا ؟ الحقيقة أن الكثيرين من هؤلاء طرحوا هذا التساؤل ، بل واجابوا عنه ، وأذكر على سبيل المثال الرائد ساطع الحصري الذي يقول :

« لاشك في ان ماضي الامة العربية لم يخل من شوائب ونواقص ، وتاريخها الطويل لم يسلم من عوارض التقهقر والانحطاط . فلا يسوغ للمدرس أن يتناسى تلك الشوائب، أو يهمل تلك العوارض ، مكتفيا بذكر الامجاد ، غير أنه يترتب عليه ــ عندما يذكر تلك الشوائب ، ويشرح عصور الانحطاط ــ ان يبين للطلاب أن ذلك شأن جميع الامم وجميع الحضارات ، في بعض الادوار من التاريخ ، وان حياة أعظم الامم المعروفة ، وتاريخ أرقى الحضارات المشهورة كانت مشوبة بأمثال تلك النواقص ، وانها لم تسلم من أمثال ذلك التقهقر والانحطاط .»(1)

ولكن ساطع الحصري ، المعروف بحساسيته الخاصة للمنطق ، وبالقدرة على النقد المعقول جدا لم يقل كلمة واحدة عما يسميه باسم الشوائب والنواقص ، ولم يشر مطلقا الى السبب الذي اقل ما فيه انه أحال التقدم الى تخلف ، والاستقلال الى استعمار ، والحضور التاريخي ، الى غياب تاريخي ، كما انه لم يلاحظ اية ملاحظة تتصل باختلاف تأثير هذه النواقص والشوائب ، في الشعوب المختلفة ، بحيث لم تحل دون تقدم البعض، وحالت ، بالمقابل ، دون تقدم البعض الآخر .

ان القضية كلها هي في تعيين نوع هذه النواقص ، والشوائب ، والخط تحتها بالقلم العريض ، حتى تظهر وتتضح ، ويكون لها تلك الجدوى التربوية التي أشار اليها الحصري . إذ ما الذي يمنع مدرسا ما ، من القول بشائبة ما ، لا يقول بها مدرس آخر ؟.

(1) ساطع الحصري : تقارير عن أحوال المعارف في سورية عام ١٩٤٥ . ص : ١٤٠ .

بل ما الذي يمنع أن تتعدد الآراء حول هذا الموضوع ، بحيث لا يكون لأي منها أية قيمة موضوعية ؟ وماذا يكون شأن الجيل الذي تتعدد تناماته حول هذا الموضوع الحيوي الى هذه الدرجة ؟

أما المفكر الآخر الذي احب ان اشير اليه ، فهو الكواكبي ، في كتابيه : أم القرى ، وطبائع الاستبداد ، ويلوح لي أن الكواكبي رأى في الاستبداد علة كل تخلف ، واصل كل بلاء . ولعل هذا الرجل من أكثر المفكرين العرب وعيا ، وأكثرهم حصافة ، وابعدهم نظرا .

وأنا لا اشك في ان استبداد الحكم ، يقتل المواهب الفردية ، ويضعف العطاء الحضاري ، ويعرقل مسيرة التطور ، ويطوي الانسان على نفسه ، ليذهلها عن كل مصلحة عامة . إلا أننا نعرف من الجهة المقابلة ، أن الحكم الاستبدادي ، لم يكن سمة خاصة بالبلاد العربية ، وأنه كان شائعا ، دائما ، في كل بلاد الدنيا . وهل كان ملوك فرنسا وانجلترا وبروسيا ، وحكام ايطاليا ، والنمسا ، غير مستبدين ؟ ومتى زال هذا الاستبداد من بلادهم ؟ بل هل كانت المانيا الهتلرية متخلفة يوم كان هتلر يمارس اقسى سياسة من سياسات الاستبداد ؟ وصحيح أن التقدم الحضاري لم يخط أشواطه البعيدة الا بعد قيام الحكومات الديمقراطية في غرب أوروبا وفي أمريكا ، كما انه ليس من قبيل المصادفة أن يكون ٩٠٪ من المبدعين والمخترعين والمبتكرين ، في العالم كله منذ وجوده ، حتى الآن ، يعيشون في عصرنا هذا (١) . وليس من قبيل المصادفة ان أكثرية هؤلاء تعيش في امريكا أو غرب اوروبا . غير أن السؤال يبقى هو هو : فلماذا لم يحل الاستبداد في الغرب كله ، دون أن يتواصل التطور ، ويؤدي الى هذه النتائج ؟ ولماذا كان الاستبداد لدينا يؤدي الى نتائج مغايرة تماما ؟ أو لا يعني ذلك ان هنالك عوامل اخرى تلعب دورها الحاسم في التطور العام ، وأن الاستبداد وحده ، لا يكفي لتعليل كل النتائج التي تصدر عنه في هذا الشعب أو ذاك .

اني لم اذكر هنا إلا مثالين لمفكرين نعتبرهما في عالمنا ، كبيرين عظيمين . ولكن مفكرينا الذين تصدوا سابقا ، ويتصدون الآن لمعالجة مشكلتنا الحضارية ، ليسوا بقلائل . غير ان احدا لم يتصد لرصد آرائهم وتلخيصها ، وعرضها مجتمعة في اطار دراسة عامة ، أو

(١) تعلم لتكون : من منشورات الاونسكو ، ترجمة حنفي عيسى . الفصل الرابع .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

نقدية ، حتى لكان هؤلاء وجدوا كيلا يوجدوا ، وعاشوا مفكرين ، وانشأوا كتبا ، وقاموا بدراسات ، ودوى صيتهم ، وذاعت شهرتهم ، كي يبقوا أحياء في أسمائهم وحدها ، موتى في كل ما حرصوا على اذاعته من آراء ، ونشره من أفكار . أفيكون هؤلاء اذن من التفاهة بحيث لا يتردد لافكارهم اي صدى ، ولا يستحقون منا الا مجرد التذكر الهمهماشوا في زمن ما على أرضنا ، كما عاش غيرهم مواطنين عاديين ، تفضلنا عليهم بالإحتفاظ لاسمائهم ببعض التألق ؟ أو ليس بالامكان ؛ إن كنا حريصين فعلا على تركيز عقلاني لاسس حضارتنا المقبلة ، وغدنا الجديد ، أن نستفيد من آراء عظمائنا ، وعباقرتنا ، ورجال الفكر بيننا ؟ أو ليس اهمال الفكر وعدم الاحتفال به ، والانقطاع بين تراث الفكر في الماضي ، وحاضر الفكر المعاصر ، من السمات التي قد نحتاج اليها في تعليل هذا الهبوط المتصل الذي لازم تاريخنا كله ؟

ومن الطريف أن نلاحظ أنه على الرغم من كل الانقطاعات بين ماضي التراث الفكري وحاضره ، فان هذا الهبوط الحضاري لم يفت مختلف المفكرين السابقين . فقد اشاروا اليه من الجانب الديني ، على الاقل ؛ إلا أن هذه الاشارة نفسها تتضمن الاشارة الى الجوانب الاخرى ، من الهبوط الاجتماعي ، فلنقرأ اذن هذه العبارة القصيرة لابي القاسم الصقلي في كتابه « الانوار » .

« كان أخص الناس بفهم علم الكتاب وشرح معرفة السنة وعمل الرسول ، اهل القرن الأول ، لانهم أفضل الناس عقلا ، وأوسعهم علما . ثم جاء القرن الثاني ، فكانوا أعقل الناس ، وأعلمهم بعد الصحابة ، بمعاني آي الكتاب والعمل بالاقتداء ، وفهم ما شرحه الصحابة من البيان ، غير أن الايثار الذي حض به الصحابة ، رق في التابعين ، وكذلك الزهد في الحلال ... ثم جاء القرن الثالث ، فذهب أكثر أهل العلم ، وقل فيهم الخوف والرجاء والصبر والشكر ، وكثر فيهم الخوض والجدل والخصومة والمراء ، وصارت الحقيقة خصوصا والجهالة عموما . ثم جاء القرن الرابع فاضطرب الامر في الحق ، واستوحشت طرق الهداية للسالكين لها ؛ وكثر التضاد وعدمت النصيحة ، وقلت الإلفة ، وفسدت النيات في ذات الله ، وتصالحوا على الخب والفجور وسفك الدماء بغير حق ... غير أن في الناس بقايا من أهل التصديق بالقدرة ، متحققين بالايمان بالقدر ... فاذا حل دخول القرن الخامس ، اشتد البلاء بأهل الاسلام خاصة ، فيما

بينهم ، فكان الكل على الكل في القريب والبعيد ... بعضهم لبعض فتنة ، وبعضهم على بعض نقمة ... فاذا دخل القرن السادس ، ذهب أهل التصديق ، وبقي أهل الانكار ، وسلب الناس عقل الانصار ، وبقي عقل الحجة عليهم ، وذهب الاسلام ، فلم يبق إلا اسمه . ثم العجب العجب أهل القرن السابع ، وهم أشرار الناس ، على شكلهم تأتي الأزمنة ، تتبعها الرادفة » (١) .

ومن الواضح الواضح أن هذا المؤلف لا يضمن نصه هذا ، صور الهبوط الديني الا ليعبر من خلالها عن صور الهبوط الاجتماعي . ونحن لا ننسى بطبيعة الحال ان القرن السابع الهجري والذي قبله ، كان من عهود الحروب الصليبية ، ولا مجال لان نعيد هنا ما سبق أن أشرنا اليه من الآثار المؤذية والانطباعات المؤلمة التي تستقر في عقل القارىء العربي ، لدى قراءته حوادث هذه الحروب ومآسيها الجارحة .

ولعل في وسع الملاحظ أن يرى في مقدمة ابن خلدون — ولا سيما في القانون الذي وضعه لنشوء الدول واستقرارها وانقراضها ، وتحديده ذلك بثلاثة أجيال : هي جيل المؤسسين والجيلان الآخران اللذان يتبعانهم ، معا لا يتجاوز المئة سنة على كل حال — نقول ان في وسع الملاحظ أن يؤول قانون ابن خلدون بلغة الانحدار الاجتماعي المتصاعد . وهل وجد في الدنيا انسان يرى أن كثرة التقلبات الاجتماعية ، ووفرة تتابع الدول ، التي يتعاقب بعضها على أنقاض البعض الآخر ، علامة خير ، وسمة تبعث على التفاؤل ؟ وأخيرا مالنا ولهذا كله ، وقد صحونا على الدنيا لنرى آثار هذا الماضي البائس الذي عاشته أمتنا ، في الاستعمار الذي كان جاثما على صدور بلادنا ، والمدن المسكينة التي ظلت نائمة لتعيش في بيوتها الخربة ، وشوارعها المضطربة ، ووجودها الهزيل ، الذي لم يكن فيه حتى البناء الاساسي الذي تمارس منه الدولة سلطانها ؟

ولقد يخطر في البال أن يتساءل الانسان ماذا كان عسى أبو القاسم الصقلي ، أن يقوله ، لو تابع القرون التي تلت القرن السابع ، والحياة التي عاشها الناس فيها ؟

---

(١) انظر كتاب الثابت والمتحول . ادونيس ، دار العودة . بيروت ص . ٧٦ ، لكن الهبوط الاجتماعي الذي يشير اليه كان قد سبق ذلك بكثير .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

اما انا فاكاد احسب انه لن يجد مفردات يستخدمها لوصف سوء الاحوال ، والتردي الذي صار الناس اليه في القرون اللاحقة .

وعلى ذلك فان الهبوط او الانحدار الاجتماعي الذي تتابع على حياة امتنا ، منذ انحسرت امجادها في القرن الاول ، ليس موضع جدل أو بحث بين من يعنيهم الامر ، أو يهتمون به ، ولكن البحث والجدل يطولان ، حول أسباب هذا التواصل في البؤس ، والتتابع في المآسي . ولهذا فاننا لا نستطيع متابعة الحصري في قوله : ان كل الشعوب عرفت في تاريخها مثل هذه الأعراض والنقائص . ولو صح ذلك لكان وضعها الآن كوضعنا ، ومدنها كمدننا ، وفقرها كفقرنا ، وحضارتها كحضارتنا . بل لنقل : أن الحضارة لم تكن لتنشأ أصلا في مثل هذه الظروف .

غير أن الشيء الهام والاساسي بعد ذلك كله ، ليس ان نلاحظ ماضيا ، مضى وانقضى وذهب الى غير رجعة . ولكن المهم ان لا يذهب كله سدى ، وأن يفيدنا ، على الاقل ، هذه الفائدة الوحيدة الممكنة ، أعني معرفة الاسباب التي جعلته على صورته تلك ، حتى لا نعود فنقع في خطأ تكراره ، مرة أخرى ، لمئة سنة اخرى ، او لعدة مئات من السنين . ومادمنا نمر على التاريخ هذا المرور السطحي الذي رأيناه في أمثال ملاحظات الحصري ، والصقلي قبله ، وحتى ابن خلدون ، رغم حصافته الضخمة وعلمه الغزير ، وما دمنا مصرين حتى الآن الا نتجاوز هذه الملاحظات السطحية ، الى المعاني الكامنة وراءها ، والمغزى الذي تنبيء عنه ، وما دمنا نكتفي بتسميتها شوائب ونواقص ونؤمها لحساب الانسانية كلها ، فاننا لن نجد في ذلك كله ما يبعث على التفاؤل أبدا .

ولا ريب أن في وسع الانسان أن يرى ان الفكر القومي خلال أكثر من مئة سنة ، قد تمخض عن شعارات مأثورة نرددها دوما ، ونعتبرها منارات الهداية لسلوكنا الاجتماعي والسياسي كله ، إلا ان من واجب الفكر أن يتساءل عما اذا كانت هذه الشعارات وحدها ، تكفينا خطر الوقوع في مآسي الماضي ، وتكرارها ، ذلك ان المهم ليس الشعار المجرد ، مهما يكن فيه من نبل ، وسمو ، بل المهم هو الانسان الذي يقف وراء هذه الشعارات ، ويخطط لتحقيقها . وما دام الانسان ـ شاء أم أبى ـ يرسم نفسه في صور سلوكه كلها ، من أدناها الى أعلاها ، فلماذا لا يعود انساننا الجديد الى تكرار الماضي حتى في ظل هذه

الشعارات النبيلة الجديدة ، ما دام او ما دمنا لم نعرف ما الذي جعله يهبط دوما على مختلف المستويات الاجتماعية والحضارية ، على الرغم من انه لم يفتقد مثلا عليا ، كانت في الماضي ، قد صنعت لاجداده المعجزات أو ما يشبهها ؟ وهل يمكن اعتبار الشعارات ادوات ، او رقى ، او تعاويذ سحرية ، متى نطق بها اللسان ، تحققت للانسان كل المنى التي يتمناها ، على طريقة فانوس علاء الدين السحري ؟

إنه ما من عقيدة ، نراها الآن هزيلة ، أو متناقضة ، أو وثنية ، إلا كانت يوما وسيلة لانشاء حضارة شمخة . وكان اليونان والرومان يدينون باديان لا نملك الآن إلا أن نسخر من تفاهتها وتهافتها . ولكن أولئك وهؤلاء انشاوا حضارات رائعة ، خالدة الآثار على الدهر كله . ذلك أن العقيدة لا تؤثر في الناس ، كما يقول Monod (١)بسبب من حقيقتها الموضوعية ، بل هي تؤثر فيهم سلبا او ايجابا ، تبعا لحقيقتها الذاتية ، اي لدرجة ايمان الناس بها وحرصهم عليها .

وهكذا نجد أنه ما من مجتمع فقد في حياته منظومة المعتقدات التي تستطيع أن تنهض به وترقى بوجوده . فاذا وجدناه متخلفا أو يتحدر ، أو يسقط في صور حياته الحضارية ، فليس ذلك لنقص المثل العليا ، أو لفقدانها ، أو عدم صحتها والاخلاص لها . ولكن لنقص الايمان بها . أو لم يؤثر عن السيد المسيح قوله : لو آمن الانسان بالحجر لشفاه الحجر ؟

ولكن هل يمكننا تبعا لهذه الملاحظة الاخيرة ، أن نقول : إن علة التخلف العربي تكمن في تنافر الروح الجمعية ، واللا اجماع على الايمان بمنظومة قيم أو مثل عليا ، جامعة ؟ لا شك أن هذه من الفرضيات التي قد تخطر بالبال . ولكنها لا تعفينا من البحث العميق عن درجة صحتها ، وصحة الفرضيات الاخرى المماثلة . ذلك أن البلاد العربية تنقسم من هذه الناحية الى فريقين : فريق ينتظم سلوكه العام ، على أساس عقائدي ، وفريق لا ينتظم سلوكه بأي أساس من هذا النوع . وعلى سبيل المثال فان اليمن الجنوبية ، واليمن الشمالية تمثلان من هذه الناحية طرفين متناقضين ، كما أن الكويت ولبنان لا تلتزمان عقائديا بأية منظومة خاصة من منظومات القيم . فهل نلاحظ أن التطور قد اختلف من بلد الى آخر تبعا لوجود أو عدم وجود المنظومة العقائدية وعدم انتظام السلوك تبعا لها ؟

(١) جاك مونو : المصادفة والضرورة ، طبع وزارة الثقافة والارشاد القومي . ص ٢٠٣ .

او لا يمكن القول ، رداً على ذلك ، ان القضية ليست في وجود المنظومة العقائدية ، وجوداً رسمياً ؛ بل في وجودها وجدانياً في قلوب الناس ، وبالتالي فان الوجود الرسمي لا يعني بأية حال ذلك الوجود الوجداني ، الا أن هذا الاخير هو العامل الحاسم في التطور وليس هو الوجود الرسمي ؟ انه ليس المهم ان تؤمن القيادات وحدها بمثل عليا معينة ، بل المهم هو أن يتم التجاوب بين ايمان القيادات ، وايمان القواعد الشعبية . ومالم يتم هذا التجاوب فان ايمان القيادات يظل بلا جدوى .

ونعود الآن من جديد الى ان عامل التطور الاول ، هو الانسان ؛ أو هو الثروة النفسية التي يحملها هذا الانسان في ذاته . ومتى وجد هذا الانسان ، فان أية منظومة للقيم يبدعها ، ستكون قادرة على الارتقاء به ، والتسامي بوجوده ، ومن هنا كان الحرص كبيراً في كل المذاهب الاشتراكية على رد الاعتبار الى الانسان ، وجعله من جديد تلك القيمة المقدسة التي يقاس بها كل شيء ، واليها يرد كل شيء . ولئن كان هنالك شيء من الحقيقة في آراء الكواكبي واعتباره أن الفساد كل الفساد ينشأ عن الاستبداد ، فذلك لأن انسانية الانسان تفقد وجودها في النظام الاستبدادي ، فلا تعود اليه إلا في نظام الحرية .

غير ان الموضوع لا ينتهي عند هذا الحد : ذلك ان الاستبداد الذي ساد اوروبا جملة ، قلم ينضب ظله البغيض عنها إلا في مرحلة تاريخية قريبة ، لم يحل دون التقدم ، على أنه حال دونه في بلادنا ، فهل يمكن القول : إن للاستبداد درجات ، فيها درجات حرجة ، لا يكون بعدها أي مجال للتطور ؟ وأن صور الاستبداد التي عرفتها بلادنا ظلت دائماً وراء هذه الدرجة الحرجة ؟

الواقع أن الموضوع معقد الى اقصى الدرجات ، ولكنه كذلك خطير الى اقصى الدرجات أيضاً ، ولئن كان هنالك موضوع جدير بالدراسة حقاً ، فانه هو هذا الموضوع قبل أي موضوع آخر . إلا انه ، في هذه المرحلة من حياة امتنا ، على الاقل ، يجب أن يكون موضوع الدولة كلها ، لا موضوع هذا المفكر او ذاك ، وحده ، ومن الواجب القومي أن يُطرح هذا الموضوع على صعيد البحث العام وان يُدعى الناس الى بحثه من كل ناحية ، على ان لا ندعهم يفكرون لانفسهم ، وفي حدود مقال ينشر ، أو دراسة في كتاب ، دون ان تعنى الدولة بذاتها بالنتائج التي تنتهي اليها دراسات الدارسين وابحاث الباحثين . اذ اننا عندئذ سنشهد ظهور دراسات كواكبية ، أو افغانية أو

عبدوية أو حمرية ، مرة أخرى ، دون أن يكون لها من جدوى غير أن ترن في الاسماع أسماء أصحابها ، ودون أي معرفة بمضمون ما انتهت اليه ، وما رأته مقررا ، صحيحا .

وهنا تمكن العودة قليلا الى هيجل ، الذي يخاطب الدول والشعوب ، وتاريخ كل واحد منا ، والتاريخ العام ، قائلا : كثيرا ما يحكى من أعلى المنابر ، عن تقلب الاشياء الزمنية ، وبطلانها وعن كونها في خطر مستمر . بيد أن كل انسان ، مهما بلغ به الانفعال، يحسب انه سوف يظل محتفظا بما هو له . واذا ما ظهر هذا الخطر بشكل محسوس ، مجسما في فرسان شاهرين سيوفهم ، وبدا الامر جديا لا دعابة فيه ، سترى عندئذ أولئك البشر أنفسهم ، الذين سبق ان توقعوا كل شيء ، يصبون الشتائم واللعنات على الغازين. ومهما يكن من أمر ، فان الحروب تندلع عندما تكون ضرورية لم تنمو المواسم من جديد، وتتوقف الألسن عن الثرثرة أمام جدية التاريخ (١) .

ولكن هذه العودة ليست لمجرد العبث بالفلاسفة ، أو تزيين مايكتب بأقوال المشاهير المفكرين ، بل هي عودة مقصودة ، اريد منها الاشارة الى أن الانسان العربي الذي يعود الى تاريخه ، لا ينتهي منه بالطباعات رائعة أحيانا ، ومحزنة أكثر الاحيان ، فحسب ، أو مأساوية ، أيضا ، بل أنه ليشعر أحيانا بأن صانعي هذا التاريخ ، في وضع غريب حقا لا يعرف معه ما ان كانوا جادين ، أم مازحين ، يلهون بصناعتهم مجرد اللهو ، ويعبثون بها لمجرد العبث ، أم يأخذونها حقا مأخذ الجد . فاذا نحن استبعدنا الفرضية الاولى ، ولابد من استبعادها على كل حال ، فان الانطباع الآخر ، هو أن جدهم ذلك لم يكن ، بصورة عامة ، إلا كالمزاح(٢) . وعندما يكون الجد مزاحا ، فلا ندري المزاح كيف يكون .

---

(١) نص منقول عن كتاب حضارتنا على مفترق الطرق للاستاذ رينه حبشي .

(٢) انظر كتاب الاغاني في مختلف أجزائه . ونذكر على سبيل المثال أن الوليد البنداري حج مع الوليد بن يزيد ، الخليفة الاموي . ويحدثنا البنداري قائلا :

حججت مع الوليد بن يزيد : فقلت له لما أراد أن يخطب الناس : أيها الأمير . إن اليوم يشهده الناس من جميع الآفاق . وأريد أن تشرفني بشيء . قال : وما هو ؟ قلت: إذا علوت المنبر دعوت بي ، فيتحدث الناس بذلك ، وبأنك أسررت إلي شيئا ، فقال : أفعل : فلما جلس على المنبر ، قال : الوليد البندار ، فقمت اليه ، فقال : ادن مني ، فدنوت ، فأخذ بأذني ثم قال : البندار ولد زنا ، والوليد ولد زنا ، وكل من ترى حولنا ولد زنا ، أفهمت ؟ قلت : نعم . قال : انزل الآن . فنزلت .٢٢ . الاغاني . المجلد السابع ، ص ٢٤٩٩ وقد تكون هذه الحادثة حكاية خرافية ، ولكن تنازع دول العرب في الاندلس ، أمام وحدة خصمهم ، كانت جدا كالمزاح أو مزاحا كالجد :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وليس في وسع الانسان الذي يتابع تنازع القبائل أيام الامويين ، ودعم الخلفاء بعضها ضد البعض الاخر ، والمآسي التي كان يؤدي اليها هذا النزاع ، ويتابع عبث الجنود المماليك بالخلفاء العباسيين ، وخلع الواحد منهم بعد الاخر ، وسمل عينيه وقتله ، ويتابع سلوك مختلف دول الاندلس العربية تجاه الهجمات الاسبانية . وسلوك مختلف الدول العربية ، تجاه محنة الصليبيين ، ويتابع مسيرة التاريخ اللاحق ، متابعة يقظة لايسعه الا القول ، ان جد القوم كان أشبه بمزاح كبير ، مفجع طبعا ، ولكنـــه كالمزاح في كل شيء .

والآن وفي فجر هذه النهضة العربية الجديدة ، وتحرر مختلف اجزاء الوطن العربي وتجمع ثروات البترول في الخزائن الوطنية ، والأجنبية على الغالب ، وقيام مشكلة اسرائيل بكل ما فيها من ايجاع ، وايلام ، لا بد من التساؤل : اما آن لذلك الجد ـ المزاح ، أن ينتهي ، وأن يصبح جدا خالصا لامزاح فيه ، وأن تكون بداية المطاف دراسة واعية لتاريخنا ، نستخلص منه ما يسمه العصري باسم الشوائب والعوارض ، وتحدد طبيعتها ، وتنتهي هذه الانقطاعات التي تفصل بين الناس وتراثهم ، وبين الفكر والمفكر ، وبين الباحث والباحث ، وبين كل فريق وفريق من الناس ، لعلنا نهتدي بذلك الى الطريق الاقوم ، أي الطريق التي ننشيء بها تاريخنا من جديد ، انشاءا يترك للناس بعدنا انطباعات حسنة ، اكثر مما يخلف لهم من انطباعات سيئة ، ويشعرهم بأننا حقا لم نكن نلهو في حياتنا ، ونعبث بمقدراتنا ، بل كنا ننشيء حضارة ، ونبني امجادا ، ونحقق رسالة ، ونخلف تراثاً ، يحق لهم أن يفخروا بها .

* * *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

نهوض القصة القصيرة في الخمسينات السورية

د. حسام الخطيب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في المنهج :

تحاول الدراسة الحالية أن تبين الصلة الوثيقة بين نشأة فن أدبي معين وبين الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية . وقد اختيرت مرحلة الخمسينات السورية بالذات لانها تقدم مادة دراسة Case Study فريدة سواء من ناحية التفجر والتصارع اللذين كانا يسودان القطر العربي السوري او من ناحية البروز المفاجىء للقصة القصيرة التي لم تكن معروفة في السابق بدرجة كافية . ومن المفيد ان نشير منذ البدء الى أن العلاقة بين العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وبين التطورات الادبية ليست دائما على درجة واحدة من الوضوح ، وهي تختلف حسب المراحل التاريخية وكذلك حسب طبيعة الانتاج الادبي وعلاقته بالتقليد الادبي العريق لاي قطر . ويمكن القول بوجه عام انه كلما كان الادب او النوع الادبي المعين حديث النشأة أمكن ملاحظة العوامل التحتية Infra - Structure بوضوح أشد لان الادب حينذاك يكون أقرب الى المادة الخام منه الى المادة المتشكلة بحيث يسهل الكشف عن العوامل التي دخلت في تركيبه . وذلك خلافا للانتاج الادبي المتطور الذي يصبح قادراً على تحويل المادة الخام الى مادة فنية

وعلى تمثيل العوامل وتجاوزها ضمن حدود معينة استنادا الى التجارب السابقة والموروث الثقافي والتفاعل مع المؤثرات الخارجية التي يمكن اعتبارها من أهم العوامل المساعدة على التجـاوز .

كذلك ارى من الحكمة أن أشير الى أن الايمان بالارتباط بين العوامل العامة والانتاج الادبي ينبغي له ان يرتب على الدارس اتباع منهج متزمت يحمل خطر ضيـاع الدراسة الادبية في غمرة الدراسة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وتحويلها الى دراســة سوسيولوجية ، كما هو واضح عند الذين يتبنون المناهج المتزمتة والمدرسية التي تبدأ عادة بما يسمى (الفرش التاريخي) وبعد ذلك السياسي الاجتماعي . ومن الملاحظ ان مثل هذه المناهج حين تصل إلى بيت القصيد ـ وهو تشريح الظاهرة الادبية ـ تكون قـد استهلكت نفسها وغرقت في التفاصيل المغرية للظروف الاجتماعية السياسية وفي كثير من الاحيان يضيع الطرفان معا الاجتماعي والادبي ، لان منهج المؤرخ او العالم الاجتماعي يختلف بالضرورة عن منهج الدارس الادبي ، كما ان الاسلحة البحثية التي يستعين بها الدارس الادبي قد تكون ـ في حالات كثيرة ـ غير كبيرة الجدوى في التوصل الى كشف الظاهرة المدروسة . ولنضع المسالة على هذا النحو : الاستعانة بمناهج التاريخ وعلم الاجتماع ، نعم ، مطلوبة ، والافضل أن نعتمد فيها على أصحابها . أما الحلول محل هذه المناهج فهو الخطر الذي يحسن تجنبه .

وانطلاقا من هذا الموقف يحاول البحث الراهن أن يستفيد من الوقائع التاريخية والظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، من خلال زاوية نظر محددة هي المناخ الثقافي الذي ينبثق عن هذه الظروف ، أي الكشف عن تأثير هذه الظروف يتم من خلال تحليل المناخ الثقافي ومن خلال المقتضيات التي يتطلبها هذا التحليل . وربما بدا هذا النهج صعبا في بادىء الامر ـ ولنجهر بذلك . ولكن عذرنا فيه أنه يساعد على التركيز المستمر على الظاهرة الادبية المدروسة بحيث تبدو دائما في الواجهة ولا تضيع . سيجد القارىء ان الدراسة الحالية تتناول الظاهرة الادبية ـ وهي القصة القصيرة ـ من خلال ثلاث مستويات :

المستوى الاول : نشاط الانتاج الأدبي للمرحلة ،
المستوى الثاني : الاتجاهات والمذاهب والقيم الادبية للمرحلة .
المستوى الثالث : العومل المباشرة من اجتماعية وسياسية وأدبية خالصة .

وتتكامل نتائج هذه المستويات الثلاثة لتشير الى ان نهوض القصة القصيرة في الخمسينات السورية أتى نتيجة طبيعية للتفجر الاجتماعي والسياسي والثقافي في هذه الفترة ومن خلال المستويين الأول والثاني نستنتج أن الفرصة كانت مهيأة لنهوض القصة القصيرة ، ومن خلال المستوى الثالث نحاول ان نتبين بالضبط كيف تسنى لها ان تنهض وتزدهر .

ومن الملاحظ هنا أننا لا ننطلق من المقولة المدرسية التي تعتبر كل عامل اجتماعي أو سياسي عاملا غير مباشر وكل عامل أدبي عاملا مباشرا ، وسوف يعتبر العامل السياسي عاملا مباشرا في نهوض القصة القصيرة ، ربما أكثر من - اي عامل أدبي آخر ، كما يتضح في القسم الاخير من هذه الدراسة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أفق البحث :

كانت فترة الخمسينات في سورية ، ولا سيما السنوات الثماني الأولى ، مسرحا لتطورات ملموسة على المستويات السياسية والاجتماعية والتعليمية والثقافية والادبية . وكان الجانب الادبي من هذه التطورات خصبا متنوعا ، ولولا ان القطر العربي السوري كان في هذه الفترة يخوض تجارب سياسية مثيرة وخلابة ومؤثرة في الحياة اليومية للناس لأمكن اعتبار التطورات التي اتسمت بها الحياة الادبية سمة المرحلة وعلامتها المميزة . ان الغنى السياسي والاجتماعي والثقافي لهذه المرحلة لم يتم ابرازه بعد في الدراسات القليلة جدا التي كتبت عن سورية الحديثة باللغة العربية ، وعلى أي حال فان الكتاب المحدودين عددا الذين تطرقوا بشكل مباشر أو غير مباشر الى الحديث عن مرحلة الخمسينات اجمعوا على اعتبار الحرب العالمية الثانية حدا فاصلا بين عهدين من عهود الادب في سورية واعتبروا عهد ما بعد الحرب العالمية الثانية مختلفا أشد الاختلاف في خصائصه الادبية عن مرحلة ما قبل الحرب . ونحن - وان كنا نعتبر هذا التحديد العريض مؤيدا لوجهة النظر التي يقدمها هذا البحث - نفضل ، حرصا على الدقة ، أن نعتبر مطلع

الخمسينات الحد الفاصل بين عهد النهضة الادبية القائمة على احتذاء البنى التقليدية وبين عهد النهضة المتطلعة الى التغيير الجذري (١) والمسألة بعد واضحة ، فالتغيرات الثقافية والادبية تكون عادة أبطأ من التغيرات الاقتصادية والسياسية ، ولذلك كان على سورية أن تنتظر بضع سنوات بعد انتهاء الحرب وممارسة الاستقلال الفعلي (نحن هنا أمام عامل مزدوج) حتى ندخل في تجربة التغيير الثقافي والادبي ، وقد شهدت مطالع الخمسينات جملة من التغيرات في الافكار الادبية وفي التقنيات وفي القابليات وكذلك في الانواع الادبية تسوغ للباحث أن يعتبرها مرحلة مستقلة ، ولا سيما اذا كان الامر يتعلق بفن حديث النشأة كالقصة . وهناك أسباب كثيرة أدبية وثقافية وعامة تملي على هذا الباحث أن يقف عند السنوات الثماني الاولى من الخمسينات وتشير الى أن عام ١٩٥٩ حمل دلالات بدء مرحلة جديدة في الحياة الادبية السورية برزت فيها الرواية بقوة الى جانب القصة القصيرة .

ويمكن تلخيص أهم الملامح الادبية للمرحلة على النحو التالي :

١ ــ نشط الانتاج الادبي بمختلف الوانه نشاطا قويا ، وأقبل عليه الموهوبون ، وكثرت الصحف الادبية وكذلك الصفحات الادبية في الصحف والمجلات غير الادبية ،

(١) ان دراسة شاكر مصطفى للقصة السورية مبنية أصلا على اعتبار الحرب العالمية الثانية هي الحد الفاصل في تطور القصة السورية ؛ انظر مصطفى شاكر :

محاضرات عن القصة في سورية حتى الحرب العالمية الثانية ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨ ويعبر جميل صليبا عن آراء متشابهة ، انظر بوجه خاص ص ٨١ ــ ٨٢ من :

صليبا ، د . جميل :

محاضرات عن الاتجاهات الفكرية في بلاد الشام وأثرها في الأدب الحديث ، معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

وكذلك يؤكد لونغريغ هذا الرأي ؛ انظر بوجه خاص حاشية ص ٢٦٢ من
Longrigg, S. H.

Syria and Lebanon under the French Mandate, Oxford University press, 1958.

وظهر نوع من الاحساس في جو المرحلة بأن ممارسة الكتابة الادبية مهمة لائقة ورفيعة ولافتة للنظر . وقد شهدت الخمسينات اقبال جيل كامل من الموهوبين حتى من بين الاطباء والمهندسين والعلماء والسياسيين على ارتياد الحقول الادبية .

٢ ـ ظهرت اتجاهات أدبية وتجمعات عديدة ، وقد تصارعت هذه التجمعات مع التيار القديم وكذلك دخلت في صراعات عنيفة فيما بينها ، ونجم عن ذلك بالطبع ظهور موضوعات جديدة وقيم أدبية جديدة وتقنيات متطورة وأنواع أدبية غير معروفة من قبل وطرق في التعبير تتناسب مع تطلعات الجيل الجديد وتأثيره المتزايد . وكان اقوى هذه الاتجاهات قاطبة التيار الواقعي بتنويعاته المختلفة يليه في ذلك النزعة الحداثية Modernism التي بدأت بواكيرها في الخمسينات ووجدت تعبيرها الاقوى والاشد وثوقا من نفسه في الستينات ، كما سوف يتضح من دراسة المرحلة الثالثة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٣ ـ بدأ في هذه المرحلة الخروج على التقليد الادبي العريق في سورية الذي يعتبر الشعر فنا أسمى يمتاز عن سائر فنون القول ويفوقها بالطبيعة . ولاول مرة في تاريخ سورية الحديث أخذت تمارس فنون أدبية جديدة وينظر اليها نظرة احترام نسبية ، وكانت القصة القصيرة درة هذه الانواع المستجدة واكثرها حظوة ، وعلى الرغم من ان انواعا أدبية أخرى مورست مثل المسرحية والرواية فان الخمسينات يمكن أن تسمى بحق (مرحلة القصة القصيرة) .

ان هذه السمات الثلاث هي التي صنعت شخصية المرحلة الثانية وميزتها ، وهي تستحق أن ينبسط القول فيها ويستفيض ، الى ابعد حد في معرض اي كلام عام على التاريخ الادبي لسورية الحديثة ، ولكن البحث الحالي معني عناية خاصة بتلك العوامل والسمات الثقافية التي هيأت لنشوء القصة وتطورها ، ومن هنا سوف يقتصر عرضنا لهذه السمات ومناقشتنا لها على مقدار ما تقدمه من خدمة مباشرة أو قريبة من المباشرة للغرض النوعي التي ترمي اليه دراسة حول القصة دون غيرها من الفنون الادبية .

١ ــ نشاط الانتـاج الادبي

أتيح لسورية بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة عامل خاص هيأها لنهضة اجتماعية وسياسية وأدبية ، وذلك هو حصولها على الاستقلال وجلاء القوات الاجنبية عنها خلال السنتين اللتين تلتا انتهاء الحرب ، وفيما يتعلق بالنهضة الادبية بالذات كانت هنـاك ظواهر مميزة يمكن أن تعد تعبيرا عن النهضة وفي الوقت نفسه عاملا من عوامل تسارعها . وأهم هذه الظواهر :

آ ــ الازدياد التدريجي في عدد النوادي الاجتماعية والثقافية .

ب ــ ظهور الصحف والمجلات اليومية والاسبوعية باعداد كبيرة .

ج ــ زيادة عدد الكتب المطبوعة بنسبة واضحة .

د ــ بروز أسماء الكتاب السوريين في المجلات الادبية العربية خارج سورية ولا سيما في المجلات اللبنانية ذات الطابع العربي .

وتشير الاخبار والتقارير المتتابعة في مجلة (النقاد) ــ وهي مجلة أدبية اسبوعية عاصرت المرحلة الثانية وانتهت بانتهائها ــ الى النشاطات الادبية للنوادي الثقافية في دمشق والمدن السورية الرئيسية ، وتركز بوجه خاص على الاسهام الجديد للعنصر النسائي في هذه النوادي . ونستنتج من هذه التقارير أن الجو الادبي كان مفعما بالحيوية وكانت المحاضرات تتوالى في هذه النوادي وكذلك ندوات المناقشة والحوار بفضل المبادرات الخاصة (لا الرسمية) ، وكانت تعم هذه اللقاءات روح من ديمقراطية التعبير مشفوعة بحماسة شديدة من قبل جميع المساهمين فيها . وهناك اشارات عديدة الى ظهور دوريات جديدة ــ معظمها ذات طابع أدبي ، وكذلك الى انتشار طباعة الكتب سواء منها الموضوع أو المترجم . ثم ان الاعلانات المتكررة في النقاد عن المسابقات (غير الرسمية) لكتـاب القصة القصيرة والفنون الادبية الاخرى كالمقالة النقدية والتمثيلية القصيرة تدل على بدء تشكل وعي أدبي جديد في مطلع الخمسينات(١) . فمثلا بصدور العدد الخـامس والاربعين من مجلة النقاد (اي بعد عشرة شهور فقط من صدورها) أعلنت ادارة التحرير عن (مباراة النقاد الخاصة) لاحسن ثلاث مقالات عن (الحياة الفكرية في سورية)(٢) وفي العدد الذي يليه أعلن عن مسابقة جديدة(٣) ، وهكذا دواليك .

(١) انظر بوجه خاص النقاد ، ع ٣٦ ، س ١ ، ٨ أيار ١٩٥٠ و ع ٣٧ ، س ١ ، ١٥ أيار ١٩٥٠ .

(٢) انظر النقاد ، ع ٤٥ ، س ١ ، ٢ تشرين الاول ١٩٥٠ .

(٣) انظر النقاد ، ع ٤٦ ، س ١ ، ٩ تشرين الاول ١٩٥٠ .

على أن هذه الدلائل من الانتعاش تتصل بظاهر النشاط الادبي لابباطنه ،وهناك مقالات كثيرة ظهرت في النقاد وفي الآداب اللبنانية في تلك الفترة وحاولت أن تحلل طبيعة الحياة الادبية في سورية وتقيمها . وعلى الرغم من انها جميعا كانت تجنح الى الجانب التشاؤمي وتتحدث عن وجود أزمة ادبية فان الباحث يسمح لنفسه أن يستنتج من صراحة هذه المقالات وحدتها أيضا أن الجو الادبي كان منتعشا . ولعل القاء نظرة سريعة على بعض هذه المقالات يفيد في اعطاء فكرة عن الجو الادبي للقصة في ذلك الحين .

نشرت النقاد في نهاية عام ١٩٥١ وبداءة عام ١٩٥٢ سلسلة من المقالات تحت عنوان « اضواء على الحياة الادبية في سورية » أسهم فيها عدد من الكتاب الشباب حينذاك ، ومنهم سعيد حورانية ومواهب الكيالي وسهيل (ايوب) ، ونبيه العاقل ، وممدوح فاخوري وحسيب كيالي وشحادة الخوري وجلال فاروق الشريف ورفيق فاخوري ، وكلهم من المساهمين في (رابطة الكتاب السوريين) التي سيأتي الحديث عنها بعد قليل(١).

ويمكن تلخيص اهم الاراء التي ترددت في المناقشات بما يلي :

١ ــ هناك اربع فئات واضحة من الكتاب :

الاولى : فئة التقليديين المتحجرين في قوالب القديم .

الثانية : فئة شقت الطريق حين كان الطريق مظلما مخيفا وصبرت وجاهدت وبذلت ثم تجمدت وأخذت تطالب الناس باتاوات وتعاقب الخارجين عن خطتها .

الثالثة : فئة انفعالية جحدت ما بناه الاقدمون ورات قبه (تطبيلا وتزميرا) واخذت تدعو دون أي تبصر الى كل بدعة جديدة .

الرابعة : فئة تحترم القديم ولكنها تؤمن بالتقدم وبالعلم وبحسن الاختيار ، وهي (التركيب Synthesis) المنشود لاصطراع الفئات المختلفة .

٢ ــ القراء حائرون موزعون بين الطرفين المتصارعين القديم والجديد ، والجميع غير متاكدين من مواقفهم ، ولكن هناك احساسا عاما بالحاجة الى قيم جديدة .

٣ ــ الحياة في سورية غنية باحداثها وموضوعاتها ولكن الحياة الادبية متخلفة عنها وهي تفتقر الى الشخصيات الادبية المتميزة . ففي المجتمع العربي : « الف راسكولنيكوف وانا كارنينا ، ولكن ليس فيه دوستويفسكي وتولستوي وتشيكوف وغوركي»(٢).

---

(١) انظر اعداد النقاد على التوالي : ع ١٠٨ ، س ٣ ٣١ ك ١ ١٩٥١ ، حتى العدد ١٢٣ ، س ٣ ١٤،نيسان ١٩٥٢ .

(٢) من مقال لحسيب الكيالي في النقاد ، ع ١١٤ ، س ٣ ، ١١ شباط ١٩٥٢ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

٤ ـ المستوى الثقافي للادباء ضحل ، وثقافتهم مبنية على الاعمال البدائية والمدرسية ، والادب العربي في سورية يتغذى من موائد طه حسين والعقاد وجيلهما .

٥ ـ الازدهار الظاهري والكمي يقابله تخلف نوعي ، والانتاج بوجه عام مبعثر وصور المستقبل قاتمة .

٦ ـ هناك غياب كامل للنقد الادبي .

٧ ـ الترجمة خير ما قدمته المرحلة من انتاج .

وقد وضح التفاوت بين التفاؤل بالازدهار الظاهري والتوجس من المستوى المتدني للادب في التقارير والمقالات المتوالية التي كتبت في مجلة الاداب اللبنانية التي كانت اللسان العربي لمرحلة الخمسينات . وتؤكد رسالة من مراسل الاداب بدمشق في آيار ١٩٥٣ على ظاهرة انتعاش الادب في النوادي الثقافية ، وتشير الى أن الحياة الادبية مزدهرة من خلال المحاضرة والندوة ولكن الكتاب الجيد مفقود . وهناك تقرير آخر نشر بعد اربع سنوات من التقرير الاول يحمل تاكيدا جديدا على ان (المرحلة الثانية) باكملها اتسمت بالميزات التي سبق ذكرها اعلاه . وقد كتب هذا التقرير احد كتاب المقالة والقصة البارزين في سورية ،(واشار في البدء الى ظاهرة الادب الخفيف من خلال المحاضرات والندوات المسائية في النوادي واوضح أن هذ الادب يمثل تفجر الطبقة البورجوازية ومفهوماتها الادبية السطحية ويحاول أن يقدم نفسه بديلا للانتاج الادبي الجدي . ولاحظ المراسل أن الاعمال الابداعية في الفن والادب والعلم نادرة حينذاك ، وان الانتاج الادبي يعاني من البحران والاضطراب ويخفق في الانبثاق بالشكل والقالب الملائمين (١) وبوجه عام استمرت رسائل مجلة الاداب من دمشق تشير الى ظهور كتب جديدة وجمعيات جديدة وتجمعات ثقافية ولكنها تضمنت في الوقت نفسه نقدا لاذعا للموقف الادبي . وقد اجمع الادباء المعروفون الذين استشهدت باقوالهم هذه المراسلات على وجود أزمة أدبية وغياب الادباء الاصيلين . ولكنهم أيضا أشاروا الى تبلور طبقة من القراء المتطلعين الى الاصالة والمطالبين بمستويات رفيعة من الانتاج الادبي .

---

(١) انظر : الصفدي ، مطاع « حصيلة الموسم الثقافي في سورية » ، الاداب ، آذار ١٩٥٧ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأكد صدقي اسماعيل مثلا ان « القارىء العربي اليوم اكثر وعيا وتذوقا للادب الجيد من معظم أدبائنا أنفسهم » (١) .

وقد لاحظ أكثر من أديب واحد ان الازمة علامة صحة وحياة ، وفي رأي صدقي اسماعيل ان محاذير هذه الازمة : « تتعلق بالحاضر لا بالمستقبل ، فمن المؤلم ان يتلمس القارىء العربي صفحات جديدة في أدبنا الحديث فلا يجدها . اما ما يتعلق بالمستقبل فان وجود أزمة أدبية بحد ذاته هو دليل على أن الانتاج الادبي الجيد اصبح قضية جدية بالنسبة لحياتنا ، وكل أزمة من هذا النوع لا بد ان تتمخض عن أدب مبدع »(٢) .

وقد شارك فؤاد الشايب في هذه النغمة التفاؤلية ، وبدا شديد التأكد من تألق المستقبل وفي مقال له عن الادب في سورية حاول تحليل الواقع الفكري والادبي المتردي في منتصف الخمسينات على أساس انه مرحلة انتقال فحسب وتنبأ بأن الانتاج الفكري السوري ــ لا الادبي فحسب :

« سيكون بعد المخاض الطويل العسير اجزل مادة ، وابدع نهجا ، وأوسع اشراقا ، وأبعد طموحا في اداء رسالة عربية وانسانية معا » (٣) .

وقد أكد هذا التفاؤل ايضا كاتب متشائم بطبعه مثل عبد الباسط الصوفي(٤) على ان معظم الكتاب الآخرين كانوا الى جانب التشاؤم من المستقبل . ويلفت النظر في جميع تعليقات الكتاب السوريين حول الواقع الادبي في الخمسينات انهم كانوا منقطعي الصلة

(١) انظر مثلا الآداب ، ايلول ١٩٥٥ ، حيث نشرت خلاصة استفتاء حول الحياة الادبية في سورية اجرته جريدة (الكفاح) السورية .

(٢) المصدر السابق .

(٣) (النشاط الثقافي في العالم العربي) ، الآداب ، حزيران ١٩٥٥ .

(٤) انظر آثار عبد الباسط الصوفي الشعرية والنثرية ، وزارة الثقافة، دمشق ١٩٦٢ من ص ٣٦١ ــ ٣٦٢ .

تقريبا بالماضي القريب . وكلهم كان مشغولا اما بالمستقبل واما بالماضي البعيد ، باعتبار هذين القطبين مصدري غنى والهام . ونادرا ما كلف أحدهم نفسه مشقة المقارنة مع الاربعينات أو الثلاثينات او أوائل القرن . ويمكن للمرء أن يستنتج من هذا الموقف ان هؤلاء الادباء كانوا يحسون ـ على اختلاف أجيالهم ـ أنهم أبناء مرحلة جديدة تختلف عن كل ماشهدته سورية قبل الحرب والاستقلال . ويصعب على المرء أن يلومهم بالطبع لان الماضي القريب كان غامضا وقلقا ومضطربا ، ولم يخلف لهم اية قيم ادبية تذكر أو اي نوع من انواع النبوغ الادبي الذي يمكن التعلق به . إلا أن الباحث اذ يتجاوز هذه النواحي ، لا يستطيع الا أن يؤكد أن ازدهار الادب العربي في سورية الخمسينات كان أشبه بقفزة اذا ما قيس بما كان عليه الانتاج الادبي في النصف الاول من القرن العشرين ، وعلى الرغم من تشاؤم بعض الادباء من حاضر الادب في تلك الفترة فانه يمكن القول أن الادب لقي من العناية والاقبال على مستوى المثقف والرجل العادي مالم يلقه في اية فترة أخرى قبلها في تاريخ سورية الحديث ، وحملت ممارسة الكتابة الادبية في ذلك الحين اغواء خاصا لكل ذي موهبة ، وكان السياسي والمعلم والطبيب والمهندس وغيرهم من أبناء الانتلجنسيا والبرجوازية المتعلمة متفقين على أن الاسهام في الصحافة الادبية هو أشبه بمجال حيوي لهم (١) ، أما الاضطراب الادبي فتفسيره واضح جدا ، فقد كان القطر يعيش مرحلة انتقال بين القديم والجديد ويتهيا لدخول الحياة الحديثة ، وقد اكتسب الصراع بين القديم والجديد تشتتا خاصا بسبب طبيعة التطور الاقتصادي والاجتماعي في مطلع الخمسينات . اذ كانت برجوازية المدن قد أخذت تتبلور في المدن الكبرى (دمشق وحلب وحمص) وتبحث عن قيم ادبية وفنية ملائمة لها ، ولم تكن مقيدة باي قيد سوى عدم اثارة التقليديين بشكل مباشر ، ولذلك فتحت أبوابها للتأثيرات وللتجارب المختلفة ، كما أن عددا من أبناء البرجوازية الصغيرة أو من المتأثرين بهـا

(١) قد لا يكون هناك نصيب كبير من رصانة البحث في الاشارة مثلا الى أن كثيرا من الطلبة المبدعين كانوا يختارون الفروع الادبية للدراسة في الجامعة عن رغبة وطواعية ، في حين أصبح مفهوما اليوم مثلا أن الفروع الادبية هي احتياطي اجباري لمن جانبه الحظ في الدراسة العلمية ، وربما كانت هـذه الظاهرة تعبر عن وجود فارق كبير بين مناخي المرحلتين وروحيهما .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ثقافيا وقيميا نصبوا من انفسهم دعاة لمصالح العمال والفلاحين في مجتمع غابت فيه السمات الخاصة لهاتين الطبقتين ، مما نجم عنه تبعثر وتشتت في الادب الذي كان يطلق على نفسه تسميات واقعية وتقدمية . وبكل بساطة أدى عدم التشكل الاجتماعي الى عدم تشكل أدبي ، ولكن تماما مثلما كان المجتمع العربي في سورية يتطلع الى الخلاص من تخلفه واضطرابه كان الادب يعمل بجد لتجاوز عقبته والتبشير بقيم جديدة من خلال أشكال تعبيرية وفنون أدبية مستحدثة وسريعة التلبية للحاجات القائمة ، ومن هنا كانت القصة القصيرة ــ بوجه خاص ــ هي المرشحة أكثر من غيرها للتعبير عن التطلعات الدافقة في الصدور . وسوف نرى فيما بعد انها وفت بما وعدت .

(للبحث صلة)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صدر حديثا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

مشاركة المرأة في الحياة العامة

في سورية

منذ الاستقلال ١٩٤٥ وحتى ١٩٧٥

نبيلة الرزاز

تزييف اسم

العرب في المؤلفات الأوروبية

د. أحمد حيله

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يرد اسم العرب في النصوص الاوروبية منذ بداية القرون الوسطى وحتى مطلع القرن التاسع عشر تحت اسم « ساراسينن » Sarazenen . ما أصل هذه التسمية وما مداولاتها ؟ للذلك أكثر من نظرية مختلفة المرمى ، لكن لا تخلو أي منها من تجنٍ ، كما لا تخلو من طرافة .

« ... ومات هداد فملك مكانه سملة من مسريقة » ، هكذا يخبرنا الانجيل في سفر التكوين ٣٦ : ٣٦ . اذا كان لهذه « المسريقة » ، وهي مدينة غابرة وجدت جنوبي شرق البحر الميت ، اي علاقة بـ « ساراسينن » أو « ساراكينن » ، فقد حصلنا هنا على أقدم سند لهذه التسمية . يرى المستشرق ب. موريس في تشابه الاسمين ـ دون أن يبرهن كيف والى اي مدى ـ برهاناً على أن بينهما صلة قائمة على القرابة والاشتقاق(١). ولكن ما من أحد يستطيع اليوم نفي أو اثبات علاقة كهذه ، لان كلمات مشابهة لـ « ساراسينن » أو قريبة منها نادراً ما ترد في نصوص ما قبل السيد المسيح . ولذلك كان ادعاء موريس : « ان أسم ساراكيني مغرق في القدم بدليل وروده في سفر التكوين ٣٦ : ٣٦ تحت اسم (مسريقة) » (٢) هو راي لا يمكن اقراره .

---

(١) ب. موريس ، طقوس سيناء في العهود الوثنية ، برلين ١٩١٦ ، ص ٩ .
(٢) انظر المرجع السابق ، ص ٩ .

لم أن من غير المؤكد صحة اعتبار التعبير « اراكيني » الوارد في تاريخ بلينيوس الثاني (٢٣ – ٧٩ ب . م) مساوياً لتعبير « ساراكيني » ، سيما وان هذا المؤرخ ينقل قبائل الـ « أراكيني » الى جوار قبائل عربية داخلية معروفة كالنبطيين وبني طي ، حيث أقام الساراسينيون المجهولون . (١) ان تساوي كلا التعبيرين بتارجح بين تأييد المستشرق موردتمان(٢) واقتناع موريتس(٣) الذي لا يتزعزع ، مما يجعل من المحتمل أن الـ A في Araceni قد تبنت ، بطريقة او بأخرى ، مهمة Sa او انها خطيئة مطبعية . كلا الأمرين غير مؤكد وقابل للطعن . ولدى ديوس كوريديس (القرن الاول بعد الميلاد) نهتدي لأول مرة الى سند واضح . ففي مؤلفه « حول العقاقير الطبية » يتحدث الكاتب – الذي شغل منصب طبيب عسكري في روما – عن « شجرة ساراكينيه » تنتج مادة الراتنج(٤) . صحيح أن ديوس لم يتطرق آنذاك الى ذكر شعب او قبيلة ساراكينيه؛ ولكنه فتح الطريق امام خلفه الذين استطاعوا فيما بعد الاخبار عن قبائل وأمم تحمل هذا الاسم .

من وأين كان هؤلاء الـ « ساراسينين » أصلاً ؟ ذلك ما أخبرنا عنه جغرافيو ومؤرخو وثيولوجيو بيزنطة والاغريق الكثير ، بينما صمتت أقلام العرب . فمفكرو القرون الاولى بعد المسيح يعتبرون « ساراكينن » قبيلة عربية ، يحددون مواطنها في أماكن مختلفة من شبه جزيرة العرب وسيناء .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

كلاوديوس بطليموس – الجغرافي والرياضي الشهير ، الذي عاش في الاسكندرية حوالي ٨٥ – ١٦٠ ب.م) يذكر فيما يذكر في جغرافيته (٦ ، ٧ ، ٢١) (٥) ان « ساراكنوي »

---

(١) بلينيوس الاكبر Naturalis Historia ، اعداد ديتلفش ، برلين ١٨٦٦ ، الجزء الأول ص ٢٦٣ .

(٢) انسيكلوبيديا الاسلام ، لايبزيغ ١٩٣٤ ، مقال Sarazenen

(٣) ب . موريتس ، مقال Saraca في انسيكلوبيديا العلوم الكلاسيكية ، شتوتجارت ١٩٢٠ .

(٤) انظر ديوس كوريديس de Materia Medica اعداد ماكس فيلمان برلين ١٩٥٨ ، ص ٦٠ .

(٥) أدين بالشكر لكتاب أ. شبرنجر ، جغرافية العرب القديمة ، أمستردام ١٩٦٦ ، اعادة لطبعة برن ١٨٧٥ ، خاصة الفقرات ٣٢٨ ، ٣٥٢ ، ٤١٨ و ٤٢٢ وفي تعرفي على جغرافية وخريطة بطليموس .

من الشعوب الداخلية في شبه جزيرة العرب ، اقاموا الى الجنوب من قبائل يسميها Skeniten و Oaditen في منطقة البتراء فيما يشكل اليوم شمال العربية السعودية . ويعرف بطليموس بقعة من الارض تحت اسم « ساراكيني » (جغرافية بطليموس ٥ ،١٧، ٣) تطابق اليوم منطقة شرق قناة السويس ، ومدينة واقعة في جنوب شبه الجزيرة يسميها « سراكا » (٦ ، ٧ ، ٤١) .

يبدو ان تناقضا صارخا يكمن في هذه التفصيلات . فالعرض البطليمي يفصل بذلك السكان عن مواطنهم . فبينما ينبغي منطقيا أن يستوطن ساراكينوه في المنطقة او في المدينة المسماة باسمهم (وبما ايضا العكس صحيح !) ، فهو يبعدهم عنها أميالا . ويحاول موريتس أن يبرر هذا التناقض بالحجة القائلة ان القبائل العربية ــ سواء في غابر الازمنة او اليوم ــ غالبا ما اضطرت الى تغيير مستوطناتها طبقا لحاجتها الى المادوالمرعى(١) ذلك صحيح لولا ان جغرافيا آخر ــ بعد بطليموس باربعمائة عام وبعد توقع هجرات عربية عديدة ــ هو ستيفانوس البيزنطي قد اسكن « ساراكينيه » في البتراء العربية وليس في العربية السعودية ، وذلك في منطقة يسميها ستيفانوس « سراكا » ، مطابقة تماما لبقعة « ساراكيني » البطلمية (٢) .

وفي رأي « قاموس اسماء امكنة الانجيل » الذي الفه المؤرخ الكنائسي اوي زيبيوس (٢٦٠ ــ ٣٣٠ ب.م) وترجمه وأتمه الاب هيرونموس (٣٤٨ ــ ٤٢٠ ب.م) ينبغي التفتيش عن الـ « ساراكنوي » حيث اقام جدهم اسماعيل ، وذلك ــ كما هو معلوم ــ في مدينة « فران » وراء شبه جزيرة العرب (٣) . هذه الفران ــ مدينة وجدت في سالف العصور بالقرب من جبل سيناء ــ تظهر تارة في الخريطة البطلمية في منطقة « العربية السعيدة » ، مطابقة تماما لرأي أوي زيبيوس ، وتارة أخرى بعيدة الى الجنوب من بقعة « سراكا » الستيفانية ، التي هي برأي ستيفانوس المقر الاصلي لموطن الـ « ساراكينن » .

(١) موريتس ، مقال Saraca في انسيكلوبيديا العلوم الكلاسيكية ،شتوتجارت،١٩٢٠ .
(٢) Ethnica des Stephanus اعداد آ. ماينيكي ، برلين ١٨٤٩ ، ص ٥٥٦ .
(٣) Onomastikon ، اعداد ايريش كلوسترمان ، هيلدسهايم ١٩٦٦ ، ص ١٦٦ ، ١٧٢ .

لقد عرف بطليموس مدينة فران حتما ، لكنه لم يربطها مطلقا بقبائل الـ « ساراكينن » . بل على العكس من ذلك : ففران واقعة في البتراء العربية حسب رأيه ، بينما هؤلاء استوطنوا « العربية السعيدة » . .

ادوارد كلازر ــ مضطلع كبير في جغرافية العرب القديمة ــ يشاطر بطليموس الرأي ويعطينا تحديدا ادق : طالما أن المناطق الواقعة شرق سلسلة جبال السراة ــ هكذا يرتأي كلازر ــ تسمى « مشرق » أو « شرق » فقد سكنت قبائل الـ « ساراكينن » شرق السراة وبشكل أدق جنوب غرب جبل شمار (١) .

إذن اما في فران أو في منطقة شمار او في البقعة الواقعة جنوب قبائل Oaditen قد استوطن هؤلاء القوم . لكن اين اقاموا بالتحديد ــ ان كان لهم في يوم من الايام وجود ــ هذا ما سيبقى في رأيي لغزا ، والى الابد .

لم تختلف الآراء فقط حول الموطن الاصلي للـ « ساراكينن » ، بل تباينت ايضا حول أصلهم العرقي ، بحيث لا نستطيع في هذا المجال الحصول على صورة واضحة .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

إن اعتقاد شبرنجر بأن هؤلاء القوم قد حملوا اسما آخر قبل أن يحتكوا بالرومان ، جدير بأن توجه اليه الانظار بعناية (٢) . فقد ثبت له أولا ان مواطن الساراكينن ، صحراء التيه أو بالاحرى جفار (ساراكيني السنفانية) والحومة في العربية السعيدة هي نفس مواطن اخوتهم من القبائل العربية المعروفة لخم وجزام . فينتج عن ذلك ان ساراكينن هي تسمية لاحقة لهاتين القبيلتين . ويذهب شبرنجر في الاعتقاد أيضا أن المعنيين ، الذين احتلوا تلك المناطق قبل المسيح بخمسمائة عام هم في الاصل سلف لأولئك . وفي نص آخر يعتبر شبرنجر ان الصابئة هم السلف . فباستناده الى خبر للمؤرخ سترابو (٣٦ ق.م ــ ٢٠ ب.م) مفاده أن الصابئة استوطنوا العربية السعيدة يأتي شبرنجر الى الاستنتاج التالي : « ... اعتبر ان الصابئة هم اجداد الساراكينن » .

(١) ادوارد كلازر ، الخطوط العريضة لتاريخ وجغرافية بلاد العرب منذ اقدم الأزمنة حتى النبي محمد ، الجزء الثاني ، برلين ١٨٩٠ ، ص ٢٣٠ .

(٢) أ. شبرنجر ، جغرافية العرب القديمة كاساس لتاريخ تطور السامية ، بيرن ١٨٧٥ ، ص ٢٠٠ ــ ٢٠٢ .

وخلافا لذلك يطور موريتس نظرية تقول ان بني قدم الوارد ذكرهم في التوراة (قضاة ٦ ، ٣) ، الذين استوطنوا اما في صحراء التيه الاسرائيلية او في ايدوميا ؛ وبتعبير أدق في منطقة مسريكا ، هم ساراكينيو الكلاسيكيين[١] . هذه النظرية تنطلق من افتراض انكلمة ساراكيني تعود في الاصل إلى الجذر العربي « شرق » . وكلمة قدم التي تعني أسفل الرجل ، تتضمن معنى « أمام » ، يمكن ان تعني أيضا ـ حسب موريتس ـ « شرق » . وبنو قدم هم اذن بنو الشرق او ساراكينن .

فريتس هومل يترجم كلمة قدم بـ « أمام » ويخترع لها الـ مرادف الذي تطرق اليه موريتس وهو « الشرق » [٢] ويقول : « مما يجدر بالتمحيص معرفة فيما اذا كان اسم ساراكنوي ترجم لـ « قدم » ، سيما وان هذه القبيلة استوطنت في أقصى شمال غرب الجزيرة العربية » [٣] .

لكن هومل يستبعد اشتقاق التسمية من تعبير « ابناء الشرق » رفضا باتا .

إما بالنسبة للثيولوجيين اوي زيبيوس ، هيرونموس وغيرهم فقد بدت المشكلة اقل تعقيدا ؛ حيث اعتبروا أن احفاد اسماعيل ، الذين سموا في الاصل اسماعيليين او هاجاريين قد غيروا إسمهم عمدا الى ساراتسينن [٤] . هذا الادعاء لا أساس له من الصحة ونقضه كامن فيه ، كما سأبين فيما بعد .

اذن لم يستطع الباحثون في علم الاصول ان يتفقوا على راي ، والسؤال عن اصل القوم الذين سموا بهذا الاسم سيبقى بدون جواب ، كما هو الحال في مشكلة البحث عن موطنهم .

بصرف النظر عن ذلك يبدو أن الـ « ساراكينن » سرعان ما أصبحوا ذوي شان وشهرة . فالى جانب قبائل عربية مهمة وشهيرة بارت النصوص تخصهم بالذكر بنفس الاهمية والشهرة . وفي الفترة التي عاش الكاتب السوري بارديساني (١٥٤ ـ

---

(١) راجع مقال Saraca في انسيكلوبيديا العلوم الكلاسيكية .

(٢) فريتس هومل ، اصول جغرافية الشرق القديم ، الجزء الثالث ، ميونخ ١٩٢٦ ، ص ٥٩٧ .

(٣) المرجع السابق ، ص ٥٩٩ .

(٤) اوي زيبيوس Onomastikon ، ص. ١٦٦ ، ١٧٢ .

٢٢٢) يبدو أنهم لعبوا دوراً كبيراً في الحياة العربية . ففي كتابه « قوانين البلدان » يشكلون موضوعا رئيسيا وعلى قدم المساواة مع قبائل عربية اخرى في صدارة العرب كبني طي والليبيين والموريتانيين (١) . وقد فرق بارديساني بين الـ « ساراكوبي » وبين البدو ، فقد كان لاولئك عادات وتقاليد شعب مستقل قائم بذاته .

وفيما تلا من الزمن حصل دمج في أسماء القبائل العربية لصالحهم ، نستطيع تتبعه لدى المؤرخ الروماني اميانوس ماركيلينوس (٣٢٠ ــ ٣٩٠ ب.م) . اميانوس يصادق على أن « ... القبائل العربية التي عرفت باسماء مختلفة ، تسمى الآن ساراكينوس » (٢). فالاسماء المركبة مثل Saraceni Assanite ؛ Saraceni Thamudeni تظهر بجلاء انتشار هذه التسمية بين الغسانيين والثموديين ومرحلة الانتقال الى شمولها في التعبير عن كل العرب ، حتى اولئك خارج شبه جزيرة العرب في سورية والعراق .

قبل ظهور الاسلام كان ذلك بديهيا بالنسبة للبيزنطيين . ولم تلعب الفروق الدينية اي دور ، فلم يفرقوا بين اليهود والمسيحيين والوثنيين من العرب من حيث تسميتهم ساراكينن . ولدى اسلمة معظم العرب وانتشار العداء بين الامبراطورية البيزنطية والاسلامية ، طلي مدلول هذه التسمية بمسحة دينية فاقتصرت فقط على التعبير عن المسلمين من العرب . وقد اعتبر هؤلاء عبر نصوص العقيدة الارثوذكسية ــ طبعاً الى جانب انصار مذاهب اخرى كالارمن واللاتين وغيرهم ــ هراطقة . وبتعبير آخر لم تنظر لهم هذه الكنيسة على انهم أسوأ الشعوب قاطبة كما كان الحال بالنسبة للكنيسة الكاثوليكية .

مع مطلع القرن التاسع الميلادي بدأ نيكيتا البيزنطي حملة فكرية ضد الاسلام . تطورت في القرون التالية ــ وخاصة الرابع والخامس عشر منها ــ الى حرب عقائدية

---

(١) بارديساني ، قانون البلدان ، أعده كاريتون ، لندن ١٨٥٥ ، ص ٢٤ .

(٢) اميانوس ، Res Gestae ، عن الترجمة الانكليزية ل جون رولف ، لندن ١٩٥٦ ، كتاب ٢٢ ، فقرة ١٥ ، ٢ .

منظمة (١) . ولكن ذلك كله بقي بدون أي يذكر ، لأن الكنيسة الارثوذكسية انشغلت أكثر بمعاداة أختها الكاثوليكية .

اما مفكرو أوربا فيدينون بالشكر للبيزنطيين في التعرف على هذه التسمية . ف « ساراكيني » اللاتينية ليست إلا التعبير اليوناني « ساراكنوي » المختلف قليلا في لفظه . ويظهر تعبير مماثل في اللغة الالمانية القديمة على شكل « زيرتسو » أو « زيرتسي » . بينما توصلت لغة العصر الوسيط الى اشكال عدة منها « زاراتسين » و « زاراتسين » ، الى ان اتخذ التعبير شكله النهائي الوحيد في اللغة الالمانية الحديثة « زاراتسينن » . ان اولى نصوص الأدب الالماني تعرف هذا التعبير فقط بمعناه العرقي والجغرافي للعرب وبلاد العرب . لكن مع انبثاق عصر الحروب الصليبية تحول مدلوله شيئاً فشيئاً الى التعبير عن اعداء الصليب في فترة احتدم فيها الصراع بالسيف والقلم بين المسيحية والاسلام ، وفي العصر الوسيط تتردد كلمة « زاراتسين » بشكل يندر أن تخلو منها صفحة من كتاب . وقد قصد بذلك في اطار محدود جميع الشعوب الاسلامية ، وعلى مدى أبعد كل الكفار ، اي كل من هم غير مسيحيين . في ملاحم ذلك العصر يخترع أبطال مسيحيون - اذكر هنا ب- لوهن غرين - يقاتلون الـ زاراتسين الهمدين المسيحية ، المتفوقين عدة وعدداً وينتصرون عليهم . وتخترع أيضاً آلهة زاراتسينية كـ ترفيجانت ، أبولو ، كاهوني ، يوبيتر وغيرهم لا علاقة لها من قريب أو بعيد بالاسلام (٢) . ويعتبر هؤلاء الشعراء النبي محمداً واحداً من آلهة الـ زاراتسين . وتصور هذه الملاحم معارك طاحنة يتقابل فيها مقاتلون مسيحيون شجعان نذروا أنفسهم بكل إيثار لله ؛ يحميهم ويدعمهم ويعودهم الى النصر المؤكد يسوع والروح القدس ، مع مقاتلين زاراتسينيين يحدوهم الجشع والتعطش للدم دون اي مثل ؛ وينادون « محمدهم » في اللحظة الحاسمة فلا يجيب . (٣) وبعد انتصار المسيحيين الأبديهي يتبقى من الجيوش الزاراتسينية فقط قتلى أو مرتدون الى المسيحية .

---

(١) للاطلاع على تفاصيل أكثر حول موقف البيزنطيين من الاسلام راجع كتابي ، تصورات القرون الوسطى الاوربية عن النبي العربي ، برلين ١٩٧١ ، ص . ٥٢ - ٥٧ .

(٢) بينما كان أبولو إلهاً للنور والشعر والموسيقى عند اليونان ، ويوبيتر إلهاً للمطر والرعد واعظم الآلهة عند الرومان ، لم نستطع معرفة الإلهين الباقيين ترفيجانت وكاهوني .

لكن شعراء هذه الملاحم والاناشيد يقدمون لنا أحيانا سلاطين وفرسانا زاراتسينيين يتحلون بالشجاعة والكرم وحسن التدجج بالسلاح واستعماله ، ويرتدون الثياب المزينة الجميلة . حتى أن الشاعر الالماني الكلاسيكي الكبير فولفرام فون ايشنباخ يرسل بطل ملحمته وهو الفارس غاموريت الى بغداد في خدمة السلطان ، ذلك « الرجل العظيم الذي تدين له أصقاع الارض بالولاء » (١) ، الى حيث توجد أفضل الامكانيات لفارس موهوب ليتمكن من تحقيق قدراته .

وعبر قرون العصر الوسيط امتد وانتشر مدلول هذه التسمية بصورة لم يسبق لها مثيل ، لكن بصبغة تحقيرية ، فلم يتهم فقط ـ طبعا من وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ـ الكفار المعاصرون ، بل أتهم أيضا وثنيو العصور الكلاسيكية بأنهم زاراتسينيون . واطلقت هذه التسمية بداعي التحقير ايضا على النورمانديين ، الفانداليين ، الجرمانيين ، الغجر ، الاتراك وغيرهم ، طبعا لأنهم جميعا غير مسيحيين ـ كاثوليكيين على الاخص . واستخدم هذا التعبير ليؤدي معنى الشتم فارتبط معناه بالعار والفضيحة ، والصق بكل من يرتكب جريمة قتل أو سرقة . وبالتدريج سمي الصليبيون العائدون من الشرق أو اولئك الذين عاشوا في الشرق زاراتسينين ، الى أن اشتقت أسماء أوربية من هذه التسمية واستوطنت في لغات اوربية عدة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(١) في مؤلفات العصر الوسيط كالملاحم الشعبية الفرنسية وادب الـ geste Chanson وملحمة رولاند الالمانية وCyclical de Plays الانكليزية ومؤلفات اخرى لا يظهر محمد مطلقا كنبي بل كإله لـ « ساراتسينن » الى جانب آلهة اخرى ، وقد امر اتباعه بممارسة طقوس وثنية لتقديسه . للاطلاع على هذه التصورات عن الطقوس الوثنية في الاسلام راجع كتابي ، تصورات القرون الوسطى الاوربية عن النبي العربي ، برلين ١٩٧١ ، ص ٦٥ ـ ٧٠ . يرد المستشرق الالماني هانس بروتس على ذلك بقوله :
« ... والاسوأ من ذلك هو أن يُعتبر الدين ، الذي تكمن اهميته التاريخية قبل كل شيء في مبدأ التوحيد ، وأنه عمل على تطبيق هذا المبدأ بعزيمة لا تعرف الوهن وتصميم لا يقبل الجدل ، أن يعتبر لدى المسيحيين دين أصنام ووثنية » . انظر هانس بروتس ، التاريخ الحضاري للحروب الصليبية ، برلين ١٨٨٣ ، ص ٧٦

(٢) راجع ملحمة باوسيفال ، أعداد لاخمان ، الطبعة الثانية ، برلين ١٨٥٤ ، الجزء الاول ١٣ ، ١٧ ـ ١٨ .

من الجدير بالذكر أن اللغة الالمانية في العصر الوسيط قد بنت وطرحت للتداول ـ الى جانب الاسم المعروف زاراتسين والصفة زاراتسينش ـ الفعل Sarrazinen بمعنى فلان يكون زاراتسينيا . ومع الزمن تشكلت طائلة مفردات فسمت فيما ضمت الدم الزاراتسيني ، الاثبات الزاراتسيني ، القتل الزاراتسيني ، الضابط الزاراتسيني وهلم جرا .

وخلف الاسوار الزمنية للعصر الوسيط فقد عاشت هذه التسمية بمدلولها الشامل حتى قبيل عصر الاخوة Grimm ؛ ولم يبق من ذلك المدلول بعد ذلك سوى استعمال شاعري . اما اليوم فقد اختفت الى الابد .

حول أصل واشتقاق هذا التعبير ظهرت نظريات عدة تتارجح بين الامكان والاستحالة ومنها ما هي مرجحة الاحتمال . ولكن ما من واحدة نستطيع إقرارها بدون اي تحفظ .

١) يدعي هيرونموس أن « الاسماعيليين أو الهاجاريين ، الذين سموا انفسهم ساراكيني ، ارادوا بذلك ان ينتسبوا زورا وبهتانا الى سارا . »(١) ويدعم هذا الراي الاب الكنالسي ابزيدور الاشبيلي . (٢) بذلك شكل هذا القول مقياسا لكل مؤرخي وثيولوجي العصر الوسيط قرونا عديدة . فقد كرر هؤلاء وجهة النظر هذه دونما تفكير في صحتها ـ على ما يبدو كحقيقة لا تقبل الجدل . لكن الاغرب هو أن تجد في القرن العشرين مؤرخا هو كارل دور ، يستطيع القول وهو مرتاح الضمير : « لقد اخذ العرب هذه التسمية عن الكتاب المسيحيين باعتزاز ، كونهم يتخلصون بذلك من مغبة الانتساب الى اسماعيل، ابن ابراهيم وهاجار غير الشرعي ، لينتسبوا الى الزوجة الشرعية سارا . »(٣)

---

(١) هيرونموس ، تفسير حزقيال ، كتاب ٨ ؛ فصل ٢٥ ؛ مقتبس عن Migne Patrologia Latina جزء ٢٥ ، ص ٢٣٣ .

(٢) ابزيدور الاشبيلي ، كتاب الاصول ، اعداد لندسي ، اوكسفورد ١٩١١ ص ٦ ، ٥٧ .

(٣) كارل دور ، الغاز شعوب جبال الالب السويسرية : فالزار ، فيكينغر ، زاراتسينن ، بيرن ١٩٥٣ ، ص ١٠٣ .

ان انتساب العرب لاسماعيل وهاجار حقيقة يتفق عليها المؤرخون الحديثون : عربا وأوربيين ، مسلمين ومسيحيين . ولم يشعر العرب يوما بالحرج كون هاجار جدة لهم ، كما لن يشعروا بالمجاملة لو انتسبوا الى سارا بل على العكس من ذلك : لقد اعترفوا بنسبهم بكل فخر واعتزاز وفي حديث شريف يروى من الرسول انه قال :«اذ فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيرا ، فان لهم ذمة ورحما .» (١) والمقصودة بحاملة صلة الرحم هذه هي بالطبع هاجار . وعلى الرغم من ذلك لم يسم العرب انفسهم في يوم من الايام لا هاجاريين ولا اسماعيليين(٢) ولا زاراتسينن . ولم تدخل هذه التسمية قاموسا عربيا . لذلك نرى الرحالة العربي ابن بطوطة (١٣٠٤ ــ ١٣٧٧) يشرح لقرائه كلمة « ساراكينو » التي خاطبه بها مضيفه ملك القسطنطينية ، الذي كان قد اختار حياة الرهبان ، بشرحها بـ « مسلم » وإلا ترك قراءه العرب في حيرة من معنى التعبير . (٣) وحتى اليوم لا يعرف عامة العرب معنى هذا التعبير لدى سماعهم به .

٢) هناك نظرية اخرى اوجدها الثيولوجي الهولندي هادريان ريلاند . فهو يرجع كلمة « زاراتسينن » الى اصلها ــ حسب اعتقاده ــ في الجذر العربي « شرق » اي « مشرق الشمس » . فـ « زاراتسينن » اذن هم « سكان المشرق » (٤) من انصار هذه النظرية المستشرق الالماني موريتس ، سيما وأنه يصادف كلمة « الشرقي » ــ طبعا فقط كاسم لشخص ــ في « المخطوطات السينائية » التي تعود الى القرنين الثاني والثالث بعد الميلاد وفي نصوص الادب العربي القديم .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يبدو هنا أنه غاب عن كلا المفكرين حقيقة ان تسمية الشعوب نسبة الى جهات الارض تشكل بحد ذاتها مجازفة ، سيما وان القبائل تعرضت في الأزمنة القديمة الى هجرات كبيرة ادت في كثير من الاحيان الى تغيير مستوطناتهم . فـ « سكان المشرق » هؤلاء كان بالامكان تسميتهم بعد زمن معين سكان المغرب أو الشمال او الجنوب ، لم أن تسميات لهذه لا تصح إلا من جانب واحد ، حسبما تكون جهة المسمي . فاذا صحت تسمية العرب

(١) تاريخ الطبري ، اعداد محمد أبو الفضل ابراهيم ، القاهرة ١٩٦٠ ، الجزء الأول ، ص ٢٤٧ .

(٢) ماعدا انصار المذهب الاسماعيلي الحديث .

(٣) رحلة ابن بطوطة ، اعداد مولى وعوامري، القاهرة ١٩٣٤ ، الجزء الاول ص٢٩٢.

(٤) هادريان ريلاند ، فلسطين كما صورها الآباء ، تورنبرغ ١٧١٦ ، فصل ١٦ ، فقرات ٨٦ ، ٨٧ ، ص ٦٣ وما يتبع .

« زاراسينن » ـ اللهم اذا اخذنا بنظرية ريلاند ـ بالنسبة لغربي اوربا ؛ فهي لا تلائم قطعا سكان افريقيا او روسيا أو الهند . لذلك يتعذر الاعتراف بعمومية صلاحيتها . اما اذا عنى ريلاند بـ« Orientales PoPulos »سكان منطقة الشرق بأسرها ؛ فقد يتخطى هذا المعنى مدلول كلمة زاراسينن الاصلي ، شاملا بذلك منذ البداية حتى اكثر من العرب من سكان الشرق ؛ مما يبرهن طبعا ولاول وهلة خطأه .

٢) جوزيف سكاليغر يجد اصل التسمية في الجذرالعربي « سرق » . و«زاراسيني» تصبح اذن لفظا يختلف قليلا عن الاسم العربي « سراق » ، جمعه « سراقون » أو « سارقون » (١) هذه فكرة ليست على الاطلاق غير صحيحة . فقد ندر ان ذكر مؤرخ هؤلاء إلا ووصمهم . ويندر أن نجد عند احد اية مسحة من استحسان لهم (٢) . ويكفي ان نتذكر راي هيرونموس السابق ذكره من ان الاسماعيليين او الهاجاريين ، الذين هم العرب ، قد اغتصبوا اسما لا يجدر بهم . فاقترفوا بذلك جريمة . وقد حكي ايضا الكثير عن عصابات من البدو في الصحراء (٣) ينصبون الكمائن لغنائم متوقعة ، حتى ارتبطت بهذه الصحراء مع الزمن اسطورة .

إذا صحت نظرية سكاليغر ، وذلك ما يبدو محتملا ، لقد التصق اذن للعرب والمسلمين من جراء هذه التسمية ، لسبب او لآخر ، كما لوسمينا جميع سكان امريكا لصوصا او قتلة لمجرد أن شيكاغو اشتهرت فترة بوجود ونشاط عصابات رعاة البقر . هل يجوز ايضا ان نوسم جميع سكان غينيا الجديدة أو البرازيل بانهم ياكلون لحم البشر ، لان جزءا ضئيلا منهم فقط يمارس ذلك ؟

٤) هوغو فينكلر يطور نظرية ترتبط الى حد بنظرية سكاليغر . فهو يتبع الكلمة الاشورية « شرّاكو » الواردة في دوريات سارجون ، الغامضة المعنى . لكن سياق النص

---

(١) جوزيف سكاليغر de emendatione temporuni ؛ مع شرح حول وثائق وثائق انجلية وكنائسية ؛ جنيف ١٦٢٩ ، ص . ١١١ .

(٢) حتى انامياتوس لايرغب بهم لا كاعداء ولا كاصدقاء . قارن اميانوس ماركيلينوس Res Geste ، اعداد رولف ، لندن ١٩٥٦ ، الجزء الاول ١٤ ، ٤ .

(٣) يروي أبن بطوطة انه كثيرا ما اعتراه الخوف خلال تجواله في الصحراء العربية من اعتداءات بدو رحل (انظر ابن بطوطة . المرجع السابق على عدة صفحات منه) .

الوارد فيه يشير الى صلة ما بالصحراء أو الوهاد أو العزلة ؛ سيما وان الحديث يدور حول شخص يدعى يماني ، كان قد فر باتجاه « موسري » (منطقة بين يهوذا والحجاز) وعاش كـ « شرّاكو » (حسب فينكلر « ساكن الصحراء ») (١) . وبينما يرفض فينكلر اعطاء الكلمة مدلول السرقة ، توازيا مع الفعل الاشوري « شرقّ » بمعنى سرق ، (أي يماني لم يعش في المنطقة التي فر اليها ، ممتهنا اللصوصية) ، فهو يفتش عن مصدر سامي آخر مشابه المعنى فيجده في الكلمة العبرية « شيركا » بمعنى « مكان معزول » . لكن البرهان على ان « شرّاكو » تعني « ساكن الصحراء » (شخص) وليس صحراء (شيء) هو حسب فينكلر ـ صيغتها المشابهة للبناء العربي « فعّال » من « فعل » .

ويلخص فينكلر نتائج نظراته ـ مطمئنا بغمره الفرح لاعتقاده أنه اهتدى الى حل معضلة كبيرة ـ بالكلمات التالية : « بذلك تستدعي هذه التسمية اهتمامنا من جديد ، فقد وجدنا اخيرا شرحا لاسم « ساراكينن » ، الذي بقي لغزا زمنا طويلا ، الا وهو سكان الصحراء » (٢) .

لا شك ان هذا الاجتهاد يتحرك في نطاق الامكان . فهناك في اللغة العربية تعبير « الشّرّكيّ » بمعنى « السريع في السير ، الفارّ » . هذا التعبير يمكنه ـ لانه عربي الأصل والاستعمال ـ ان يناسب عملية الاشتقاق أكثر . لكن ربما لم يلفت ذلك انتباه فينكلر .

اذا أخذنا بهذه النظرية ، فقد يفرض نفسه سؤال ملح الا وهو : لماذا يخص العرب بفرض تسميته « سكان الصحراء » عليهم وحدهم دون غيرهم من كل سكان صحاري العالم ؟

ه) واخيرا يظن شبرنجر انه وجد اصلا جديدا للتسمية في الكلمة العربية «شركاء» . وهو ينطلق بذلك من العلاقات التي قامت احيانا بين العرب والروم ، كانضواء جنود عرب في جيوش الروم تحت قيادة غالينوس ابن فاليريان أو اشتراك العرب الى جانب ملك الروم الامبراطور يوليان في حربه ضد الفرس . وتبعا لذلك تلبست الكلمة اللاتينية

---

(١) هوغو فينكلر ، أبحاث في الشرق القديم ، السلسلة الثانية ، لايبزيغ ١٩٠١ ، ص ٧٤ ــ ٧٦ .

(٢) انظر فينكلر ، المرجع السابق ، ص ٧٦ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

Saraceni ـ حسب شبرنجر ـ سوى نفس الكلمة العربية « شركاء » (الروم). (١)
هذه النظرية تفترض أن كلمة « زاراتسين » كتسمية لم تظهر قبل القرن الثالث الميلادي او بالاحرى قبل العلاقات العربية ـ الروحية الالفة الذكر . لكن ذلك لا يمكن ان يكون صحيحاً في حين ان ديوس كوريديس وبرديساني قد أوردوا سنداً واضحاً للتسمية . وعلاوة على ذلك فان علاقات بسيطة وقليلة في اهميتها كهذه لا يمكن أن تبرر تعبير اسم شعب من جذوره . لذلك تبدو هذه النظرية بعيدة الاحتمال .

ارى في النهاية انه لا بد لي أن أضيف الى كل النظريات السابقة واحدة أخرى ، توضحت معالمها شيئاً فشيئاً من خلال مقارنات عديدة . فقد ثبت أولا أن ديوس كوريديس هو أول من أورد شكلا أكيداً يمكن أن تشتق منه التسمية . ثانياً لدينا في اللغة العربية اسماء أشخاص مشابهة كالشرقي او الشرقاوي ، لكن هذه الاسماء لم تتعد في يوم من الايام الدلالة على اسم شخص بمفرده او اسم عائلة أو ربما قبيلة . واظن أن ديوس كوريدس قد توصل بطريقة او بأخرى الى معرفة عائلة أو قبيلة تحت هذا الاسم ، كانت تقيم في منطقة ما في واحة أو في بستان نخيل . وربما لم يقصد في تعبيره « شجرةساراكينيه» سوى شجرة ، ربما نخلة ، في بستان أو واحة عائلة أو قبيلة « الشرقي » .

بالرغم من كل الجهود لقد بقي هذا التعبير الغريب في ظلمات البحث . اذ أخفق المؤرخون والجغرافيون والتيولوجيون وعلماء الاصول في اظهاره الى نور المعرفة . لقد ظهر من اللاشيء وارتبط في بادىء الأمر بشيء تافه (شجرة) ، وارتقى فدل على قبيلة بدو ، ثم تطور الى اسم كبير ، قادر على الدلالة على شعوب وأمم ومذاهب شتى ، ألى وجدوا . ثم اختفى من عالم الاسماء . لابد مع هذا كله من طرح سؤال يفرض نفسه بالحاح : لماذا لم يعد يقوى هذا الاسم ـ الذي كان غني المدلول ـ على تدعيم نفسه او الاحتفاظ بشيء من مدلوله ؟ فالعرب سمّوا ويسمون وسيبقى اسمهم عرباً . وكذلك المسلمون والفجر والوثنيون الخ ... الحقيقة أن هذه التسمية جوفاء المحتوى ، وقد كتب عليها الفشل منذ البداية ، ذلك لان حامليها لم يعترفوا بها . هذه التسمية مشكلة معقدة لا يمكن الاخذ بها بسهولة واطمئنان فهي غير مولوقةومقودة للخطا ، لكن لابد لكل منشغل بأدب القرون الوسطى الاوربية وفكرها من استعمالها ـ وان لم يقرها ـ كتعبير عن العرب والمسلمين . وإلا فلن يستطيع النفوذ الى مرتع من تقاليد عاش فيها الاوربيون زهاء ثمانية عشر قرناً .

(١) شبرنجر . جغرافية الشرق القديمة كأساس لتاريخ تطور السامية ، برن ١٨٧٥ ، ص ٢٠١ .

اللغة والفكر العربي الحديث

عدنان بن ذريل

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يروي (ابن طفيل) في حديثه (١) عن لقاء (حي بن يقظان) في جزيرته بـ (اسال) العابد المنقطع الذي وصل الجزيرة يطلب العزلة ، والانفراد ، ان (حيا) في بادىء الامر لم يدر ما هو ، لانه لم يجده على صورة من الحيوانات التي كان قد عاينها من قبل ، فولى (أسال) معرضاً عنه خشية ان يشغله عن حاله ، آلا أن (حيا) يتبعه ، لما كان في طباعه من البحث عن حقيقة الاشياء ، ولكن(اسال) يهرب منه ، ثم يتوارى عنه ، حيث يشرع في الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع والتواجد ، حتى شغله ذلك عن كل شيء .. اما (حي) فجعل يدنو منه ، وشاهد صلاته وخضوعه وبكاءه ، بحيث سمع صوتا حسنا،وحروفا منتظمة ، لم يعهد مثلها في شيء من اصناف الحيوان ،فلم يشك في انه من الذوات العارفة بالحق ..

هناك يقبض (حي) على اسال ، و (آسال) يستعطفه بكلام لا يفهمه حي ، ولايدري ما هو ، وانما يؤنسه باصوات كان تعلمها من بعض الحيوانات ، ويجر يده على راسه ، ويمسح أعطافه ، ويظهر البشر والفرح به ، حتى سكن جاش اسال ، وعلم انه لا يريد به سوءاً .. وكان عند (آسال) بقية من زاد كان استصحبه معه من جزيرته المعمورة ، فقربه

---

(١) — حي بن يقظان ، لابن طفيل الاندلسي ، قدم لها جميل صليبا وكامل عياد ، دمشق ١٩٤٠ ، ص ١٨٠ وما بعدها ..

الى حي ، فلم يدر ما هو ، لانه لم يكن شاهده من قبل ، فاكل آسال وطلب الى حي ان ياكل فرفض ، ولما خشي ان يوحشه امتثل واكل معه ، رغم انه كان عقد على نفسه شروط ماكله ، فندم على فعلته لنقضه عقده ، وأراد الانفصال عن آسال ، والاقبال على شانه من طلب الرجوع الى مقامه الكريم ؛ الا انه راى ان يقيم مع آسال في عالم الحس ، حتى يقف على حقيقة شانه ، ثم ينصرف الى مقامه دون ان يشغله شاغل ..

التزم (حي) صحبة آسال ؛ ومن حيث ان حياً لا يتكلم ، امن آسال على دينه من غوائله ، ورجا ان يعلمه الكلام والعلم والدين ، فيكون له بذلك اجر وزلفى عند الله .. فشرع آسال في تعليمه الكلام بان كان يشير له الى اعيان الموجودات ، وينطق باسمائها ، ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق ، فينطق بها يقرن نطقه بالاشارة ، حتى علمه الاسماء كلها ، ودرجه قليلا قليلا الى ان تكلم في اقرب مدة .. فتفاهم الصديقان ، واعلم كل منهما صديقه بحاله ورياضاته ومقامه ، واتفقا على ان ما وصل اليه كل منهما واحد في مضامينه ، رغم اختلاف السبل اليـه الخ ..

تذكرت هذا الشريط الحي من التمثيل الرمزي لاحوال الانسان من (المعرفة) ؛ كما كانت في عرف مفكرينا القدامى ، والذين على الخصوص كانوا يؤمنون بامكان العقل بلوغ الحقائق ، عن طريق الحس والتجريد والرياضة ؛ فيتطابق مع الوحي والايمان والتاويل .. وتصبح المعرفة ، في نظرهم ، مزيجاً من تجريبية واقعية ، واشراق صوفي ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فما هي اللغة الفلسفية العربية اليوم ؟. وهل تبدلت اللغة الفلسفية عند العرب اليوم عنها بالامس ؟. اليست اللغة الفلسفية العربية اليوم هي نفسها وسائل التعبير الفلسفي المتوارثة ، منذ اقبل العرب المسلمون على الفلسفة يترجمونها ، ويقتبسون عنها ، ويتمثلونها ، ويجتهدون فيها تلك الاجتهادات العالية ، التي خدمت الشرق والغرب قروناً طويلة ؟!.

ثم أليس المشهد الفلسفي العربي اليوم هو نفسه مشهده المتوارث : هذه المعقولية الكلية التي لاصالة الذات العربية ، ومجادلتها لواقعها في المنطقة ، أو الجوار ؟!.

هيدجر واللغة

اذا كان مثال (ابن طفيل) يدلل على أن الاشارات بالأيدي ، أو التعبيرات بالوجه ، والأفعال ، وايضاً الحركة العامة للوجود استطاعت أن تقوم مقام اللغة . حتى تعلم

(حي بن يقظان) اللغة من صديقه أسال ، فعلى المستوى الواقعي والوجودي نسمع (هيدجر) يفسر اللغة ، بانها تفسير للوجود ، كوجود هناك في العالم ، ومع الآخرين(١)..

ان (اللغة) في نظر هيدجر تقوم على حاجة التعبير للغير ، وقابلية الوجود لان نعبرعنه بالكلام ، وليس فقط بالحركات والافعال .. أي أن الواقع الانساني في العالم يستخدم الالفاظ كاشارات ترجع الى النظام العملي ، بحيث هي أداة تنظم بها الاتية الموضوعات ، وتخلع عليها معنى ، وفي الوقت نفسه تتفاهم ، وتتعامل بها مع الناس ..

ولكنها (أي اللغة) في عالم الناس ، لتوها تصبح (ثرثرة) .. وانئذ تفقد أصالتها ، ودلالتها الوجودية نفسها ، وتصير الى مجرد لغو وزيف ..

ترى أيهما أسبق : كون اللغة ذات دلالة وجودية (٢) أسبق ؟. أم كونها ثرثرة ؟! أعتقد ان الحالين متواكبان ، طالما ان الوجود نشأ من عالم الناس وسط التشتت والضياع .. ووحده (حي بن يقظان) تولد تولدا طبيعيا من تخمر الطين في جزيرته (٣) تحت خط الاستواء ، حتى تعلق الروح به ، فتشكلت الاعضاء ، وعملت الوظائف ، كما كانوا يقولون ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

اللغة اذن وقائعية من الوجود في العالم ، ومع الآخرين ، وكونها تصبح (ثرثرة) ، أو هي في واقع الناس ثرثرة وزيف دليل على محدوديتها وارتباطها بالظروف وجدلها ، بحيث هي تفقد دلالتها الاصلية ، وأيضا وجودها في بعض الاحيان .

وفي اعتقادي أن التعبير عامة ، أي التعبير الفني والطقوسي هو أيضا محدود الدلالة، ولا يشير دائما الى الاصل الوجودي .. وانئذ لا يجوز تعسف التفسير لوقائعه ، وعلى الخصوص عند انسان التاريخ ، وتحولات تجربته وعالمه ، أو تحميلها مدلولات لاتدل

---

(١) صدر كتاب (الوجود والزمان) لهيدجر عام ١٩٢٧ ، وقد أهداه مؤلفه لاستاذه هوسرل ..

(٢) يعتبر (زكي الارسوزي) نشأة اللسان العربي نشأة طبيعية ، ويدرسه ذاتيا وموضوعيا ، كما سنرى ..

(٣) وفي رواية ثانية حملت به أمه سرا ، ولما خشيت عليه ألقت به في البحر، فقذف به الى الساحل ، حيث ربته غزالة ، انظر حي بن يقظان ، السابق الذكر ، ص ٧٩ وما بعدها ..

عليها ؛ وذلك من واقعة ان كلا من الفن والدين ظل ، ويظل متميزا بموضوعه وأهدافه عن مجرد التأمل الفلسفي أو البحث العلمي (١) ..

برغسون واللغة

ان (برغسون) سوف يقول بذلك ــ الذي لا يمكن التعبير عنه ــ ineffable - ويقرر حدسية الفن ، فينبه الى الانطباع الساذج ، والصفاء ، والحلم ، والابداع .. بحيث (العاطفة) تظل تعلو عنده على العقل ، وافق الابداع يظل أسمى من افق العمل الفني ، والحدس المبدع يصير الى البطولة ، والقداسة ، والتصوف ..

وفي نظر (برغسون) اننا نميل بطبعنا الى تجميد مشاعرنا في (اللغة) ، في حين عقلنا يجتزىء المعقولية من الصيرورة ، نسيج الانا ، فتنشأ المعاني من هذه التجزئة .. والمعنى الكلي (اسم) يطلق على ذكريات تؤلف موقفا معينا ازاء طائفة من الاشياء ، ومن واجبنا مباردة الموضوعات ، وخلع ماعليها من قشور ترسبها في العادة بواسطة المسميات..

العقل لا يفهم الا الجامد القابل للقياس ، وعندما يتناول الزمان والكيف يترجم عنهما بلغة المكان والكم .. في حين المعرفة الحقة (حدس) يدرك الموضوع في ذاته ، والانسان بالعادة لا يزاول هذا الحدس ، بسبب المجهود الذي للنفاذ الى باطن الموضوع ، ومتابعته في صيرورته .. وسنعود الى ذلك بعد قليل ، مع تجربة حديثة وأصيلة هي تجربة المرحوم ــ زكي الارسوزي ــ .

المهم الآن ان نقرر أن كلمات اللغة لا تدل كلها على معرفة وجودية ؛ وانما للتفلسف لغته ومصطلحه ، وانه هو الذي حسب الحاجة يوجد هذا المصطلح ، حيث يظل الدخول في نظام (المعنى الفلسفي) مقرونا بالتجربة نفسها ، وجدلها الواقعي .. واذا كان فريق من علماء اللغة يرجعون نشأة اللغة الى الالهام الالهي ، فان علم النفس في المقابل يقرر أن مفردات اللغة تساعد فيما تساعد على نمو الادراك ، وتكوين المعاني الكلية

(١) قال (هيجل) بتمازج الفن والدين والفلسفة في جدل عقلي عام لتكشف الفكرة المطلقة ، أو المنطق ؛ وقال (أوغست كونت) بقانون الاحوال الثلاثةاللاهوتيةوالميتافيزيقية والوضعية في اتجاه العلوم ، وسنعود الى ذلك بعد قليل ..

ان مشاكل اللغة الفلسفية تظل اساسية بالنسبة لدارس الفلسفة ، لانها مشاكل التجربة الفلسفية نفسها ؛ وتاريخيا هناك مذاهب اضطرت الى ايجاد مفردات خاصة ، أو تلوين المصطلح الفلسفي بلونيات تساعدها على توضيح الحقيقة كما سنرى .. ومن واجب الدارسين بحث ذلك كله في سياقه التاريخي ، باحياء تجربته ، أو توضيح مضامينه بامانة ودقة ؛ فهل نتساءل اذن عن المصطلح الفلسفي العربي ، ما هي حاله اليوم ، وما هو مستقبله ؟.

مع الحياة العربية

ان (جدة الحياة العربية) الحديثة ، وعلى الخصوص نهضتها بعد عصور الانحطاط، التي آلت اليه مع المماليك ، والعثمانيين جعلها تشرف على آفاق من الموجودية ، والمعقولية تبتعث اليوم في الذات العربية شيئا فشيئا اقباسا من اصالتها ، وابداعها ..

لقد تعاقبت على الشعوب العربية في القرنين الفائتين احداث عالمية جعلت العرب يحتكون بالغربيين ، أو أيضا يصطدمون بهم مباشرة ، خاصة ان الغربيين طمعوا في الاستيلاء على البلاد العربية ، بحجة تخليصها من النير العثماني ، الامر الذي سلسل تلك الحروب والثورات المتعاقبة ، في شمال افريقيا ومصر وسورية والجزيرة العربية والعراق .. ناهيك بالخطر الصهيوني الذي انشا دولة اسرائيلية في قلب الوطن العربي ، وما رافقته من نوايا استعمارية وعدوانية في المنطقة ..

كل ذلك نبه القرائح والاذهان الى واقع الامة العربية ، والاخطار المحدقة بهـا ، وخاصة أخطار التخلف . وقد كانت أغلبية المفكرين العرب كما سنرى ، ترى أن سبيل العرب الى القوة وأيضا المنعة هو (العلم) ، والتقنية العلمية ، واللذين كانوا يرونهما العامل الرئيسي في تقدم الغربيين ..

ومن هنا صارت تتسارع الانجازات المتنوعة في تحديث الحياة والفكر العربيين ، من أساس الاستفادة من الحضارة الغربية عامة ، دون التنكر للماضي العربي وتراثه .. ولا تزال الجهود تبذل في موضوع التجديد والمعاصرة والاصالة حتى يومنا هذا في الوطن العربي ، وتعقد لذلك المؤتمرات (١) ، وتقدم الحلول وبعضها مفتعل ، أو صريح الهجانة ..

(١) مثل مؤتمر الاصالة والتجديد المنعقد في القاهرة عام ١٩٧١ ، ثم مؤتمر ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي المنعقد في الكويت عام ١٩٧٤ وغيرهما ...

ولا بد لنا في مثل هذه الحالة من التوعي للذات ، والحذر على أصالتها ، والعمل على استشفاف الثور وسط الظلام ، والحق وسط الباطل .. ان القوم اليوم بين متهجم على التراث الفكري العربي يريد الاستغناء عن كثير من جوانبه ، وبين متحزب له يريد استمراره ، وتطويره ؛ ولابد من حشد الامكانيات الكافية للتغلب على تحديات الفترة ، من حيث ان التراث شيء من الذات لا يمكن خلعه ، او تبديله بسهولة ؛ وانما وجب تدبر احواله ، وتطوره بالنسبة لايقاعية الحياة ؛ واذا نحن لم نتدبر أمره استنادا الى ركائز الاصالة العربية نفسها لم ينفعنا تقليد ، ولا عجمة البتة ..

اللغة في تجربة زكي الارسوزي

وان تجربة الرحوم (زكي الارسوزي) ، [١٨٩٩ – ١٩٦٨] في هذا الخصوص "الق" عربي" خالد ، من حيث انها تجربة فريدة حققت بالامس القريب شكلا راقيا واصيلا من الاندماج الحيوي ، جعلته معيار منجزاتها وافكارها ، وعاشته كحدس فني خالق يمهد للنفس بلوغ المعنى ..

لقد اهمته (اللغة) حتى اعتبرها الروح الموضوعية الامة ، ولذلك عمل على استكشاف طاقاتها واستلهامها هديها ؛ يعرف اشتقاقاتها في المعاني التي توحيها له القريحة ، وكانه يرى في ذلك سورة التحقق نفسه ، على الاقل تحققه هو كعربي ..

وأساس نظرته في ذلك ، حجته ان اللغة العربية ذات (طابع بدائي) ، أو بدئي ، ترجع كلماتها بالاشتقاق الى الصور الصوتية والمرئية ، المقتبسة مباشرة من الطبيعة .. ومن هنا كان يؤثر اطلاق (اللسان) على اللسان العربي، تمييزا له عن اللغات الساميةالاخرى (لغة ، لغو) من حيث رجوع خلاياه الى الطبيعة ، والنفس (١) ..

لقد أراد (زكي الارسوزي) ان يفجر طاقات الانسان العربي عبر لغته العبقرية ، فلم يحفل بثنائية الذات والموضوع ، بل راح يتقرى سورتها في مفرداتها ، ويتغلغل فيها بدفق حيوي يعيشه ، ويتوعاه ، ويعيه .. فاذا فقهت النفس (المعنى) في المسميات – والفلسفة في نظره هي فقه المعنى – ؛ تجلت عليها الآيات من الملأ الأعلى ، وكانت حقانيتها وحيانها وتحققها جميعا ..

(١) العبقرية العربية في لسانها ص ٢٩ ؛ و (البدن) في نظره تعبير بدئي ايضا ، ويستمد عناصره من الطبيعة التي تمثل قدره الخارجي ، واما قدره الحقيقي فهو انه وسيلة خلقتها ارادة الحياة لتحقق بها صبوتها الى معنى الوجود .

(الآية) مثال ، أو لتقل جوهر أو ماهية ، ولكنها موجودة في النفس ، وبها تسمو النفس بسلوكها حتى يصبح فضيلة (من الفضل) اي الزيادة ، التي هي مجرد حيوية متدفقة لا تبغي الجزاء .. والانسان بفضيلة الآية يبلغ الربوبية ، ولكن اذا صارت الآية عنده الى عادة ، او مجرد تقوى انحدرت به الى العبودية (٢) ..

و (المدنية) تظل على سطح الوجود ؛ في حين (الفلسفة) ، اي فقه المعنى ، تحول القول الى عمل ، فتنفذ الى اعماق الوجود .. والآية المتجلية رسالة ، واستجلاء الآية تقويم للواقع (٣) ..

و (الثقافة) تتارجح بين الطبيعة مبعث رموزها ، وبين الملا الأعلى مصدر الآيات ، ومثلها يتارجح الانسان بين العادة ، والابداع .. وآفة المدنية (المادية) وتظهر في الغرب، وآفة الثقافة (الرجعية) وتظهر عند العرب ..

ويرجع الاختلاف (٤) على تمثل (الفضيلة) بين العرب ؛ والشعوب الغربية الى تطور الصورة الذهنية نحو أحد قطبيها : الطبيعة ، أو الملا ... الشيء ، او الحدس ..

الفكر الغربي متعلق بالطبيعة ، والفكر العربي متجه نحو المعنى الكامن في النفس .. والصيغة التي اختارها الوجدان القومي للتعبير عن طبيعته ، وتطلعاته هي : اللغة .. ان المضمون الانساني فيها هو خلاصة التجربة الاخلاقية ، والابداع في وجود الامة ..

الأصداء

ويقول (صدقي اسماعيل) : ـ مهما يكن في مثل هذه التجربة الفلسفية من روح ذاتية ، قد تكون موغلة في التصوف والشعر والرمز ، فانها اكثر محاولات الفكر العربي جرأة في وضع أساس عقائدي ليقظة العرب المعاصرين ، وهم يتصدون لكل تحديات

(٢) رسالتا الفلسفة والاخلاق ص ٧٢ ؛ و (الواجب) يتراوح بين الآية والعادة ..

(٣) رسالتا المدنية والثقافة ص ١٤ و ١٠١ ؛ وفي نظره المدنية اعلى لانها علم وصناعة، والثقافة أدب واخلاق ..

(٤) أوضح الباحث القدير (أنطون المقدسي) حدود ما يمكن ان نسميه بالمذهب الفلسفي عند زكي الارسوزي ، المعرفة ، عدد خاص ، تموز ١٩٧١ ، في البدء كان المعنى ص ٣٧ ـ ٧٤ ، فاظهر العناصر الافلوطينية والبرغسونية فيها ، وناقشها ..

العصر ، ولا سيما انها تقترن بانحسار المذاهب الفلسفية المثالية جميعا في تجارب الفكر المعاصر (١) . -

ولنا ملاحظتان على قول صدقي اسماعيل ، احداهما : ان مثل هذا الاساس العقائدي لبقظة العرب ، وهو هذه الحيوية الرحمانية المؤمنة بالمعنى ، ينبغي ان لا يجعلنا نعتبر (زكي الارسوزي) مجرد مصلح اجتماعي او رائد سياسي ؛ وانما علينا استلهام صور الابداع الفكري عنده ؛ وحسب الارسوزي خلودا أنه أغنى الفكر ، مثلما أغنى الحياة القومية بمفاهيم حدسية حيوية تربط الانسان العربي بواقعه ، وتجربته ..

والملاحظة الثانية ، هي بخصوص انحسار المذاهب المثالية في تجارب الفكر المعاصر، كما ينوه صدقي اسماعيل .. فهل صحيح أن المذاهب المثالية منحسرة اليوم في الفكر المعاصر ؟. الا يستلهم زكي الارسوزي نفسه الروحانية الحيوية التي لبرغسون ، وايضا غوبه من رواد الفكر العالمي الحديث !. ان المثالية تعيش اليوم في الغرب باشكالها المختلفة الحدسية والحيوية وايضا الوضوعية الذاتية ، ناهيك بانه لايزال للهيجيلية رصيد كبير في الفكر الحديث والمعاصر ، مما يمكن الافادة منه في مرحلتنا الحالية نفسها ..

هموم فكرية ولغوية

اليوم العديد من المفكرين العرب ينصون على ظاهرة ما يسمونه بـ «التخلف الحضاري»، وايضا الثقافي في الوطن العربي .. وليتهم تفاءلوا ونصوا على الانتصارات التي حققتها العروبة الخالدة في حياتها وفكرها الجديدين اليوم ! ..

هناك في نظرهم مثلا الانقطاع الحضاري ، وايضا الانقطاع الثقافي ، والانغلاق الفكري، الانفصام بين الفكر واداته اللغوية ، القوقعة واللفظية ، ازدواجية العلمية والغيبية ، السلفية واللاعقلية الاسطورية الخ ..

الانقطاع الحضاري ، وايضا الثقافي تعبير استعمله (فؤادزكريا) ، ووراه السمة المميزة لعلاقتنا بالماضي ، ولا بد من تجاوزها في نظره .. وهذه العلاقة كما يقول هي كون الماضي ماثلا أمام الحاضر ، لا بوصفه مندمجاً فيه أو متداخلا معه ، بل بوصفه قوة مستقلة

(١) المعرفة ، العدد الخاص المذكور ، الكلمة العربية والوجدان القومي ، ص ١٤٤ — ١٤٥ .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

عنه ، منافسة له ؛ فنظرتنا الى الماضي على حد قوله أيضا لا تاريخية ، ولكنه لا يصف طريقة التجاوز .. بحوث مؤتمر الكويت المنوه عنه آنفا ..

وقد رد الدكتور (قسطنطين زريق) على ذلك .. وأوضح أن السمة عامة نجدها في كل الحضارات ، وليست السمة المميزة لواقعنا ؛ ان الذي انقطع ليس التاريخ أو التراث ، ولكن الابداع ، وبذلك توقف التقدم ..

وفي اعتقادي أن الانقطاع انفصال ، في حين حاضرنا اليوم متصل بماضينا ؛ وربما العقلانية المنطقية القديمة فيه تزعج اليوم عددا من رواد التجديد ، والتحديث ، ولكنذلك مما يمكن تدبره تربويا ، ان لم نقل وجوديا في نفس التعددية الوقائعية التي نحياهـا ازاء ذلك الماضي ..

وأن الاشواط الواسعة التي انجزت اليوم في البلاغة والنقد (امين الخولي ، محمد مندور) وأيضا اصطناع الانواع الادبية الكبرى ، مثل الرواية ، والمسرحية ، والملحمة وغيرها ساعد على تحرير الادب والفكر العربيين مما علق به من شوائب العجمة والقوقعة واللفظية ؛ والفكر العربي اليوم لا يتشكى من اللغة ، ولا يحس بغربة الاداة اللغوية ، وأساليبها عنه ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومع ذلك يمكن اعادة النظر في ظاهرة (البديع) ، والذي كلف به ادباء العرب القدامى، وخاصة انها متفاوتة في العصر الواحد ، وعند الاديب الواحد أيضا : الجاحظ ، أبو حيان التوحيدي ، أبو العلاء المعري .. ولكن مما تجدر الاشارة اليه أن لغة العلم والفلسفة القديمين كانت مباشرة ، لا تتقيد ببديع ، وأكثر انطلاقا من اللغة الادبية وقتها في تعبيرها عن تجربة الذات والموضوع كليهما ..

وان من مفكرينا العرب اليوم من استعمل الانواع الادبية المستجدة ، زكي نجيب محمود ــ المقال وله رواية قريبة من السيرة الذاتية ــ ، عبد الرحمن بدوي ــ له ديوان شعر ، ورواية ــ ، انيس منصور ــ المقال وله عدة مسرحيات ، صدقي اسماعيل ــ القصة وله رواية (١) ــ ، مطاع صفدي ــ القصة وله عدة روايات (٢) ــ ، شاكر

(١) و (٢) يمكن مراجعة دراسة هذه الروايات ، ومضامينها النفسية والوجودية في كتابنا : ــ الرواية العربية السورية ــ دمشق ١٩٧٣ وهو دراسة نفسية في الشخصية وتجربة الواقع ..

مصطفى ـ المقال وله نقد أدبي ـ ، أنطون المقدسي ـ المقال وله بحوث فكرية وأدبية ـ ، عبد الكريم اليافي ـ البحوث وله شعر ـ ، غسان الرفاعي ـ المقال وله يوميات ـ ، علي الجندي ـ الشعر وله نقد أدبي ـ وهكذا ..

ان مجال التعبير الادبي يمكن ان يتسع للانطلاقات الفكرية الحديثة ، والمسألة شخصية ، وتتعلق بمواهب اصحابها .. ومع ذلك تظل المنجزات في ذلك مجرد تفنن ادبي ، أي نشاطا فنيا ادبيا ، ويظل مجال التاليف الفلسفي مجال التحليل والتركيب، الرصد والعزل ، والمعقولية الكلية ..

العلم والعقل العربي

لقد دللت تجربة الحضارة والفكر العربيين القديمين على أن (العقل العربي) ليس عقلا اسطوريا ، أو غيبيا أيضا ، وانما هو عقل علمي تجريبي أبدع في العلوم والمنطق ما ظل ويظل نبراسا وهاديا .. وان (زكي نجيب محمود) ، رغم تحامله على التراث الفكري العربي يقرر (٣) أنه لو لم يوجد الغرب الغطي الحديثة في العلوم والمنطق لأوجدها العرب لما في طبعهم من العلمية والتجريبية ..

ان ظاهرة التخلف ، فرضاهي اليوم حقيقية ، تصير بذلك كلهمجرد وقائعية تاريخية، وجدلية ، وتعود لسيرة التناقضات الداخلية في الكيان العربي اليوم .. وقد صدق (شاكر مصطفى) في قوله أن الدواء لمثل حالها الحالية ، وهو التحدي القائم حاليا في نظره ، هو : ـ تكييف التكوين التاريخي الطويل تكييفا بنيويا داخليا ، واللحاق بالعصر من جهة أخرى بسرعة مثلثة ، تعوض احداها عن التخلف ، والثانية عن الكتلة العربية الواسعة ، والثالثة عن السرعة المتزايدة لتقدم الحضارة نفسها . ـ . بحوث مؤتمر الكويت المنوه عنه ..

ولا مجال آنئذ للتفكير في تجاوز التراث(٤) ، كما يقترح فؤاد زكريا .. وكيف نتجاوزه ؟ . هل نرفضه رفضا حاسما ، هل نحمل عليه فنهدمه ، ونستغني عن أجزاءمنه ؟!

(٣) تجديد الفكر العربي ، مصر ١٩٧١ ، ص ٢٠٣ ـ ٢١٤

(٤) يقول (فؤاد زكريا) في ذلك : ـ أن الاحياء الحقيقي للتراث انمايكون عنطريق تجاوزه ، واتخاذه سلما لمزيد من الصعود . اما احياء الاسترجاع فهـو في حقيقتـه قضاء عليه ـ البحث المشار اليه ..

أن تمثله من جديد ، هو الواجب ، بحيث يكون نفي النفي استمراراً لامكانياته ، من أجل الدخول في نظام جديد ..

واما قول (شاكر مصطفى) : ـ أن البنى البشرية تسير عامة في مراحل حياتهـا في عملية ديالكتية الحدود ، والتنافي ، والتواصل هما الحدان اللذان يحكمان المسيرة ،ـ نفس البحث ، فاضيف اليه « الوتيرة الايقاعية » ، واحوالها ، وطالما اننا لانفسح في تفكيرنا المجال لبحث هذه الوتيرة الايقاعية واحوالها في النفي ، ونفي النفي ، فلا جدوى من ضبط التعددية الوقائعية في التاريخ ، والحضارة ، وظواهر النقيض عامة .. ولابد اذن من اعتبار البرهة ، وادوارها التاريخية ، والحضارية في المنطقة الواحـدة ، أو الجوارالواحد ..

تجارب فكرية

ان المنطقة العربية اليوم ، كما رأينا ، تعاني بالفعل مخاضاً جديداً في حياتها وفكرها ، وذلك بفعل أن برهتها الحالية ـ والتي يمكن أن نحددها بالنهضة العربيـة في مطلع القرن التاسع عشر ـ هي اليوم في دور جديد من أدوارها ، لم يعد مجرد الاحتكاك بالغرب ، أو التوعي للكيان ، وانما هو فترة توكيد الذات ! . ولكن السنا نتبين خطوط هذه الاصالة المتفتحة في الطموحات ، والمنجزات السابقة ؟ .

كانت الفكرة القومية ولا تزال هما شاغلا للعرب في تجمعهم وتوحدهم ، امين الريحاني، ساطع الحصري ، قسطنطين زريق (١) ، ثم كمال الحاج (٢) .. وكان موضوع المدنيـة ، اي الرقي الحضاري الذي ينشدونه لامتهم ، والثقافة ، وعلى الخصوص تطويـر ثقافتهم يحتل مكان الصدارة في تفكيرهم ، محمد كرد علي ، زكي الارسوزي ، مالك بن نبي (٣) ، حسن صعب ، وجلهم أكدوا على قيمة العلم ، والتقنية ، والتحديث ..

(١) له الوعي القومي ، عام ١٩٣٨ ، ثم معنى النكبة ، ١٩٤٨ ، ثم معنـى النكبـة مجدداً ، ١٩٦٧ ..

(٢) وله القومية والانسانية ، عام ١٩٥٧ ، والقومية ليست مرحلة ، ١٩٥٩ .

(٣) وله كتب عديدة ، تميزت نظرته فيها بالتأكيد على الثقافة كعامل اساسـي في عملية التحديث ..

وعندما اخذت البلاد العربية بتطبيق الاشتراكية مع النصف الثاني من القرن الحالي، في مصر ، وسورية ، والجزائر ، وليبيا وغيرها صار يبزغ فكر اشتراكي عربي يرفده حس علمي للوقائع .. وبعد ان كان الفكر الاشتراكي في البلاد العربية يسارية ، أو ايضامجرد طموح في البحث صار العديد من الاحزاب العربية تتعهده وتعمل له ؛ ناهيك بأن التقدميين عامة وجدوا متنفسا لآرائهم ، فاقبلوا على الواقع العربي وتراثه يعالجون موضوعاتهما بمفاهيمهم ومناهجهم ، كلوفيس مقصود ، احمد خليل احمد ، طيب تيزيني ، الياس مرقص ، محمود أمين العالم ، عبد الله العروي (٤) وغيرهم ، في حين استمر العروبيون يصدرون عن ذواتهم ؛ ويكتبون بوحي من تجربتهم وثقافتهم ، صدقي اسماعيل ، انطون المقدسي ، غسان الرفاعي ، صفوان قدسي ، مطاع صفدي ، جلال فاروق الشريف ، عفيف بهنسي ..

اما في مجال العلوم الفلسفية والابداع الفلسفي ، فقد حقق العرب المحدثون انتصارات اولية فيها هي بالفعل شيء من واقعنا الناهض اليوم ، وليست تجربة زكي الارسوزي ببعيدة عنا .. وفي اعتقادي لا سبيل لنا الى نهضة فلسفية الا اذا التزمنا انفسنا بالمنهجية ، واعتبرنا الفلسفة وعلومها منظومة كلية لا تنفصل عن الحياة ..

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الجهود الجامعية

أن رسم صورة علمية يرضى عنها الضمير المسلكي تضعنا أول ماتضعنا أمام المجهودات الجامعية التي للوي الاختصاص في الفلسفة وعلومها ، وهي التي تعود في مصر الى عام ١٩٠٨ ، عام تأسيس الجامعة المصرية ؛ ثم تجديدها عام ١٩٢٨ ، وفي سورية عام ١٩٢٩ عام تأسيس مدرسة الآداب العليا في الجامعة السورية ، ثم احداث قسم الفلسفة فيها عام ١٩٤٧ ، ناهيك ببقية الكليات العلمية ..

في حدود هذه التواريخ يمكننا أن نتبين حركةتنوير فلسفي ، أو حركة ابداعفلسفي أيضا ؛ وبالفعل بعد أن كان التأليف الفلسفي ، والعلمي ايضا متروكا للمبسطين ، والمترجمين يعقوب صروف ، شبلي شميل ، سلامة موسى ، عباس العقاد وغيرهم نشأت فئة من الدارسين المنهجيين توفرت على البحث ، والترجمة ، والتحقيق ، أحمد لطفي السيد ، يوسف كرم ، مصطفى عبد الرزاق ، بولس سعد ، عادل العوا ، عبد الرحمن

(٤) وله الايديولوجية المعاصرة ، ١٩٧٠ والعرب والفكر التاريخي ، ١٩٧٣ .

بدوي ، زكريا ابراهيم ، فؤاد زكريا ، سامي الدروبي ، عبد الله عبد الدايم ، فؤاد جرجي بربارة ، حافظ الجمالي ، اسعد درقاوي ، جورج صدقني ؛ وتميز فيها بالنسبة للتراث الفلسفي العربي احمد فؤاد الاهواني ، طه سرور ، عبد الهادي ابوريده ، ابراهيم مدكور ، مصطفى حلمي ، أبو العلا عفيفي ، حنا فاخوري ، خليل الجر ، محمد يوسف موسى ، عبد الكريم العثمان وغيرهم ...

وقد استطاعت المرحلة الحاضرة أن تنقل الى اللغة العربية أهم كتب الفلسفة الحديثة ، وتعرف بمذاهبها ، وتكتب عن رجالها ، مما يثلج الصدور ، في حين بالنسبة للابداع الفلسفي لايزال عدد من الروادتحت التأثير الغربي ، في حين الاولى تفجير الامكانيات الشخصية وتوكيد الاجتهاد .. وان اجتهاد (عثمان امين) في الجوانية والبرانية على ضآلة مردوده في الفكر العربي المعاصر ، خير في نظري ، من تهور المتحمسين للوجود على الماهية ، أو تشدق المتحزبين للمنطق الوضعي ، في الوطن العربي ، وسبق أن كتبنا في زيفهم (1) ..

حول تحليل الألفاظ

يقول الدكتور (زكي نجيب محمود) في كتابه : ــ خرافة الميتافيزيقا ـ مصر ١٩٥٢ :ـ الفلسفة لاينبغي لها أن تجعل غايتها شيئا غير التحليل المنطقي لما يقوله سواها ، انها لاتتكلم بذاتها ، بل تدع غيرها يتكلم بما قدكشف عنه من حقائق العلم..لان مراجعة الصورة الكلامية على الاصل الطبيعي من صميم عمل العلماء بما لديهم من أدوات المشاهدة والتجربة . ــ ص ٢٨ .

ثم يقول : ــ الفلسفة طريقة في البحث بغيرموضوع ، فليست غايتها انتبحث مسائل لتصل منها الى نتائج ، لانه ليس هناك مسائل فلسفية ، ولاينبغي أن يطلب منالفلسفة أن تصل الى نتائج عن حقائق الكون ، كل مسالة في الدنيا يراد فيها الوصول الىنتائج يجب أن تترك للعلم والعلماء ــ ص ٢٩ ..

ونساله اين تذهب اذن بطموح الانسان الى معرفة الحقيقة ، او ايضا حنينه الى المطلق ؟ . ومن ذا سيكشف عن اسرار الواقع الانساني ، او عن تحولات التاريخ ،

(1) وسبق أن اظهرنا زيف النظرة اليسبرزية التي يعتمدها عبد الرحمن بدوي في الوجود الماهوي ، كما رددنا على خطا بدوي في افتعال توتر جدلي عاطفي بدعوى تعميق الوجود ، واخصابه ..

والحضارة ؟ .. ان عالم الفلسفة يظل عالم المجادلة الواقعية ، ولا مجال لحذفه من اجل قصر النشاط الفلسفي على آلية جوفاء للتحليل المنطقي ، لا تريد ان تستند على غير الحس ، والمحسوس (٢) ..

يقول (زكي نجيب محمود) : ـ لو أردنا أن نقصر كلامنا على ما يكون له (معنى) ، وجب اطراح الفلسفة التأملية ، وهو اسم آخر نطلقه على الابحاث الميتافيزيقية وما يدور مدارها من صنوف التفكير ، بحيث لا يبقى بين أيدينا في دائرة العلم الا العلوم الطبيعية ، والرياضية ـ ص ٣ .

واظن ان مثل هذه الدعوة لن يكتب لها الحياة .. خاصة ان المنطقة العربية ذات خبرة طويلة ومتنوعة بالفلسفة ، ترجع الى مدرسة الاسكندرية (فيلون ، ثم أفلوطين) وتلاميذهما ، والتي لها في حد ذاتها مكانة عالمية لاتزال الى اليوم وستظل منارا وهديا ، ثم البرهة الاسلامية والتي اقبلت فيها على الفلسفة اليونانية فترجمتها وتمثلتها واجتهدت فيها اجتهادات حملتها الى الغرب فانتفع بها حتى العصور الحديثة ..

واذا كان المناطقة الوضعيون يريدون ان يلقوا بمباحث الفلسفة القديمة الى جهنم ، على حد قول هيوم (نظر ص ٢٥ من خرافة الميتافيزيقا) فنحن على العكس حريصون على هذه المباحث ، ومصطلحاتها ، لأنها شيء من الماضي ، والذي من واجبنا تمثله في حاضرنا ، والانطلاق به الى مستقبل افضل .. وذلك هو محك الاصالة ، ومهماز الهمم الى الالهام ..

محـك الاصـالة

اننا حين نعود اليوم وسط العديد من التيارات الفلسفية والمنطقية الى ماضينـا ومصطلحاتنا نعود الى خبرة اصيلة لنا كانت منار العالمين ، تماما كما كانـت اجتهـادات اللاهوت الاسطوري الفرعوني ، والعموري ، والبابلي وجدله كافة سبيلا حرا الى النور ، أخذ عنه فيثاغورث ، وأرفيوس ، وأفلاطون ، وصولون ، فاوقدوا شعلة التفلسف ، والذي أعطى أول ما أعطى (الجدل الافلاطوني) القائم على الحب ، وما فتىء اثرها يتطور حتـى يومنـا هـذا ..

(٢) استحدث المناطقة الوضعيون مصطلح فارغ من المعنى (Non - Sens) للدلالة على القضية التي لايتحدث بها صاحبها عن شيء قط ، أو هي تخلو مـن المعنـى بالنسبة لمراجعة هذا المعنى في الواقع المحسوس ..

وانا شخصيا أعتبر الجدل تعددية وقائعية ، بدليل انه لا الجدل العقلي ، ولاالجدل المادي استطاع توحيد ظواهر الوجود ، اوالتاريخ والحضارة ..وربما نحن نستطيعتوحيد ذاتية موضوعية ازاء الوجود ، أو التاريخ أو الحضــارة ، ولكـن ذلك لايحتـم (التقدم الصاعد) في تسليك عقلي أو علمي ، بل انه لاينفي التعددية الوقائعية التي تتركها بالاحرى بعثرة من العالم ، والتاريخ ..

ان ما قد تقوله هيجل واوغست كونت على الحضارات القديمة والاسطورية ، او فكرة مـا قبـل الفكرة ، او المغزى الرمزي للنشاطـات ، أو الـروح الغارقة في الطبيعـة وغير ذلك هو مجرد تسليك زينه لهما تكلف النظرة الموحدة للوقائع ، في حين هي تعددية ظاهرة البعثرة ، تجب دراستها كما هي ؟ وتفسيرها بموجوديتها التي اعطت الرتـب الاوزيريسية ، ومعقولية اللوغوس المنطوق ، وتطوراتها في العالم القديم اجمع (١) .

وان المصطلح الفلسفي العربي القديم محدد ومعروف ، وهو في أصله مستورد، اضافت اليه (الافلاطونية المحدثة) بعض الاعتبارات في اتجاه حيوي اشراقي صريح : نفـس كلية ، دفقة حيوية ، فيض ، اشراق ، كما اضافت اليه التجربة العربية مثـــل التاييس عن ليس ، الواجب بذاته ، الكشف تذوق او كعطية الهية ، القضايا الوجودية، الصورة الجسمية ، الامتداد ، وغيرها ، ومن الواجب جمع ذلك كله وتوضيحه فيسياقه التاريخي والفكري . .

وحتى اليوم لم تقم مبادرة الى مثل هذا العمل الاساسي والهام ، والسبيل اليــه تاليف لجان مسؤولة تعنى على الخصوص بتوحيد المصطلح الفلسفي العربي استنادا الى القديم والحديث على اسواء .. ومن الامثلة على خطورة الاهمال في ذلك ، تنوع الترجمة للمصطلح الواحد ، كما في الشواهد التالية :

(Idealism) ترجم بـ (مثالية) في حين الواجب التدقيق في لونياتها ، اذ تدل ايضا على التصورية (ديكارت)، والتصورية الذاتية (كانت) ، والموضوعية

(١) راجع للمؤلف التفسير الجدلي للاسطورة ١٩٧٣ ، وبرهات تاريخية ١٩٧٣ ، والمجادلة الحضارية ١٩٧٤ ، والفلسفة وبرهاتها ١٩٧٥ ، ففيها شمائل مطولة عـن الاسطورة القديمة ، واليونان القديم ، والفكر الصيني ، والفكر الهندي ، والجاهلية العربية مع مقارنات ومناقشات متنوعة ..

الذاتية (هيجل) ، والاخيرة عقلية (٢) .

(Spiritualism) ترجم بـ (روحانية) وهو الغالب ، ولكنها تقصد ايضـــا الحيوي العقلي (افلوطين) ، والحيوي النفسي (برغسون) ، وغير ذلك (٣) .

(Inconcience) ترجم بـ (لاشعور) وهي الصحيحة ، كما تترجم بالعقل الباطن ، وهي ضعيفة ..

(Modalité) ترجم بـ (احوال) الوجود ، النفس ، وايضا كيفية ، وجهة وذلك اجتهاد ..

(Etre) ترجم بـ (وجود) عامة ، ولكن الصحيح ترجمتها بكينونة.

(Situation) ترجم بـ (موقف) وهي الصحيحة ، او حالة ، ولاتؤدي المقصود تماما ..

(Solipsisme) ترجم بـ (أنا وحدية) وهي الصحيحة ، وانانية ، وهو وحدية فتخرج عن مدلولها الذاتي ..

(Immanence) ترجم بـ (محالية) وهي الصحيحة ، او جوانية وهي اقل دقة من السابقة .

(Concept) ترجم بـ (المفهوم) وهي الصحيحة ، او الفكرة الشاملة ، وهو المدلول الهيجلي ..

(Condition) ترجم بـ (شرط) وهي الصحيحة ، او حال ، وايضا موقف وذلك اجتهاد ..

(Transcendantal) ترجم بـ (صوري) وهي ترجمة يوسف كرم ، وايضـــا متعالي ، ووجودي ذاتي ، وظاهري ذاتي .. وهكذا دواليك .

---

(٢) conceptualisme ، c. subjectif' ، Objectisrisme ، Rationalism

(٣) Vitalisme rationel ، V — Psychique,

* * *

تعريب الفن التشكيلي

طارق الشريف

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كنت اتحدث مع احد الفنانين الاجانب الزائرين للقطر فسألته عن رأيه في الفن التشكيلي العربي المعاصر ، فأجاب قائلا :

ـ ان الفن العربي مازال في مرحلة التأثر بالتجارب الفنية الاوربية الغربية ، وما شاهدته من معارض يعكس هذا التأثر بوضوح تام .

ولفت نظري الى عدد من التطابق بين بعض التجارب الفنية المعاصرة وبين محاولات فنانينا ، حتى توصل الى ان رؤية معرض في دمشق لايختلف عما رآه من معارض في الدول الاخرى الاجنبية التي زارها .

وفي الحقيقة ان هذه الملاحظات التي أبداها الفنان الضيف أثارت ردود فعل مختلفة بين فنانينا حين نقلتها لهم ، ولقد دفعني هذا الرأي ، وما ابداه الفنانون من ملاحظات رداً عليه ، الى أن أحاول بحث تجربة الفن التشكيلي في القطر على ضوء هذه الملاحظة لأوضح أين استطاع الفنان تجاوز التجارب الفنية التي أخذ منها ، وأين وقع فنانا في التقليد .

ولقد وضعت كبداية لهذا البحث سؤالا عاما حاولت الرد عليه :

اما السؤال فهو كما يلي :

ـ هل استطاع الفن التشكيلي العربي أن يتجاوز التقليد الى الابداع ، وهل هناك محاولات لتحقيق ذلك ؟ وبالتالي كيف نستطيع ان نجعل الفن العربي المعاصر يحمل طابعا مميزا خاصا يدل على الاصالة ؟ ، والى اين وصل فنانونا في عملية « تعريب الفن التشكيلي المعاصر » ؟.

ان هذا السؤال الهام ، يدفعنا الى البحث في موضوع هام هو « تعريب الفن التشكيلي » ، ولابد لمحاولتنا التصدي لهذا الموضوع الهام من ان ندرس واقع الفن التشكيلي العربي ، والحلول الممكنة التي قام بها الفنان العربي ليكون فنه عربيا بالمعنى الدقيق للكلمة .. كبداية لتقديم بعض مقترحات عملية لخلق مناخ ضروري ليكون الفن العربي المعاصر « عربيا بالمعنى الحقيقي » ! .

ولكن قبل ان ننتقل الى هذا البحث لا بد لنا من ان نطرح هنا بعض الآراء التي أوردها بعض الفنانين حول موضوع « تعريب الفن التشكيلي المعاصر .. » ويمكن أن الخص هذه الآراء في ملاحظتين اساسيتين :

تقول الملاحظة الاولى بان الفن التشكيلي العربي هو وليد ظروف معينة ساهمت في تكوين الفنان ، لهذا فالعطاء الفني لا يمكن أن يعكس الا جملة ظروف موضوعية في هذه المرحلة التي نمر بها ، لهذا يقدم الفنان التشكيلي واقعا معينا ، فاذا كان هذا الواقع ينقل المعارف والعلوم ، ويستورد المواد والاشياء ، فهو في مرحلة النقل والاخذ من الحضارة الاوربية . ونحن لا نستطيع ان نتجاوز هذه الحقيقة الراهنة ، التي تطبع عصرنا الراهن ، وان الفن المنتج يمثل واقع الامة العربية الحاضر ، ويحمل سمة من سمات هذه المرحلة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أما الملاحظة الثانية فتقول بان تقليد الغرب في التطور العلمي والتقنوي لا يعني الارتباط به فنيا ، لهذا فالفنان العربي يسعى لتجاوز هذه المرحلة ، ليعطي ما هو أصيل ومتميز ، لكن هذا العطاء ما زال في بدايته ، وهو محاط بالتجارب المقلدة والناقلة ولم يستطع إثبات نفسه الى الآن ، لهذا نلاحظ وجود فرق بيننا وبين التجارب الاوربية في أمور كثيرة ، ولا يمكن أن تكون عملية التقليد شاملة للجميع ، انها سمة مميزة لتجارب المقلدين والمبتدئين ، بينما هي عملية إبداع وتجاوز عند الاصلاء والمبدعين .

ومن الواضح أن الملاحظة الثانية التي أبداها بعض الفنانين تجنح الى التخصيص ، فهي لا تؤكد على ما نقلده قدر تأكيدها على ما نضيفه ، أو ما يقدمه المبدعون من فنانينا .

لهذا يجب علينا أن نؤكد على حقيقة هامة وراهنة .. وهي أن هناك تقليد في كثير من الامور ، ولكن هناك محاولات لخلق شخصية متميزة عند بعض الفنانين ، لكننا لم نستطع

تجاوز مرحلة خلق شخصيات فنية ممتازة الى مرحلة حضارية تطبع عصرا بكامله بانتاج له هدف موحد يعطينا الصفة الضرورية للحضارة العربية المعاصرة .

* * *

لهذا لا بد وأن يكون الحديث عن الفن التشكيلي المعاصر ، ومحاولاته للتعريب ، مقتصرة على تجارب فنانينا التي تمثل البداية الضرورية لتقديم مقترحات عملية تساعد على خلق مناخ ضروري ليكون هناك فنا عربيا بالمعنى الحضاري ، وبالتالي فنا أكثر نضجا وتعبيرا عن مرحلة هامة .

واقع عملية التعريب

نستطيع أن نقسم المحاولات الفنية المختلفة القائمة في الوطن العربي لتعريب الفن الى ثلاثة تيارات أساسية تمثل تجارب هؤلاء الفنانين ومحاولاتهم الوصول الى شخصية متميزة ، وهذه التجارب ترتبط بجهود الفنانين الشخصية ، ومحاولاتهم الفكرية ، ومواقفهم الايديولوجية .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

أولا ــ التيار الشكلي

ويرى أنصاره بان الفن العربي المعاصر يجب أن يعود الى التراث ليكون عربيا ، وذلك لأن التراث حافل بالعناصر التشكيلية والتجريدية التي تساعد على بلورة فن عربي أصيل ، ولهذا لا بد من أن يكون البحث في التراث مقتصرا على العناصر الشكلية التي تربط بين التراث والفن المعاصر .

وذلك يعني أن تعريب الفن التشكيلي يعني ربطه بعناصر تشكيلية وتجريدية من تراثنا، اذ أن العودة الى الماضي هي طريق تأكيد الشخصية المتميزة امام التيارات الوافدة .

ولكننا نلاحظ بان هؤلاء الفنانين قد اعتمدوا على مبدأ شكلي تماما ، اذ حاولوا توظيف العنصر المأخوذ من التراث ضمن لوحة جديدة ، متأثرين بتيارات فنية شكلية محضة ، أو تجريدية أوربية أخذت من الفن العربي بعض عناصر وطورتها لتخدم أهدافها الشكلية .

لهذا نرى ان كثيرين ممن اخذوا من « الكتابة العربية » بعض الاشكال ووصفوها في لوحاتهم ، قد طوروا هذه الاشكال لتصبح لوحات تجريدية تماما ، وبالتالي ربطوا بين التجريد في الحرف العربي ، وبين مفهوم التجريد الفني المعاصر .
ولقد اختلفت النتائج حسب الفنانين .

فمنهم من ظل محافظا على روح الحرف العربي وعلى الدلالة التي يحملها هذا الحرف كلغة تنقل مفاهيم معينة ، وآخرون ابتعدوا عن هذه الدلالة متأثرين بتيارات عقلانية او هندسية او إنفعالية نزعت عن الحرف دلالته ليصبح مجرد شكل يمكن استخدامه في اللوحة . لهذا اقتربت تجاربهم من الفنانين الاوربيين الذين استخدموا الحرف اللاتيني او الياباني او العربي في لوحاتهم .

وهذا يدلنا على تباين في اسلوب التعريب عند انصار هذا التيار بين فنان وآخر رغم وحدة المنطلقات ، لان عملية استخدام الحرف في اللوحة تختلف من فنان لآخر ، فلقد استخدم التراث عند بعضهم كما هو ، وطور عند آخرين حتى وصلنا الى التجريد بمعناه الأوربي المعاصر .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولكنهم جميعاً اعتمدوا على أن ربط الفن بالتراث يعني استخدام عناصر تشكيلية في اللوحة على نحو شكلي تماما ، والاصالة عندهم هي خلق اسلوب معاصر من عناصر محلية شكلية .

لهذا يقع أنصار هذا التيار في تناقضات كثيرة ، لعل اهمها :

أولا : إن أنصار اخذ التراث كما هو ووضعه في اللوحة يقعون في عملية تقليد للتراث، وتكرار لما سبق لأجدادنا أن قاموا به ، وبالتالي تغلب على هذه الفئة صفة السلفية ، ولهذا فاخذ التراث كما هو دون تطويره يجعلنا نقلد ما سبق لأجدادنا أن قاموا به .

ثانيا : أما الفئة الثانية فهي تعمد الى مفاهيم غريبة خالصة في عملية اخذ التراث ، ولهذا فهم يقلدون الاوربيين حين اخذوا من تراثنا ، وبذلك يصل الفنانون الى نتائج قريبة من نتائج الفنانين الحديثين .

ولهذا فانصار هذه الفئة يسعون لتطوير ما اخذوه لكنهم يعانون دوما من ازمة دائمة ، وهي كيف يوظفون ما اخذوه ضمن فن يحاول التصدي للواقع ، ليعالج «المواضيع

القومية والسياسية والاجتماعية الراهنة » ..

إنه فن يلح على التشكيل ، وعلى الصياغة ليعطي الاصالة للوحة ويتجاهل حقيقة راهنة هي أن الأصالة لا تعني التقليد بل تعني الابداع ، وان الابداع يرتبط بتجاوز التبعية ، والتعبير عن الواقع العربي بمعناه الشامل .

ثانيا : التيـار الموضوعي

أما أنصار هذا التيار ، فهم يرون رأياً آخر في عملية التعريب ، لان التعريب عندهم ليس مجرد اخذ لصيغة شكلية ، بل إن التعريب يعني الارتباط بالواقع العربي ، والتعبير عنه ، لكن هناك إختلافاً كبيراً في تفسير كلمة (واقع) بين فنان وآخر .

ماذا يعني الواقع ، هذه هي المشكلة الرئيسية التي تصادفنا عند بحث تجارب هؤلاء الفنانين ؟! وكيف يمكن التعبير عنه ؟

إذ قد يتحول الواقع عند بعض الفنانين الى مجرد رسم لوحة واقعية لمشهد معين : حي قديم أو قرية أو منظر سياحي ، فالفنان يعالج الواقع بشكل تسجيلي ، ويلح على أهمية هذه المواضيع ، وعلى معالجتها .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ونتساءل هنـا :

ـ هل الواقع هو رسم هذا الحي أو رسم مشهد لحارة ، أو لأشياء شعبيةمحلية ؟! قد تعجب هـذه اللوحات بعض السياح الزائريـن ، الذين يتعلقون بالشوارع القديمـة والشبابيك والملبوسات الشعبية .

وقد تلعب هذه اللوحات دوراً هاماً في تسجيل هذه الاحياء . لكـن : هـل الارتباط بالواقع كما نفهمه يقتصر على هذا ؟!

في الحقيقة إن الفنانين الذين يقومون بتسجيل هذه المواضيع يحاولون تعريبموضوع لوحاتهم لكنهم يستخدمون من حيث التشكيل لغة أوربية خالصة ، سواء كانت هذه اللغة قريبة من الواقعية أو بعيدة عنها ، محرفة قليلا او كثيرا ، إنطباعية أو تسجيلية .

ومن الواضح أن الموضوع المحلي من حي أو شارع أو جدار ، لا يمكن أن يعكس رغبات فنانينا في خلق فن يعكس المرحلة والأصالة ، ذلك لان التعريب قـد أخـذ جانبـاً

واحداً وهو « الموضوع » دون بقية الجوانب ، وبالتالي يقلد الفنان في لغة التعبير ، ويجدد في المواضيع ، لهذا لا يمكن أن يكون أصيلاً بالمعنى الحقيقي .

لهذا يطرح بعض الفنانين القضية على شكل آخر :

« إن الفن يصبح عربياً حين يطرح الواقع بمعناه السياسي والاجتماعي ، لا بمعناه التسجيلي والسياحي ليكون الفنان شاهد عصره المعبر عنه » .

لكن كيف عولجت المواضيع السياسية والاجتماعية ؟!

هل يكتفي الفنان بتسجيل هذه الحادثة الهامة ، أم أن عليه أن يتجاوز هذا التسجيل للحادثة الى التعبير ، وكيف يتمكن الفنان من تحقيق الابداع في عمله إذا أراد أن يتجاوز مجرد عملية التسجيل ؟ !

هناك محاولات عديدة لطرح مواضيع سياسية واجتماعية راهنة كقضية فلسطين أو حرب تشرين التحريرية أو نكسة حزيران أو عدوان عام ١٩٥٦ ؟.

والشيء الهام هو كيف عولجت هذه المواضيع ؟!

ARCHIVE

نستطيع أن نقول بأن هناك محاولات مختلفة لمعالجة هذه المواضيع ، وتبدأ من الشكل التسجيلي الحرفي للحادثة إلى التعبير العميق البعيد عن التسجيل ، وهناك الشكل الاعلاني السريع ، والشكل الرمزي الاكثر بعداً عن المباشرة .

لهذا نقول بان تعريب الفن لا يمكن أن يعني مجرد الارتباط بالموضوع المعالج ، بل لابد من أن يكون هذا الموضوع معالجاً على شكل أكثر تطوراً من الصيغ التقليدية ، قادراً على التآلف مع الموضوع المعالج بحيث لا يكون التعبير متخلفاً عن الموضوع ، وبالتالي تكون لغة التعبير عربية أصلية ، تنسجم مع موضوع عربي خالص .

لهذا لا يمكن معالجة موضوع عربي باصالة ، دون صيغة فنية متطورة ، ولهذا لابد من أن نربط بين الشكل الموروث المجدد باصالة والموضوع الاجتماعي والسياسي الراهن ، حتى نتجاوز الصيغ التقليدية ونجدد بالمواضيع والاشكال لنحقق (التعريب) .

ثالثاً : التيار الرمزي

يرى أنصار هذا التيار بأن على الفن العربي أن يتجاوز الصيغ الشكلية والتقليدية، ومجرد تقديم موضوع محلي حتى يكون أصيلاً عربياً ، وبالتالي لابد من البحث عن صيغ جديدة فيها المعاصرة والتراث ... وتحقق هدف (التعريب) الحقيقي .

لهذا بدأ الفنان يلجأ للرموز بدل التعبير المباشر ، ويسعى للاستفادة من كل العناصر التشكيلية والتجريدية للوصول الى عمل يحمل هوية الفنان الشخصية ، التي تنبثق من رؤية سياسية ، وأيديولوجية ، وهكذا نتجاوز كل الأشكال السابقة للتعبير .

وحتى يحقق عمله الأصالة ، استخدم العناصر في تركيب جديد يتجاوز ما اخذه ، ليبدع شخصية متميزة ويبدو الفنان محاولا اعطاء عمله العمق ليكون لا مباشراً وليعطي شمولا يتجاوز واقعية الأشياء الى « الخلود » الذي يعني استمرار الارتباط بالواقع رغم اختلاف الازمنة والاحداث الجزئية .

وتحولت عملية التعريب الى تركيب جديد له شكله المتميز وله عناصره المستمدة من التراث ، والتي تطرح حادثا معاصرا برمز قديم جدد وفق مفاهيم عصرية ليخدم الفكر الذي يحمله الفنان .

* * *

لكن المشكلة التي يطرحها المتعمق في الفن التشكيلي العربي المعاصر ، هي ... هل توصل هذا الفن الى تحقيق التعريب بمعناه الشامل .. كحضارة معاصرة شاملة لكل جوانب الحياة ؟!

هذا يعني أن علينا أن نتجاوز كل التجارب والمحاولات الموجودة التي تحاول التعريب الى صيغة شاملة للحياة هي نتيجة لتعميم ما توصل اليه الفن على كل ما حولنا من أشياء ، ليكون الفن لغة عصرية تعطي طابعا حضاريا لكل ماننتج .

إن هذا (التعريب) لم نتوصل اليه ، ولهذا مازال الفن قاصراً عن تحقيق كل أهدافه، لأنه مازال في بداية الطريق لخلق « فن عربي معاصر » ، ولا يمكن ان يصبح التعريب حقيقة راهنة شاملة بدون ربط للفن بالحياة ، وتعميم لنتاج الفنانين على كل شيء فيها..

وهذه مسؤوليات تتجاوز الفنانين ، لأنها عملية تطبيق لنتائج توصلوا اليها على مصنوعات وبيوت وأشياء يومية يجب أن تكون عربية أيضاً .

ولهذا فالفنان يحاول أن يخلق الفن العربي ، والفن العربي في بداية التشكل ، وحين نعممه ونطبق نتائج ما استخلصه الفنان من تراثه ومن تجاربه على حياتنا ... يكون تعريب الفن حقيقة راهنة .

وهذا يرتبط بخطة شاملة توضع على أعلى المستويات من أجل تعميم النتائج الفنية الاصيلة على كل قطاعات الحياة ليصبح الفن في خدمة الصناعة والحاجات اليومية ، ويدخل في الكتاب والعمارة والتزيينات ويؤثر على كل إنتاج سواء كان كتاباً أو بيتاً أو قطعاً صناعية أو تجارية .

وعندها نخلق « حضارة عربية » أصيلة ، ترتبط بانتاج فني عربي متميز ، وبجهود لتعميم نتائج البحوث الفنية على كل قطاعات الحياة العربية الحديثة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صدر حديثا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

المرأة في التاريخ العربي

في تاريخ العرب قبل الاسلام

د. ليلى الصباغ

السهرة

قصة : زكريا تامر

رحبت حارة السعدي برحيل شمس النهار ، فالليلة يتصالح رجلان من أشرس رجالها ، فأبو شكور وأبو كاسم قادران على أن يقتلا ويسيرا هادئين في جنازة القتيل .

ولما عم الظلام تجمع عدد كبير من رجال حارة السعدي في أحد البيوت . وتكلم رجال كبار في السن كلاما منمقا رصينا يحض على تناسي الاحقاد . ثم تصافح أبو شكور وأبو كاسم وتعانقا وقبل كل منهما الآخر وسط التصفيق والتهليل ، وجلسا متجاورين واحتسيا كؤوسا من العرق وهما يتبادلان كلمات المجاملة . وعندما سكرا بدا لهما كل ما كان بينهما من خلاف لا أكثر من طيش أولاد .

ووضع أبو كاسم يده على كتف أبو شكور بحركة ودية ، وقال له بصوت ذي نبرة صادقة « والله يا أبو شكور أنت سيد الرجال » .

فرد أبو شكور قائلا باستنكار وخجل : « أنا ؟ ! أعوذ بالله ! من أكون اذا قورنت بالرجـال ؟ » .

قال أبو كاسم : « ولو ؟! أنت رجل حارتنا . كلنا نذكر ما فعلت يوم هاجم حارتنا رجال حارة مرجان » .

فاشار أبو شكور بيده الى الرجال في الغرفة ، وقال : « ما فعلته يستطيع أي رجـل أن يفعله . أما اذا قورنت بالرجال الرجال فمن أكون ؟ مجرد رضيع . أتذكرون أبي ؟ » .

فتصاعدت من حوله أصوات تردد :

« رحمة الله عليه » .

« أسكنه الله فسيح جنانه » .

« الفاتحة .. » .

قال أبو شكور : « المرحوم كان رجلا لا يشبه غيره من الرجال ولا يمكن نسيانه . كان يحب السكر والغناء والنساء » .

فصاح واحد من الرجال قائلا بصوت ثمل : « وأنا أيضا والله أحب النساء » .

ضحك الرجال بمرح ، وتعالت صيحات يقول أصحابها انهم جميعا يحبون النساء مثل المرحوم .

قال أبو شكور : « كان المرحوم كما تذكرون يحب أيضا المشاجرات يضرب ويختفي ولا يمسكه شرطي » .

فايده الرجال مرددين كلمات الاعجاب بذلك الرجل ، ثم تحادثوا عن رجال ماتوا ، وكانوا قادرين في آن واحد على أن يبكوا كالأطفال وأن يقتلوا بهدوء من يشرب ماء .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

واستمرت السهرة صاخبة مرحة حتى نفد العرق والطعام ، وحينئذ تفرق الساهرون متبادلين التحيات .

وغادر أبو شكور البيت ، ومشى في حارته بخطوات مترنحة متثاقلة دون أن يستطيع نسيان أبيه . وتذكر يوم كان صبيا صغيرا ورجع الى البيت باكياً لأن أولاد الحارة اعتدوا عليه ، فضربه أبوه ضربا مؤلما ، وقال له : « البكاء للنساء لا للرجال » .

ولما شج أول مرة رأس ولد يكبره في السن ، كافأه أبوه بشراء حذاء جديد له .

واستمر أبو شكور في سيره المتمهل الثمل ، وتوقف لحظة شاهد رجلا يحمل عودا ويمشي مترنحا ، فاعترض طريقه قائلا له بلهجة مهددة آمرة : « قف .. ولا ... » .

قال حامل العود بصوت خائف : « ها أنذا وقفت . تأمر أبو شكور » .

قال أبو شكور متسائلا بجفاء : « أنت تعرفني ؟! أنا لا أعرفك فكيف تعرفني ؟! »

قال حامل العود : « ألم تعرفني ؟ غنيت في سهرات كثيرة كنت فيها » .

فحملق أبو شكور الى حامل العود ثم قال : « تذكرتك .. أنت .. أنت .. أف ! نسيت اسمك » .

قال حامل العود : « أنا أبو سمير » .

قال أبو شكور : « الآن تذكرتك .. أنت فعلا أبو سمير » .

« ــ نعم نعم .. أنا أبو سمير » .

« ــ أين كنت ؟ » .

« ــ في سهرة » .

« ــ كيف كانت ؟ » .

« ــ سهرة زفت . الاكل قليل والعرق مغشوش والشباب لا يعجبهم العجب » .

« ــ والى أين ذاهب الآن ؟ » .

« ــ الى البيت طبعاً » .

وارتفع في تلك اللحظة صوت المؤذن من مئذنة قريبة داعيا الى صلاة الفجر ، فنظر أبو شكور الى السماء ، وقال لأبو سمير : « مؤذن جاهل يؤذن اذان الفجر بدلا من اذان العشاء . الله يصلحنا » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قال أبو سمير بصوت متملق : « آمين » .

فقطب أبو شكور جبينه مفكراً ، وحدق الى أبو سمير ثم قال له : « هيا اتبعني .. الى أين ؟ لا تسأل .. وإلا .. » .

قال أبو سمير : « أمرك أبو شكور أمرك » .

وسلك أبو شكور زقاقا ضيقا سائرا بخطا قصيرة سريعة ، وتبعه أبو سمير مهرولا ، حتى بلغا باب مقبرة الحارة ، وعندئذ صاحأبو شكور وهو يهمبالدخول الى المقبرة : «الحقني»،

قال أبو سمير بذعر : « ماذا تريد أن تفعل بي ؟ أنا رجل مسكين لا أؤذي نملة » .

فالتفت إليه أبو شكور قائلا بشراسة : « الحقني وإلا عدت إليك . أنت تعرفني وتعرف ماذا أفعل بمن يضايقني » .

فبادر أبو سمير الى دخول المقبرة ، وتبع أبو شكور متعثر الخطا مرتجفا ، يبسمل بصوت مرتفع .

ومشى أبو شكور وسط القبور البيض ثم توقف عند واحد منها وجلس عليه ، واشار الى قبر قبالته ، وقال لأبو سمير : « اجلس هنا » .

فاطاعه أبو سمير ،وحاول الكلام ، ولكن أبو شكور قال له : « إخرس » .

وأشار بسبابته الى قبر بجواره ، وقال : « هذا قبر أبي .. يرحمه الله .. هيا نقرأ الفاتحة ونهبها لروحه » .

وبسط راحتيه وراح يتلو الفاتحة بينما كان أبو سمير يضع العود على الارض ، ثم يرفع راحتيه نحو وجهه ، ويحاول تلاوة الفاتحة ، ولكنه يكتشف أنه نسي كلماتها ، فيكتفي بتحريك شفتيه متصنعاً الخشوع .

ولما انتهى أبو شكور من تلاوة الفاتحة ، لمس وجهه براحتيه ، فسارع أبو سمير الى تقليده .

ومسح أبو شكور وجهه بمنديل من قماش ثم تمخط فيه ووضعه في جيبه ، وقال وهو يشير الى قبر أبيه : « الوالد كان يحب الغناء والطرب . وأنا أريد الليلة أن يسمع ما حرم منه ويطرب قليلا . هيا اعزف على عودك وغن » .

فظل أبو سمير متجمدا ، فقال أبو شكور بغضب : « لم تسمع ما قلت ؟! هيا تحرك وإلا كسرت عودك على رأسك » .

قال أبو سمير وهو يرتعد : « أبو شكور .. دخيلك .. أنا والله .. » .

فقاطعه أبو شكور قائلا بنزق : « أنا والله سادفنك الليلة في قبر إذا لم تطعني وتفعل كل ما أريد » .

قال أبو سمير مداريا : « تأمر أبو شكور .. لا تزعل .. أنا في خدمتك .. لا حول ولا قوة إلا بالله » .

قال أبو شكور : « هيا إذن أسمع الوالد قليلا من التقاسيم » .

فتناول أبو سمير عوده ، واحتضنه ، وأمسكت أصابع يده اليمنى بالريشة ، وضرب بها على الاوتار عدة ضربات ، ثم تجمدت يده ، فقال أبو شكور : « لماذا توقفت ؟ » .

قال أبو سمير : « تريد الحقيقة ؟! أنا خائف .. ويدي لا أسيطر عليها وترتجف غصباً عني » .

« ـ خائف ؟! الرجال لا يخافون وأنت رجل . عيب أن تخاف . أتخاف وأنت مع أبو شكور . لا عاش الخوف » .

واخرج أبو شكور من جيبه زجاجة مليئة بالعرق الممزوج بالماء ، ونزع سدادتها ، وقدم الزجاجة الى أبو سمير قائلا : « خذ .. اشرب .. هذا عرق أصلي سيجعلك لا تخشى عفاريت الارض كلها » .

فتناول أبو سمير الزجاجة ، ورفعها الى فمه ، وجرع منها جرعة كبيرة ثم أعادها الى أبو شكور الذي مسح فمها براحته ثم شرب منها ، وقال : « هيا ابدأ بالتقاسيم واسمع الوالد ما يفرح قلبه ، واجعله في قبره يرضى عني ويقول : آه » .

وابتدأ أبو سمير بالعزف على العود ، فهز أبو شكور رأسه يمنة ويسرة معجباً ، وقال : « آه .. تسلم يدك .. أكمل » .

سُر أبو سمير سروراً خفياً جعله يتناسى قليلا خوفه واضطرابه ، وبات يعزف بثقة أكثر ، فصاح أبو شكور : « ياعيني عليك يا ... الاسم الكريم ؟! » .

« ــ أبو سمير » .

« ــ لعنة الله على النسيان . أبو سمير .. ما رأيك في موال ؟ » .

« ــ تأمر أبو شكور » .

وعزف أبو سمير قليلا على العود ثم تعالى صوته أجش ، وكان في البداية مرتبكاً متهدجاً ثم ما لبث أن استعاد شيئاً فشيئاً هدوءه :

يا ليلي يا ليلي يا ليلي ياعيني

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

فهتف أبو شكور بصوت ممطوط : « آه .. آه .. » .

ومد يده بزجاجة العرق الى أبو سمير الذي شرب منها بنهم ، وأرجعها الى أبو شكور وهو يقول : « تشكر يا أبو شكور تشكر » .

ضحك أبو شكور ، وقال: « صحة ! هكذا يشرب الرجال » .

وعاود أبو سمير غناء مواله :

يللي انكتب على الجبين لازم تشوفو العين

صاح أبو شكور : « صحيح والله صحيح . تابع أبو سمير تابع » .

وأحس أبو سمير بصدق اعجاب أبو شكور ، فانتشى ، وتلاشى خوفه ، واستمر في الغناء بصوت خشن .

وعندما انتهى الموال ، صفق أبو شكور ، وقال : « الله الله .. بلبل أنت يا أبوسمير » .
ضحك أبو سمير بغبطة ، وقال : « بلبل ولكنه بلا جناحين ويوشك أن يموت » .

فدفع أبو شكور زجاجة العرق الى أبو سمير ، وهو يقول : « اشرب . كلنا سنموت .

دنيا فانية . نحن اليوم خارج القبر وغداً من يعلم ما يحل بنا ؟! قد نصير في داخله . اشرب اشرب . حياة بنت كلب ! » .

ورفع أبو سمير زجاجة العرق الى أعلى بحركة قوية ، وقال : « بصحة أبو شكور شيخ الرجال » .

قال أبو شكور : « تسلم يا أبو سمير تسلم . متزوج ؟ » .

« ــ لا والله .. وحيد ، لا زوجة ولا ولد . لا أم ولا أب » .

« ــ ولماذا لا تتزوج ؟ » .

« ــ من المجنونة التي تقبل بالزواج من واحد مثلي ؟! الشحاذ افضل مني ، ولم يبق في رأسي شعرة واحدة سوداء » .

فضحك ابو شكور ، وقال : « المهم يا ابو سمير ليس الشعر الأسود . أنت سيد العارفين . النساء ملعونات ، وتعرف طبعاً ما يرغبن فيه » .

هز أبو سمير رأسه وقال : « اعرف اعرف . ولكن يا أبو شكور العين بصيرة واليد قصيرة».

وضحك الاثنان ببهجة ثم قال أبو شكور : « اخي ابو سمير .. لا تكن بخيلا . هيا اسمعنا .. ».

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ففكر أبو سمير لحظات بينما أصابعه تداعب اوتار العود ثم قال بادي السرور : «وجدتها». وسعل ثم انساب صوته خافتاً ، يرافقه العود :

سبع آهات ممزوجة بلب الكلام

الأوله آه من فعلك معي يا شام

فعقد أبو شكور ذراعيه على صدره ، وانصت عابس الوجه .

والتانيه ياحيف ضيعت أيامي

فصاح أبو شكور مقاطعاً بصوت منتش : « يا حيف يا أبو سمير يا حيف .. » .

والتانية ياحيف ضيعت أيامي

شبه السحابة بيد الريح يفربها

ودربي كحد السيف يا شام قدامي

وهز أبو شكور رأسه وقد استولى عليه الاكتئاب ، وتجرع من زجاجة العرق جرعات متلاحقة بينما كان يتابع أبو سمير الغناء :

ياخلجة المدبوح يارعشة التلفان

مبنى سفينة نوح شولو سبب داعي

وصاح أبو شكور : « آخ يا أبو سمير .. هل تريد أن تبكيني ؟ » .

فتوقف أبو سميرعن الغناء ، ومد يده نحو زجاجة العرق ، ولكن أبو شكور طوح بها بعيداً لترتطم باحد القبور وتتحطم ، وقال : « فرغت » . وأخرج من جيبه زجاجة ثانية ، وقدمها الى ابو سمير بحركة متفاخرة قائلا : « المؤونة موجودة والله الحمد . اشرب . لا شيء في الدنيا له قيمة . اشرب » .

فشرب أبو سمير من زجاجة العرق كمية كبيرة ، ثم أعادها الى أبو شكور الذي قال : « والآن الا تسمعنا اغنية تفرح ، وتجعل القلب يرقص ؟ » .

قال أبو سمير بصوت متلجلج : « على عيني أبو شكور على عيني » .

وعزف العود لحناً مرحاً ، وغنى أبو سمير بصوت ثمل :

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هز التوتة يا توات

توتك حلي يا توات

والتفت الى أبو شكور ، وقال له بلهجة معاتبة : « مالك ساكتاً ؟ هيا غن معي أبو شكورغن». وتابع الغناء :

هز التوتة يا توات

توتك حلي يا توات

ورافقه أبو شكور في الغناء ، واتحد الصوتان ، وتعاليا مرحين ممطوطين .

وفجأة بلغت سمعهما صرخة غاضبة مستنكرة ، فالتفتا نحو مصدر الصرخة ، فابصرا الحارس الليلي هارعاً نحوهما .

وما أن دنا الحارس الليلي منهما وشاهد أبو شكور حتى قال بلهجة ودية : « صباح الخير عمي أبو شكور » .

قال أبو شكور مستغرباً : « صباح الخير ؟! لماذا ؟ طلعت الشمس ؟! » .

قال الحارس : « ستطلع بعد قليل » .

فقال أبو شكور للحارس وهو يشير الى أحد القبور : « اجلس اجلس » .

قال الحارس معتذرا وحريصا على مراضاة أبو شكور : « قد تاتي دورية الشرطة في أية لحظة ... » .

فقاطعه أبو شكور قائلا : « لن ياتي احد .. واذا اتت دورية الشرطة فماذا سيحدث ؟! ».

قال الحارس : « سيخرب بيتي .. » .

فضحك أبو شكور ، وقال « اعرف بيتك وان خرب فستتخلص منه وتستريح » .

قال الحارس : « قد أفصل من عملي .. »

قال أبو شكور ساخرا : « انت مجنون حين تخشى أن تفقد عملا لا يشبعك لقمة الخبز » .

والتفت الى أبو سمير ، وقال له : « ما رأيك يا أبو سمير ؟ احك » .

قال أبو سمير : « كلامك يا أبو شكور جواهر » .

فقال أبوشكور للحارس بصوت آمر : « اقعد » .

فاطاع الحارس ، وجلس على واحد من القبور ، فقدم اليه أبو شكور زجاجة العرق قائلا : « اشرب » .

قال الحارس : « والله ... » .

قال أبو شكور : « اشرب ولاتخف من أي شيء .. لا من رؤسائك ولا من زوجتك .. اشرب ولا تهتم بشيء » .

فتناول الحارس زجاجة العرق ، وارتشف منها رشفة صغيرة ، فقال له أبو شكور بصوت محتج : « ما هذا ؟! اشرب بقدر المحبة . اشرب » .

فتجرع الحارس جرعة كبيرة ، وعندئذ قال أبوشكور لأبو سمير : « هيا أبو سمير .. اكمل ».

فعاود أبو سمير العزف على العود ، وغنى :

هز التوتة يا توات

قال أبو شكور للحارس : « هيا غن معنا . ساعة الفرح حين تاتي لا ترجع » .

وتعالى صوتا أبو سمير وابو شكور ثم انضم اليهما صوت الحارس مضطربا ، ولكنه تخلص بعد قليل من اضطرابه ، لتصير الاصوات الثلاثة صوتا واحدا خشنا قويا مرحا يستقبل صباحا ذا شمس تشرق على احياء واموات .

دمشق

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ليلة ذي الرأسين

قصة: عز الدين نجيب

...وبدات الصرخات أو ربما كانت صرخة واحدة ممتدة ، في حشرجة وحشية ، قفز « سيد حسين » جالساً فتبدد الحلم لكن الصرخة ظلت مستمرة . أدرك مكانه في الزنزانة بعدما ألفت عيناه الظلام ، ومضى يحملق في النافذة الوحيدة فاغر الفم والعينين ، فتدفقت عبرها الصرخات وفحيح السوط فوق اللحم . عندئذ ارتعشت شفتاه ، وومض في ذهنه الحلم الهارب .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

كانوا بلا عدد يهبطون ، على درجات حديدية لسلم دائري ، موثوقي الأيدي ، يلاحقهم السجان بضربات مجنونة ، يقوص خلفهم — عبر مئات الدرجات — الى بئر أسود بغير قرار . حتى اعترض طريقهم جدار لا منفذ منه ، فتكدسوا امامه عاجزين عن الحركة ، ورفعوا أذرعهم يحمون بها الرؤوس من الضربات المنهالة .

حين عم السكون تسلل سيد حسين من تحت الغطاء ووقف أسفل النافذة ، ثم اتجه نحو الباب وأخذ ينظر من خلال الثقب . لم ير أحداً في الردهة ، ولم يسمع غير وقع خطوات بعيدة (لغفر الليل) الصق اذنه بالجدار الفاصل بين زنزانته وزنزانة (المخصوص) التي يوجد بها السجين المحكوم عليه بالاعدام . لم يسمع شيئا ، فقد استيقظ رفاقه وراحوا يلاحقونه بالأسئلة .

إلا انه كان ما يزال في قبضة ذلك المشهد الذي رآه اليوم من الثقب للوافدين الجدد . مايزال يراهم الآن : حليقي الرؤوس ، مشوهي الوجوه بالكدمات ، يجلسون تحت أقدام الصول ، وهو يلوح فوق رؤوسهم بسوطه ، رائحاً غادياً بحذائه الثقيل . لم يكن بحاجة الى سؤال احد ليعرف أنهم عمال ، لكنه كان يحترق شوقا لمعرفة ما جاء بهم .

من ثقب الباب راى ظلال الأعمدة والعوارض الحديدية التي تحمل السقف تتراقص فوق الردهة الممتدة . وفجأة ضاق صدره بالمكان ، وشعر بحنين الى درب السرجة ، والى جلسة مسترخية في الشمس الدافئة على دكة الاسطى فرج . وكانت أمه حبيبة جالسة على عتبة بيتهم تغزل الطواقي النوبية من خيوط قطنية بهيجة الالوان ، واختاه الصغيرتان هنية وآمنة تلعبان الحجلة في الحارة وضفائرهما مربوطتان على شكل دوائر . وعم خميس جالس في الشمس كعادته ضحى ايام الاحد ، يحكي العجائب عن السياح والخواجات في الفندق الذي يعمل به . ضاعت الوظيفة التي كان سيد يوشك ان يشغلها في ذلك الفندق ـ كفاسل صحون ـ وعاد ابوه الى كراهيته لانه نور بلا عمل واهبل كما يقول ـ ماذا يقول الآن لو عرف انه يدخن السجائر أيضاً ؟ .. يحق لـه ان يفخر بإبنه لانه يقيم مع الاشقياء الذين يعمل لهم المأمور حساباً ، ويتعاملون معـه كواحد منهم ، اشركوه في (الحياة العامة) هل سمع أبوه بهذه الكلمة من قبل ؟ .. أصبح له نصيب في سجائرهم وطعامهم الذي يأتي اليهم من ذويهم . انه لا يعرف القراءة والكتابة حقاً ، ولا يكاد يفهم شيئاً من مناقشاتهم التي لا تنتهي ، ومع ذلك لا يستطيعون الاستغناء عنه . فمن غيره يأتيهم بالصحف من عند الجنائيين ؟ ومن غيره يهرب الرسائل التي يكتبونها الى الخارج بواسطة أصدقائه في (دور) .. ؟ . بالرغم من ذلك فان الخطاب الذي كتبه له ابو عوف وارسله الى اهله لم يصل حتى الآن ، والا لجاؤوا لزيارته ، أو ارسلوا اليه ملابس نظيفة ، يستبدل بها ملابس السجن التي ينفرد بلبسها دون بقية رفاقه بات يخشى أن يكون ابو عوف قد كتبه بلغتهم الغريبة التي يتناقشون بها هنا . فلم يستطع عم خميس ـ الذي يقرأ الخطابات لوالده نظراً لجهله القراءة ـ أن يترجمها له . ود لو ان ابو عوف كتب لهم كل ما حدث بتفاصيله ، منذ كان في طريقه ليتسلم عمله الجديد بالفندق في الموعد المحدد له ؛ كيف راى الشارع العريض يزحف كموج البحر بهدير يتردد صداه بين العمارات ، وكيف انجذب نحو المتظاهرين مأخوذاً وسار معهم حتى الميدان الكبير ، دون ان يفهم الى اين يقصدون او ماذا يريدون . استغرقته حالة ابتهاج خاصة ، لمجرد أن له مكاناً خاصاً وسط هذا الحشد ، وانه يشترك في أمر خطير سوف يتكلمون عنه في الراديو ؛ مما سيرغم أباه على تغيير نظرته اليه . لكنه ما أن بـدأ يشارك في الهتاف حتى فوجيء بصوته ، كان وقعه غريباً في اذنيه ، لم اخذت حشرجته تخف ونبرته تعلو وتزداد ثقة ، واجتاحه غضب مجهول المنبع ، وطفا في مخيلتـه وجـه أبيه مختلطاً بشتائمه ، فادرك مصدر الغضب وكاد أن يصرخ : لست نوراً ! لست اهبل !

لن أقبل غسيل الصحون ! .. وجدت كل شيء بسرعة خاطفة عربات عسكرية .. جنود في صفوف .. خوذات تلمع تحت الشمس .. دروع وعصي .. أجسام في الهواء .. سحابات دخان .. اختناق .. دموع .. هرولة .. فزع عام .. اندفع بين مجموعة نحو ممر احدى العمارات ، قبع في ركن يرتعد ويدلك عينيه ، حذره شخص من ذلك حتى لا يزيدهما التهابا ، قطع الاحجار تتطاير ، قنابل الدخـان يتلقفهـا المتظاهرون مشتطة ويلقونها على الجنود ، الدخان قبة زرقاء هائلة فوق الميدان . اقتحم الممر عدد من الجنود بدوا بعصيهم ودروعهم وسط سحب الدخان كاشباح خرافية . تدافع الجميع الى مدخل العمارة وصعدوا السلم عدوا . كان سيد حسين آخر الصاعدين . تملكه احساس بانـه وحده المقصود من بين كل هؤلاء . وانهم آخذيه لا محالة . تعثر في أول درجات السلم . أحاط به الجنود وانهالوا عليه بالعصي . مع كل ضربة كانت تتوهج امـام عينيـه نجـوم حمراء . انتشر اللون الاحمر سريعا فوق المساحة الزرقاء الممتدة . ووسط مساحات الأسود في الأجسام الدانية . واغمض عينيه على نقطة سوداء وحيدة وسط قبة الدخان الأزرق . تنهال فوقها الاحجار مـن كل جانب . وحـين أفاق في قسـم الشرطـة كانـوا يتنظرونه بزجاجة قالوا انها قنبلة . سالوه من اين حصل عليها . ولما أجاب بانه لم يرها من قبل انهالت عليه الصفعات ، ثم الصقوا أصابعه على لوح أسود لزج كالشحم حتى تلوثت ، وبصموا بها أوراقا امامهم ، وعلى أوراق أخرى كانوا يرصون كلمات . وفي النهاية سألوه : هل لديك أقوال أخرى ؟ وقبل ان يفتح فمه كانوا يتناولون ابهامه ويغمسون بصمته على الصفحة الاخيرة ، ثم جاؤوا به الى السجن .

- ٢ -

قال أبو عوف بظفر الاكتشاف :

ـ لقد عرفت صوت الولد الذي كان يصرخ ، انه من دور أربعة .

وقال شوقي :

ـ الليلة اقاموا زفافا لاحدهم في دور أربعة .. أسمعتم الزغاريد ؟

ـ ذلك شيء عادي لا يسبب ازعاجا للادارة ، إلا إذا قامت بسببه معركـة رهيبـة واعتقد انها قامت لان أحدهم أراد أخذ الولد بسيجارة زيادة .

لم يضحك احد ، فأضاف أبو عوف في ثقة من جرب حياة السجون :

ـ لكني اعتقد انها تمثيلية لإرهاب الوافدين الجدد حتى لا يفكروا في أي شغب .

كان ضوء هزيل يتسلل الى الحجرة من مصباح ما عبر قضبان النافذة ، ويستلقي في شرائح مائلة على الجدار . عاد سيد حسين الى مكانه وجلس يحملق في وجوه رفاقه دون ان يراهم او يسمعهم . كانت كل حواسه مركزة عند النافذة والباب .

وهش أبو عوف لانه لم ير ملامحه من قبل بهذا التحديد ، ربما لانه يراه في وضع جانبي يعكس الضوء : كانت جبهته بارزة وجمجمته مسحوبة الى الوراء كانها رأس ثانية ، وانفه الافطس مندغم في شفته العليا ، والسفلى متدلية غليظة . وبينهما تلمع سن فضية . وفكر أبو عوف لو أنه كان نحاتا وأراد أن يجسد الذهول الابله لما وجد انسب من هذه الكتلة !

كان « الجاروف » ـ وهو اسم الشهرة لبدراوي ـ قد أيقظه بعدما سمع الصرخات . وحين تنبه لما حوله رأى سيد حسين يقف عند الباب ينظر من ثقبه . وكانت الصرخات قد توقفت ـ ساله عن مصدرها فلم يعره التفاتا . أدرك من هذا مدى الرعب الذي يتملكه ، كذلك الرعب الذي كان يستولي عليه يوم رآه لاول مرة ، قبل ان ينقل الى زنزانتهم . وقبل ان يحدثه الجاروف عنه بحماسه المعهود . كان يقف على بعد خطوات من زنزانة السجين الذي ينتظر تنفيذ حكم الاعدام منذ سنوات يتامله وهو يتسامر مع حارسه في ود ، بملابسه الحمراء التي بليت وبهتت بمرور السنين ، كان وجه سيد يحمل مزيجا من الذهول والرعب والبلاهة . وما ان تحولت نظرات السجين بشكل عابر الى جهته حتى ولى هاربا وهو يتلفت براسه . وفي مرة أخرى رآه أبو عوف وهو في طريقه في صباح احد الايام الى طابور الشمس . كان يقف عند مدخل الطرقة المظلمة التي تبدا من بئر السلم ولا يعرف الى أين تنتهي ، يختلس النظرات الى من حوله ، كانه يراود نفسه على فعل شيء ، ولا يجسر ، واخيرا حسم امره وتسلل الى داخل الطرقة المظلمة بخطوات حذرة . وفجاة توقف ، ثم استدار وعاد مهرولا وهو ينظر خلفه بعيون رات هولا .. ولاول مرة عرف أبو عوف ان هذا هو الطريق الى حجرة الاعدام !

وعندما نقلوه الى زنزانتهم بعد حبس انفرادي طويل ، انس اليهم بسرعة . وتطوع للقيام بالجانب الاكبر من المهام اليومية اللازمة لحياة الزنزانة المشتركة . قرر أبو عوف الاستفادة اكثر من امكانياته : من تشابه ملامحه وملابسه مع الجنائيين مما لا يجعله محل شك من الادارة ومن انه يعقد الامور بالمناقشة فيما يطلب منه . في البداية طلب منه

استعارة جريدة المصباح عن دور (؟) لأن فيها أخباراً عن قضيته . وحين احضرها في طيات ملابسه فكر في خطوة ابعد : أن يستعين به في تهريب البيانات والرسائل الى الخارج . وحتى لا يثير الخوف في نفسه بدأ بان كتب خطابا باسمه الى والده يخبره فيه بمكانه ويطلب منه احضار ملابس ونقود له ، سلمه إياه وترك له حرية التصرف في كيفية ارساله عن طريق الجنائيين . ولما تم ذلك بالفعل اطمأن سيد الى حمل رسائل أخرى وتهريبها بنفس الطريقة . ويوماً بعد يوم أصبح يسلم قياده كلية الى ابو عوف ، وينفذ أي طلب يطلبه منه - لولا ان شوقي يكاد يفسد خططه دائما باصراره على معرفة كل ما يدور وما يستلزم التكتم الشديد ، وعلى قراءة كل كلمة ترسل الى الخارج ، مما دعا ابو عوف الى اعلان رفضه لهذا الاسلوب . وطلب من الجميع أن يتركوا له حرية التصرف في تنفيذ ما اتفقوا عليه ضمانا للامان ، ما داموا قد اولوه ثقتهم . أبدى شوقي تشككه في سبب اختيار ابو عوف لسيد حسين للقيام بهذه المهمة موحيا بانه اختاره لاطمئنانه الى أنه لا يعرف القراءة . كان هذا في الواقع أحد أسباب ابو عوف فعلا ؛ لكن إثارة شوقي للمسالة بهذا الشكل تكشف نواياه في الحصول على معلومات تخدم غرضا في نفسه . وحين الح الى ذلك أمام الزملاء هاج شوقي وأوشك الامر أن يؤدي الى نشوب معركة لولا تدخل الجاروف .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

كان السكون قد اطبق على السجن كله . سمع أبو عوف شخيرا خافتا . بحث عن وجه سيد حسين فلم يعثر عليه خارج الأغطية ، إلا انه استبعد ان يكون هذا شخيره . انه الليلة لن ينام . أراد ان يطمئنه ببضع كلمات ، لكن صرخة جديدة انطلقت فاخرسته .

- ٣ -

كانت صرخة حادة ثاقبة لفتى في حوالي الثامنة عشرة . عاد فحيح السوط فوق اللحم مصحوباً بشتائم نابية . نهض سيد حسين أولا ، وتبعه الجاروف والباقون . قال الجاروف مندفعا :

- هذا شيء لا يحتمل !

تساءل شوقي عما حدث ، فقال الجاروف ان هناك شخصا آخر يجلدونه .

قال أبو عوف وهو يندس تحت الغطاء :

ـ وسوف يجلدون ثالثاً ورابعاً وخامساً . لن يتوقفوا رغم عذريتك . وسوف تتعود على ذلك !

نهض الجاروف وهو يقول محتداً :

ـ لا لـن أتعود على ذلك ، اذا كانـوا قد استطاعوا أن يميتـوا احساسـك فلـن يستطيعوا ذلك معي .

قال ابو عوف ببرود :

ـ حسنا .. أرنا ماذا يمكنك فعله لتوقف ما يحدث .

وقف الجاروف في وسط الزنزانة ينظر الى النافذة محاصراً .

قال شوقي :

ـ علينا أن نعرف أولا من هؤلاء الذين يجلدون حتى نقرر ماينبغي عمله . يجب أن يصعد أحدنا ويطل من النافذة ليرى هل هم من الجنائيين أم من السياسيين .

قال ابو عوف على الفور :

ـ فكرة ! هيـا اذن واصعد أنت !

ـ ولماذا أنا بالذات ؟ .. لم لا يكون أنت .. أو سيد حسين ؟

ـ أنا لم أقترح شيئاً ، وأرى أن الأمر لا يساوي كل هذه الضجة ، وكذلك الأمر بالنسبة لسيد .

ـ انك تتكلم بنيابة عن سيد كما لو لم يكن موجوداً .

احتدم الجدل بينهما ، وتكوم سيد حسين بعيداً تحت غطائه ، والجاروف ما يزال واقفاً في منتصف الزنزانة يحدق الى النافذة . كان يشعر بأنه يجلد مرتين ، مرة بسوط السجان بأسفل ، ومرة بسوط الجدل العقيم بجانبه . أوشك أن يصرخ فيهما ليكفا حتى يستطيع أن يتخذ قراراً ، وأدرك أن ابو عوف وضعه في هذا الموقف ليثبت عجزه ويسخر منه ، ويرغمه على أن يسلم الامر اليه ، حتى يشبع ولعه بالزعامة . لكنه واثق من انه حتى لو فعل فلن ينتهي الموقف الى أكثر من كلمات وكلمات ، وحكايات قديمة عن مواقف مربها خلال سنوات سجنه، وقدينتهي الامر في أحسن الاحوال الى بيان يهرب الى الخارج ، دون أن يمر على شوقي طبعا ضمانا للامان ، وتدور دائرة الشكوك وتلقى الاتهامات وتثور معركة جديدة ..أبداً لن يخرجوا من هذه الدائرة ! . أحس بأنه يختنق، وازدادت السياط عليه من أسفل ومن أعلى ... وفجأة اندفع الى النافذة وتسلق الحبل المجدول من الياف الأبراش حتى تشبث بالقضبان . توقف الجدل وتعلقت العيون كلها

بالنافذة . بدا الجاروف بوضعه بعكس الضوء كخفاش مقلوب ، وكانت الصرخات المستجيرة تسمع بوضوح . مرت لحظات دهرية قبل أن يقول الجاروف من بين أسنانه أنه يرى في الفناء طابوراً من العمال ينتظر دوره ... وفجاة ارتجت الزنزانة – والليل كله – بزئيره :

– أيها الجلادون ..

– ٤ –

اطبق صمت ، كسماء سوداء ترتجف بعشرات الشهب . توقفت الضربات والصرخات، ولم تعد هناك غير أنفاس الجاروف اللاهثة وهو متشبث بالقضبان ، قبل أن ينزل ويعود الى مكانه . مرت دقائق قبل ان تسمع أنات خافتة ، وسرعان ما عاد كل شيء كما كان .. حتى الشتائم . واحتدم الجدل من جديد في الزنزانة حول تصرف الجاروف .

نظر سيد حسين اليهم مذهولا . هاله أن يجد لكل منهم عدة أعين . غاص تحت البطانية فامتلأ الظلام داخلها بالعيون . كانت تدور حوله زائغة مذعورة محملقة ، اختلت الكلمات الغريبة تختلط مكونة سحابة ضاغطة تومض فيها شظايا الصرخات السفلية . أحس بان الجدران تتبعج ، وبان أعضاء جسمه تستطيل وتقصر ، تنتفخ وتضمر ، كذلك كل الاجسام والاشكال من حوله . أضاء ذهنه فجاة بالحلم الذي رآه منذ قليل في لحظات غفوة خاطفة. قبل ان يبدا الصراخ للمرة الثانية ، رأى السجين الذي ينتظر الاعدام معلقاً في احدى العوارض الحديدية المتشابكة تحت السقف ، وجسمه يترنح في الهواء بردائه الاحمر ، ومن تحته قاع السجن الأسود . يحاول أن يصرخ فيخونه صوته . ورأى اشخاصاً يهبطون السلم الدائري في زحام لا يتوقف ، لكنهم لا يلتفتون اليه لان رؤوسهم منحنية . بدأت يداه ترتعشان تحت ثقل جسمه الذي انفتحت أسفله دوامة هوائية تجتذبه بتصميم . صرخ وصرخ وصرخ طالباً النجدة ، فلم يخرج صوته . واذا به يكتشف أنه هو نفسه المعلق في السقف لا السجين الذي ينتظر الاعدام ، وانه هو الذي يحاول يائساً أن يصرخ فلا يخرج صوته !

حين عم الصمت اخيراً كان ممتلئاً بذلك الهسيس الغامض المشحون بالتآمر . وانتبه سيد حسين على أصوات مفاتيح تدور في الاقفال ، وأبواب تفتح ثم تصفق ثم خطوات مهرولة واخرى زاحفة ، وتعلقت أعين الجميع بالباب .

اقتربت الخطوات من الحجرة ككتلة غليظة متدحرجة من الصخب . توقفت أمام الباب ، طعن المفتاح القفل الحديدي العتيق ، دار فيه أول دورة ، مصدراً صوتاً كصوت تعمير البندقية ، حبس سيد حسين أنفاسه . دار المفتاح دورة ثانية ، توقع صوت الطلقة. أغمض عينيه . أحس بأسنة الضوء المسنونة تفقأهما . لم تبدر حركة من أحدهم . انطلقت صيحة من عند الباب ، فتحوا اعينهم ببطء ، ورفعوا الرؤوس متصنعين النوم .

كان ضابط العنبر يقف داخل الحجرة ، ومن خلفه — في فتحة الباب — عدد من الحراس ، يشكلون جدارا من اللون الأصفر المحروق .

زام الضابط وهو يتصفح وجوههم بعينيه ببطء ، ويضرب ساقه بسوطه . بقي على ذلك فترة دون ان ينطق ، وقال فجاة :

— من منكم ؟ ..

لم ينطق احد . كرر السؤال مشفوعا بعبارات التوبيخ . شعر سيد حسين بان الجاروف — الذي يقف الى يمينه — يتحفز لعمل ما ، لكن ابو عوف الذي يقف الى يساره لكزه بيده في ظهره . لاحت على شفتي الضابط ابتسامة ساخرة ، وبدا كما لوكان قد اتخذ قرارا . امرهم جميعا بالوقوف . وقفوا متجاورين في نصف دائرة . اخذ الضابط يثبت نظراته على كل منهم برهة ، وهو يضرب ساقه بسوطه ، ضربات رتيبة ، توقفت أخيرا عند سيد حسين ، الذي كان يبدو بملابس السجن البيضاء ورأسه المزدوجة وعينيه الزائغتين وسنه اللامعة بين شفتيه المرتعشتين — نقطة متميزة في القوس المشكل من رفاق الزنزانة . هز الضابط راسه ونظر نظرة ذات مغزى الى بقية الرفاق . دارت النظرة كالبرق بين كل العيون وعادت الى سيد حسين . لكز ابو عوف الجاروف في ظهره ثانية . تلفت سيد حسين اليهم في ذهول . جوبه بجدار الصمت . وأمامه كان جدار اللون الاصفر المحروق يسد فتحة الباب ، والطرقات على ساق الضابط تزداد سرعة . تراجع سيد حسين خطوة ، وعيناه تدوران بلا توقف . أشار الضابط نحوه بيده . تراجع خطوة أخرى . قال الضابط « انت ! » هادئة باترة لا تقبل النقاش ، حاول أن يبرىء نفسه لكن الكلمات خانته ، كل ما خرج همهمة واهنة ، وهو ينظر الى الجاروف والآخرين نظرة استغاثة . امتدت من الجدار الأصفر المحروق اكثر من يد تحاول جذبه ، لكن الجاروف قفز فجاة فاصبح بينه وبينهم .

وقال للضابط محاولا السيطرة على انفعاله :

ـ انك تريدني انا .. حسنا .. ساختصر عليك الأمر .

اغرقه الضابط بنظرات طويلة باردة ثم قال :

ـ ومن قال لك انني أريدك ؟

ـ اذن ماذا تريد ؟

ـ ليس هذا من شانك .

ـ حتى لو اعترفت بأنني الذي كنت أصيح من النافذة ؟

ظل الضابط يسدد نظراته الباردة دون أن تطرف عينه أو يبدو عليه انفعال ، وفجاة اندفع عوف يقول :

ـ أنا الذي كنت أصيح .

وما لبث الباقون حتى فعلوا مثله واصطفوا بجوار الجاروف ، وتحول القوس الى جدار مستقيم حال بين سيد حسين وبين الجدار الاصفر المحروق . ظل الضابط يحتفظ على وجهه بقناع اللامبالاة وقال في هدوء :

ـ حسنا .. سوف تكدرون جميعا .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولم يكن هناك غير الصمت المهتز بضربات عصبية من السوط على ساقه . وفجاة اندفع نحو الباب ، فتراجع الحراس آليا الى الخارج . وقبل ان يصفق الباب خلفه صفقة ارتج لها كل العنبر ، غمغم بشيء من بين أسنانه ، ودار المفتاح في القفل العتيق ، طاعنا ستار الصمت الراعش .

بعد لحظات كان كل شيء قد هدأ ، وكانوا لايزالـون واقفـين مشدوهـين في وسط الزنزانة ، وسيد حسين يقف وحده خلفهم يحملق كالابله . استـدار الجـاروف اليه . وضع يديه الضخمتين على كتفيه واغرق وجهه بنظرات دافئة . جلسوا يدخنون بنهم سيجارة واحدة طافت عليهم جميعا ، حتى انتهت ولـم يـات الحراس لياخذوهم ، قـام الجاروف يبحث في جيوب سترته المعلقة عن سيجارة منسية . لم يجد بعد تفتيش دقيق غير عقب سيجارة ، وقبل أن يشعله انطفأ مصباح الزنزانة فغرقت في الظلام والصمت . وفجأة أطلق الجاروف ضحكة مجلجلة ، ثم أشعل عود ثقاب ، فبدت ابتسامة مرتعشة على الوجوه كلها ، ولمعت بين شفتي سيد حسين سنه الفضية ، ودار عقب السيجارة بينهم ، وكلما جذب احدهم منه نفسا توهج وجهه باشعاع ارجواني .

ـ القاهرة

المسيرة على الشاطئ

قصة : جورج سالم

كنت جالسا وحدك على شاطىء البحر . كان ذلك في الهزيع الاول من الليل ، وقد خلا البحر الفسيح أمامك من السابحين فيه المستحمين بمائه الذين كانوا قد انتشروا في كل نقطة منه حتى تلامست منهم الاجساد . واذ جنحت الشمس الى المغيب خرجوا منه تباعا كشراع يطوى رويدا رويدا . ولبثت أنت جالسا في مكانك ، الهدوء يعم الكون ، وليس ثمة الا هدير الامواج يدوي في اذنيك صاخبا عاتيا . كل ماتراه غارق في العتمة ، بينما الظلام يتكاثف فيما حولك ، وتنظر الى السماء فتلمح نجيمات بعيدة دقيقة تائهة في القبة تخترق الغيوم الرقيقة فيتسرب ضوؤها الباهت وينعكس دقيقا ضعيفا على صفحة الماء السوداء .

كنت غارقا في شرود عميق ، أنسيت خلاله كل شيء ، أنسيت ماحولك ، أنسيت الزمن ، واستغرقت في الهدوء والصمت ، وشعرت من جراء ذلك بمتعة عذبة ، في تلك اللحظة ، وقع خطاهما العنيف فوق الرمال . كان وقعا خافتا جدا حتى لايكاد يسمع ، ولكن شدة الصمت جعلته مسموعا على نحو واضح . ونظرت اليهما . كانا قطعتي ظلام ينبجسان من الظلام ، ولأيا ماتبينت شكلهما الانساني وهما على مبعدة منك . كانا يسيران بتؤدة على رمال الشاطىء الناعمة ، فوق الخط الذي يفصل البحر عن شاطئه ، وكان رذاذ الماء وأطراف الموج تندفع فتمس قدميهما في بعض الاحيان مسا رفيقا .ولمحتهما اذ مرا من أمامك عاريين الا من تبان صغير لايكاد يستر شيئا من جسميهما الناضجين الممتلئين حياة وصحة وقوة .

كان العالم الذي خلفته وراءك صحراء قاحلة وارضاء مواتا وجبالا من صخور لا حياة فيها . وامتد العالم من امامك حيا نشيطا موارا بهيجا . وازيحت من نفسك ، الى حين

قسوة الجفاف ، واستعاد قلبك نشاطه وتفتحه . انك لترقب هذين الشبحين في الظلام ، يذهبان ويجيئان غافلين عما حولهما ، غافلين عن الوجود كله في مسيرة لانهاية لها ، لست تدري متى بدأت ولست تدري متى تنتهي . تقول : سيتعبهما المشي فيتوقفان ليستريحا. وقد يجلسان ثم يعودان من حيث جاءا . ولكن لايبدو انك اصبت في تقديرك . فهاهما أمامك مايزالان ، يقطعان المسافة الطويلة جيئة وذهوبا ، ويغرقان في البعد حينا حتى لتظن انهما اختفيا الى الابد . ثم لاتلبث أن تراهما ينبثقان من اعماق الظلام ، شخصين صغيرين جدا كنقطتين في نهاية مدى البصر ، وينمو الشخصان ويكبران اذ يقتربان رويدا رويدا منك ثم يمران بك في تطوافهما الدائب ويجتازانك منغير ان يأبها بك اويلتفتا اليك. ومع ذلك فبصرك عالق بهما ، مثبت فيهما ، لايبرحهما .

انظر اليهما ، هل عرفتهما ؟ هل تتعرفهما ؟ حدق فيهما جيدا ، هاهي ذي ملامحهما تتضح وتزداد اتضاحا . قلت : لاشك في أنهما عاشقان ، انك لواثق من ذلك ، ففيعيونهما تألق وبريق ، وفي نظراتهما المتبادلة مابنم عن الوجود ، وانهما ــ كما تراهما رغم الظلمات ــ يتمتعان بميعة الصبا وغلواء الشباب . وشعرت آنذاك بحسرة . أهي حسرة أم حزنوكآبة أم شعور بالغم أمسك بخناقك وهو يشير الى سنوات عمرك الآفلة . ورحت تتأملهما وتطيل النظر اليهما ، واذا عالم الصحراء والقحط يبدأ يتلاشى من نفسك . وسرت فيك نسمة من حياة فانعشتك قلت : هاهما قد تغلبا بالحب على الكآبة والألم ، وظفرا على الموت المتربص بهما ولو مؤقتا . وقلت ايضا : لعلهما الآن يفكران بالمستقبل ، بمستقبلهما ، كيف يؤثثان منزلهما ، وكيف يمضيان أيام الزواج الاول ولياليه ، لعلهما سيهجران الفراش ويتمددان معا فوق بساط على الارض . ورأيته ينظر في عينيها ، أغلب الظن انه يجد في عينيها مستقبله ، وفرحه والسعادة . ورأيته يرفع عنقها نحوه ، فتغضيبصرها. حذار أيتها الفتاة ، افتحي عينيك وانظري في عينيهليطمئن قلبه ، فهو يودلوتنظرين اليه، الى عينيه ، على هذه النظرة يعلق أوسع الامال وأرحبها . وتحدق فيه ، يقترب منها ، من جسدها تضوع رائحة البحر ، رائحة خاصة لاتشبه أي عبق ، وانه ليستنشق هذه الرائحة بملء رئتيه وقلبه وشرايينه . ينفض الرمال العالقة بذراعها وكتفها ، من المؤسف أن تعلق حبات من الرمل بهذا الجسد الريان . خيل اليك أن في مشيتها بعض الزهو، لا بد أن تكون الامور قد جرت كما ظننت . في مشيتها شيء من النصر ، لا بد انهما تعذبا كثيرا أول الامر . ربما عارضهما ذووهما ، لعلهم رفضوا هذا الحب . لعلهم قالوا للفتى:

ان هذه الفتاة لا تناسبك ، ولا نريدها زوجة لك . ربما قالوا له : انك لست اهلا بعد لان تؤسس اسرة ، فمواردك قليلة .. وانت لما تشق طريق مستقبلك ، وربما قالوا لـه أيضا : يستحسن ألا تتعجل فقد تعثر على فتاة أفضل منها ، ولعلهم لم يسمعوا أو يعوا جوابه حين قال لهم : لن يكون في العالم كله أفضل من هذه الفتاة ، ربما لم يستطيعوا فهم ذلك .. وقد يكون اهل الفتاة قد رددوا الشيء ذاته عنه وكرروه للفتاة صباحمساء ، لابد أن هذه الأقوال قد آلمتهما ، لعلهما صبرا طويلا ، ولكن من المؤكد أنهما جابها ذويهما، وتعرضا لغضبهما . ربما تحملا كلاما قاسيا ، مافي ذلك ريب . وربما منعا من الاتصال ببعضهما . وغير مستبعد ان تكون الفتاة قد بكت في وحدتها وهي تطلب النوم فلايطاوعها، ولعل أمها قد حاولت أن تسري عنها ، فما زادها كلامها الا ايلاما . تراها تفكر فيه حيثما ذهبت ، وفي اي مكان اصطحبها أهلها اليه ليروحوا عنها . لعله اتصل بها مرات عديدة بالهاتف فقالوا له : انها غائبة ، لقد خرجت ، أو سافرت . انظر اليـه وهـو ممسك سماعة الهاتف لايصدق مايقال له ، ولاتتحرك أصابعه عنهـا ، لايريـد أن يعيدها الـى مكانها . ولكنه عنيد ، يكرر المحاولة بعد حين ، لقد جعله الحب عنيدا ، انـه ليدافـع بضراوة عن حبه ، عن مستقبله ، عن النور الذي أضاء ويضيء حياته . ألا تراه وهـو واقف ينتظرها على باب المدرسة ، بل لعله ينتظرها أمام مدخل الجامعة . وتلمحه مـن بعيد فتحمر وجنتاها ، تترك رفيقاتها بسرعة . يهرع اليها وتمضي نحوه ، تتدانى المسافة بينهما ، تطوى ، ثم تتلاشى . يقفان هكذا في وسط الطريق . يجذبها مـن يدهـا خوف السيارات ، ويقفان في فيء شجرة ، يتحدثان ، يطيلان الحديث ، أشياء كثيرة يريـد أن ينقلها اليها ، احداث شتى تتعلق بها ، بهما ، بمستقبلهما ، ألمه وما ينتابه كل حين ، وهي تريد أن تنقل اليه كذلك رغبتها في أن تراه وتسمع صوته . في عيونهما يبرق التحدي والتصميم على التغلب على ذويهما . وينطلقان معا ، يشدهمـا هدف واحـد ، وطريـق واحد ، وغاية واحدة . في وقفتهما هذه تدافع الزمن ، تدافع بسرعة هائلـة فلم يشعرا بمروره ، وما كان هكذا قبل اللقاء .

هاهما الآن يجلسان في أحد المطاعم ، في ركن معتم منه ، أمامهما كوبان من الشراب لايكادان يمسانه ، لعلهما قد اختصما . فهما في هذه اللحظة مكتئبان ، يقطر الألم مـن وجهيهما . لقد اربد الوجهان وعلتهما قتامة . من المخطىء بينهمـا ؟ وذنـب مـن هـذا ؟ ويشردان لحظات طويلة ثم يتململان . وبعد ذلك يكتشفان ، فجأةيكتشفان أنهما كاناعرضة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لسوء تفاهم فينفجران في ضحكة خجلى ، تنطلق من أعماق القلب ، والقلب في تلك اللحظة مبتهج شديد الخفقان ، تتكرر الخصومات ، تغذي الحب وتنميه وتنعشه ، ويعودان فيصطلحان ، بسرعة يصطلحان كان لم يكن شيء ، يكفي أن تبتسم له : حسبه أن تناديه حتى ينسى كل شيء ، ويصفح عن كل شيء ، وتعود الأمور سيرتها الأولى . ويكتشفان مصادفة ، ربما كان ذلك قبل سنوات عدة . بل ربما حدث ذلك في أول هذا العام الدراسي . فمن يدري ومن يستطيع أن يجزم بذلك ؟ هل رآها تسير وحدها في أحد الممرات عصر يوم ما ؟. من الجائز أنها كانت تنتظر قريبا لها أو زميلة ، لا بل كانت تنطلق في اتجاه باب الجامعة لتؤم بيتها . رآها هكذا دفعة واحدة ، كتلة من البهاء والضياء بوجهها القمري وعينيها العذبتين ، وشعرها المقوص الى الاعلى ، ودهش أنه عرفها ، لم يسبق له أن وقعت عيناه عليها قط . قال في أعماق نفسه : هذه هي الفتاة . ولم يتبعها ، كانت قد غابت عن طرفه المتعلق بها واختفت في العتمة . وحين حاول أن يتذكر متى رآها وأين التقى بها من قبل ، استطاع أن يجزم أنه لم يرها قط ولكنه عرفها ، عرفها مع ذلك ، قال في نفسه : عن هذه الفتاة كنت ابحث ، وهي وحدها التي أحب . لعله أحبها قبل أن يعرفها ، لعل صورتها كانت في نفسه ، وأحس بها تخرج من العتمة الى النور في تلك الأمسية .

لاشك في أنه بحث عنها طويلا فيما تلا ذلك من ايام ، ولا شك في أنه عمل جاهدا كي يراها فلم يوفق الى ذلك . ربما كان عليه أن ينتظر شهورا طويلة عديدة كيما يلمحها مرة ثانية . وحين رآها في هذه المرة خفق قلبه خفقانا شديدا وأدرك أنه لم يأبه بسواها خلال هذه الايام كلها ، وفي هذا اللقاء احس بفرح طفلي لم يشعر بمثله في حياته . أغلب الظن أن اسبابه لم تتصل باسبابها إلا بعد جهد مضن . لكأنك تراهما الآن في تلك الفترة البعيدة سعيدين مبتهجين ، يتعجلان انقضاء الدرس ليلتقيا في الحديقةالواسعة، ويتحدثا في همس ناعم لذيذ . لكأنك تسمعها الآن تقول له ذات مرة :

– أرى أن ميولنا متفقة ومزاجينا متشابهان .

فيقول لها :

– ما اشد التشابه بيننا .

– في كل شيء ؟.

– في كل شيء .

لقد نزلا اليوم الى البحر يستحمان . لاريب في أن الناس اخذوا ينظرون اليها .

http://Archivebeta.Sakhrit.com

كل الناس كانوا ينظرون اليها . ولكنه وحده الذي يراها ، لقد تعرت فبان جسدها الغض . الا انها تعرّت له لا لسواه ، وانه ليحدق في تكوين جسدها ، فتلمحه ينظراليها، تسر اذ تراه يتطلع اليها وحدها . ربما باح لها ، وهو يوصلها إلى منزلها ذات ليلة ، بحبه . لعله عاهدها على الاخلاص ، ربما اكد لها حبه واكدت له وفاءها . ربما حاول ان يقسم لها على ذلك فتثنته . انك لتسمعها تقول له :

ــ لاتقسم لي ، فلا حاجة للقسم في الحب . اني مصدقة ماقلت وتقول وساصدقك ابد الدهر .

ورأيتهما من مكانك ينظران الى المستقبل وهما يسيران جيئة وذهوبا على شاطىء البحر ، فوق رمال الشاطىء .

لسوف يتزوجان ، انك لترى ذلك حقا ، ويسعدان في حياتهما . وسينجبان في ليلة حب بالغة القصر طفلا ثم طفلا ثانيا ، صبيا وبنتا . وستتالم وقت الولادة ، ويقف هو غير بعيد منها ، عاجزا عن مد يد العون لها او تحمل العذاب بدلا منها . وسيغضن السهر وجهها ، وسيضنيها ، كما يضنيه ، مرور الايام والشهور ، ولكنه سيظل يحبها، كما تحبه هي ، وسيظل يراها كما رآها اول مرة . من المؤكد انهما سيتعانقان بهذين الطفلين وهما يكبران يوما اثر يوم ، لسوف يملأ الولدان وقتهما وحياتهما حتى لا يبقى لديهما وقت لذكرى الحب . سينمو الولدان وسيكون من دابهما في كل ليلة ان يدخلا غرفتهما يلقيان عليهما نظرة حب وحنان ، ثم سيذهبان الى المدرسة ويشبان على الطوق ويمضي كل منهما في سبيله . لاشك في انهما سيختصمان في بعض الاحيان من اجل امور تافهة ، بسبب عناء العمل ومصاعب الحياة ، ولكن دفء الفراش قمين بتبديد كل خلاف. وسيفترق عنهما الولدان ، بعد ان يتزوجا . لاشك في انهما سيزوران الشيخين بين حين وآخر ، وسياتي الحفدة للقائهما . ولكن ما لاشك فيه انهما سيمضيان الايام ، الايام الطويلة ، وحدهما يتذكران الماضي ، يجترانه ، يقتاتان به ، يعيشان عليه ، يتدفآن به . وسيجدان ان الحياة التي مرت مسرعة كانت ، على قصرها ، جميلة رغم كل الآلام التي اعترضتهما ، بسبب كل الآلام التي لقياها وتغلبا عليها .

انك ماتزال جالسا وحدك على الشاطىء ، واني لاراك تحدّق في المدى البعيد، تنظر الى البحر المضطرب الموج . لقد خلا البحر من السابحين فيه المستحمين بمائه. وها انت جالس وحدك ، وحدك ، ما من احد يسير على الشاطىء ، ما من وقع اقدام عليه ، غاب ايقاع الخطى الموسيقية المقدسة . ما من احد قربك ، ما من احد حولك . امض فنم فقد ازفت ساعة النوم .

حلب

ARCHIVE

مع المتنبّي
على مشارف القرن الحادي والعشرين

شعر : أحمد سليمان الأحمد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أشعلتَ نَجماً مِنْ جِراحِكَ ثاقِباً
وحنا الخلودُ على جبينِكَ عاصِبا
تَتَمَتْرَسُ ألوانُ الربيعِ صوامِتاً
ويهزُّنا عُنْفُ الشتاء مُخاطِبا
أنا كيفَ أرضى الوشوشاتِ وجُبْنَها
في حينَ تَسْحَرُ في الرُعودُ غواضِبا
الهاوياتُ — إذا عَقِمْنَ — صواعِقاً
والهامياتُ — إذا لَقِحْنَ — سحائِبا
إنّي اتّقَيْتُ كما اتّقَيْتَ أفاعِياً
لكنْ غَفَلْتُ فما اجتنبْتُ عَقارِبا
ماذا تُحَدِّثُ عن «كُوَيْفيرٍ» وعَنْ
أقزامِ فِكْرٍ يرتقونَ مَناصِبا

وعنِ الضعيفِ مُقاوِياً وعن الشُجا
عِ مُحدِّثاً وعنِ الجبانِ مُحارِبا
والأكثرينَ محايِداً حتى إذا
عَرِيَتْهُم فالأكثرونَ مَثالِبا
وشَجاكَ أنَّ أجانباً حُكّامُنا
أوَما شجاكَ الخادمونَ أجانبا
ورأيْتَ كيف يكونُ حُكْمٌ حاضراً
في حينَ لا يَنْفَكُّ شعْبٌ غائبا
لوشئتُ سُقْتُ لكَ العجيبَ وإن يكُنْ
لم يَتْرُكِ الزمنُ الأخيرُ عجائبا
أينَ الذي ادَّخرَ البراقُ مُعَفَّرا
بالسوطِ منْ « فجأ البُحيْرَةَ » واثبا
غولٌ كما تروي الأساطيرُ انتشى
بدمِ « البحيرةِ » ليس يبرحُ شاربا
والرومُ ما زالوا كما كانوا سوى
أنْ بدَّلوا سحناتِهم وجلابِبا
يا أيُّها « السيفُ » الذي غاراتُهُ
صدَّتْ وأجْلَتْ عن حدودٍ غاصبا
وثبوا على « الحدَثِ » التي أعليْتَها
« حمراءَ » حيثُ ارتدَّ باغٍ خائبا

بالأمس تسقيها الجماجمُ قلعـةً
والبومَ تسقيها العيونُ خرائبـا
كم خُضْتَ قلْبَ عجاجةٍ فتكشفتْ
نصراً ، وقد ولّى « الدمُستُقُ » هاربا
وسمعْتُ ـ إذ خرسَ الحديدُ ـ ملاحماً
ورأيْتُ سيْفكَ في الأعادي خاطبـا
أعْدَدْتَ للجلّى عزيمـةَ مـاردٍ
وركبْتَ للأمرِ الجليلِ مصاعبـا
هبّتْ على بحْرِ العذابِ رياحُهـا
ومضتْ ترجُّ بمنْ تُقِـلُّ مراكبا
حتّى اقتحمْتَ على الزوابعِ كهفها
تجتثُّ أنياباً لهـا ومخالبـا
زيّنْتَ بالإلهامِ صدْرَ تجـاربٍ
راحتْ تتيهُ على الحيـاةِ تجاربا
ونهبْتَ أعماراً إذا جمّعْتَهـا
ودّ الخلودُ لو استحالَ الناهبـا

. . .

تُجْنى الأغاني مِثْلَ أثمارٍ على
أشجارِهـا ، وكما قطفْتَ كواكبـا
تلْكَ الفراشاتُ التي حامتْ على
أمْسي ، تزفُّ الذكرياتِ مواكبـا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أخشى الحنينَ إذا تطوفُ عواريـاً
فلقد يكونُ لها سراجاً لاهبـــا

مُدُنُ الهوى أعْلامُها مفتوحـــةٌ
فليحتشدِ الغازي رؤىً ومآرباً

نجميّةَ الأشواقِ مِثْلَ قصائدي
ظمأى لأنداءِ الصباحِ سواكبا

يا غُرْبَــةَ الشعرِ الذي سهرتْ لـه
أجفانُهُمْ ، وامتدَّ همّاً ناصبــا

أرقوا ، ونمْتَ عن الشوارد تغتدي
منها عصائبُ يتّبِعْنَ عصائبــا

ويُليحُ في عينيكَ حلمٌ باخلٌ
وتصدّهُ حتى يجيئكَ واهبــا

ودخلْتُ مثلكَ «شعْبَ وَاْنِ» أرى
للجنِّ والشعراءِ فيه ملاعبــا

متصيّداً تلكَ الدنانيرَ التي
كانت تفيءُ إلى الخيالِ هواربا

كالعطرِ راح يميس إغراءً فإنْ
راودْتهُ جافى وقطّبَ حاجبـا

حتى ذُهِلْتُ وراحَ ظلٌّ ضائعٌ
في الشمس يستهدي الطريقَ اللاحبـا

يهفو إلى السقيا فيا نبْعَ الرؤى
جئناكَ لم نُجْهِدْ إليكَ ركائبا
وقطعْتُ صحراءَ إخالُ رمالَها
بَحْراً ، وتنعكسُ النجومُ قواربا
وكمْ يُفاجِىءُ وجْهَهُ في الماءِ ، لم
يَغْرَقْ ، ولكنْ غَلَّ وهْماً سارِبا
وتفتّحَ الليلُ المُدلّهُ وردةً
حمراءَ ، إذ كانَ الحياءُ الخاضِبا
وأزاحَ فجرُ ألفَ ألفِ ستارةٍ
عن سِرِّنا ، ورنا إليهِ مُعاتِبا
أشجارُ صَمْتٍ راحَ يلتجىءُ الصدى
لِظلالِها ، ويَحجُّ لحنٌ تائبا
أنا لستُ أنشُدُ غيرَ سطرٍ واحدٍ
لم يلْقَ في ديوانِ حبٍ كاتِبا
والشِّعْرُ مِثْلُ الحُبِّ آيةُ مُبْدِعٍ
يختارُ عطراً للورودِ مُناسِبا
أغْرى القصيدةَ كالحبيبةِ فانثنتْ
خجلى تُمانِعُ مَنْ أتاها راغِبا
حتى استبدَّ بِها الذي أشواقُهُ
شُهُبٌ تُؤَجِّجُ كالسماءِ ترائبا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

والحبُّ مثلُ الشعرِ يأبى زائفـاً
كالنهر غادر في الضِفافِ طحَالِبـا
هذا الذي زعموهُ مَتحْضَ تجدُّدٍ
ضاقتْ بـه دنيا الجديد مَذاهِبـا
أنكرْتُ مُعْجِزَةَ الجديدِ إذا ارتضَتْ
للتابعينَ نَبِيَّ شعرٍ كاذِبـا
ويحسَبِ شعري أن أراهُ حادِيـاً
في رَكْبِ قافلةِ العصور نجائبـا
دارَ السؤالُ على الجديـدِ بِعِطْرِهِ
حتى انبرى وَرْدُ التُراث مُجاوِبـا
أرأيْتَ بحْراً راح يَنْكِرُ موجَـهُ
مُتباعِداً في الريحِ أو مُتقارِبـا
وسمعْتَ مَوْجاً طافراً لشواطىءٍ
مسحورةٍ ، أمسى ليبحْرِ عائِبـا
وأُعيـذُ بحراً أن يَضيقَ بموجـةٍ
راحتْ تزُفُّ إلى الكنوزِ غرائِبـا
ألصاخِبونَ وهـل أتاهُمْ أنّـهُ
ما كان عطرٌ في حوارٍ صاخِبـا
وقفوا على بابِ القوافي موصَـداً
يتَرصَّدونَ ويـدّعونَ مَواهِبـا

ظَنُّوا نوافِــذَ للغنــاءِ مُضــاءةً
كي تستضيفَ غُرابَ بينٍ ناعِبــا
وستمّحي ذكراهُمُ ، وكأنّهـــا
زبَـدٌ تخيّرَ في الرمالِ مَســاربا
وسينطوونَ ، وسوفَ يَبْقى بَعْدَهُمْ
شعري ، لأسبابِ الفَناءِ ، مُغالِبــا
مُدُّوا ــ كما شِئْتُمْ ــ عليه غياهبا
فلسوف يُشْعِـلُ كالبروقِ غياهبا

...

ناديْتَ « ميّافارقين » وصـاحَ في
عينيْكَ شوقٌ كادَ يهمي ذائبــا
وتخايلتْ في حُلْمِ ليلِكَ نجمةٌ
جرَتْ على أُفُقِ الحيـاةِ مساحبــا
حمّالَةُ الأمطارِ في أسْفارِهـــا
عَرَضَ الرجاءُ لها وفَضَّ حقائبــا
والأمنياتُ نقائضٌ فَغَزالــــةٌ
وَرَدَتْ ، وطيرُ قطاً تَنحّتْ جانبا
والنبْعُ طَوّقَ باللهيبِ أحبّـــةً
في حينَ عرَّى كاللهيبِ حبائبــا
تشدو الشموسُ مع الطيورِ طوالعـا
حتّى تهاجرَ كالطيورِ غواربــا

وتوالَتِ اللوحاتُ ترصفُ في الدجى
شُهُباً ، وتُعْلي فوقَهُنَّ مَضاربا

وتلوحُ سمراءُ الخيامِ فهل جَلَتْ
بَسَماتُها غَيْمَ الأسى المُتراكبا

والحبُّ دارَ على الخيالِ جزيرةً
كالنَّهْرِ طوَّقَ بالنخيل سباسبا

نورٌ يُغَرِّدُ ! ما رشَفْتَ ضياءَهُ
إلاَّ وضاقَ بكَ الضياءُ مَطالبا

والفَجْرُ مُنْسابٌ بأفكارِ الدُّجَى
حتى تَشِفَّ قصائداً ورغائبا

وتَغُـلُّ في الكلماتِ أمطارُ الرؤى
وبرفُّ هُدْبٌ للطيوف مُجاذبا

ورأيْتَ بُسْتاناً يُسَمِّمُ وردَهُ
ويزورُهُ نَحْلُ الصباحِ مُجانبا

وأتاكَ أنَّ النَبْعَ شَبَّ حرائقاً
لمّا استحالَ الحبُّ طيراً ناعبا

ويهيمُ حزنُكَ مِلْءَ غاباتِ الرؤى
ما كانَ أغْرَبَهُ بِلَيْلٍ حاطِبَـا

وترى العراقَ طويلَ لَيْلٍ بَعْدَها
والساهراتِ من النجومِ نَوادبا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

قد كان ذاك الهَجْرُ أبْغَضَ حاجبٍ
مِنْ دُونِها ، فغدا المُرَجّى حاجِبَا

. . .

أطْرَبْتَ حتى غارَ نجمٌ شاعِرٌ
أتضيقُ بي إمّا أتيتُكَ عاتِبا
أنْ رُحْتَ تمدحُ « الكوافيرَ » الأُلى
تركوا على التاريخ ظلاً شاحِبا
أمجادُهُمْ صُهِرَتْ رَماداً ، ذرّهُ
غَضَبُ الشعوبِ ، وقد أمِنْتَ عَواقِبا
أعْدَدْتَ راحِلَتَيْكَ فَقْراً نازِلاً
وقوافياً في الخافِقَيْنِ جوائِبا
ولَتَحْتَ أخْمُصِكَ الرجاءُ وذُلُّهُ
فَلَرُبَّ يأسٍ كانَ حَرَّرَ صاحِبا
ماذا تُؤَمِّلُ مِنْهُمُ إلا مُنىً
غَرَّتْ على أبوابِهِمْ ولَواغِبا
أتروحُ ترجو من صقيعٍ جُذْوَةً
وترومُ عند الأخبثينِ أطايِبا
ما كانَ أَوْلى أن تَحِنَّ لِكأسِنا
خمْرُ المُلوكِ ، وأنْ تُعافَ مشارِبا
مهْلاً ، فكُلُّ مكانةٍ تَبْلى سوى
ما بوّأتْكَ من الخلودِ مَراتِبا

لِيظل ذكرُكَ كالشموس مُشرِقاً
آناً ، وآونةً يجوبُ مَغاربا
فانظرْ إلى الحورِ ــ القصائدِ مُيَّساً
زهْواً ، لأذيالِ الدلالِ سواحِبا
حملتْكَ أو حملتْ إليكَ خلودَها
غُرراً ، لمجدِ الأنبياء خواطِبا

. . .

يا وحشةَ الصحراء أفْرَدَكَ الردى
إلاّ ظِباءً نُفّراً وجنادِبا
والشمْسَ سافرةً رأيتُ بوجْهِها
جُرْحَ الشموخِ وسهْمَ غدْرٍ ناشبا
وصدىً من الآتي ترامى زَحفُهُ
حتى استبانَ بيارقاً وكتائبا
آبتْ إلى عينيْكَ . هل مِنْ قبْلِها
شاهدْتَ فتْحاً من خلودٍ آيبا
مرّتْ بنا مِنْ قبْلِ ألفٍ فانبرى
شعري لها ، في العائدين ، مُواكِبا
في كُلِّ مُنْعطَفٍ أطلَّ ، مُشيِّعاً ،
موتٌ يُزيلُ عن الحياةِ شوائبا
حُمْرُ المَصارعِ شاركَتْكَ خواتِماً
أدّتْ للملحمةِ الحياةِ ضرائبا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وأرى خناجرَ للأغاني أرْهِفَتْ

وتلمّظوا يتَنَظّرونَ مآدِبا

ومُعَرْبِدينَ لأنَّ كأساً أُتْرِعَتْ

بِدَمِ الشهادةِ تَسْتَفِزُّ الساكبا

فبكلِّ مِحرابٍ تُصلّي ربّةٌ

حُزْناً لشاعرِها تَحُلُّ ذوائبا

وترامَتِ الأسفارُ نَقْطَعُ لُجّها

عَبْرَ العصورِ . . ونستخِفُّ متاعبا

حتّى وقفْنا حيثُ أنْتَ مُوَسَّدٌ

نقضي لِحَقِّ العبقريّةِ واجِبا

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

حلمي ، وقد طاف الحجيج وقد سعى

أنْ لا أكونَ بِدَيْرِ شِعْرٍ راهِبا

وبأنْ أُقاتِلَ في الميادينِ التي

رَفَضَتْهُمُ رَفْضَ النقاءِ رَواسِبا

وَهِموا . فما لِلموتِ آخِرُ جولةٍ

قُلْ . مَنْ إذنْ زَحَمَ النجومَ مَناكِبا

١٩٧٦/٢/٦

* * *

ورق متساقط من غابات النفي

شعر : عماد جنيدي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

جئتكِ ! من فوهة الزوبعة / يا أرضاً بلون الهجره
حفرت فيك طريقاً حاداً كالسهم / ولونت ضفتيه بدمي /
وحاربت وحدي متاهَ القرى / ذلك المتدرِّنُ كالسلِ
بين الخلايا / وكسّرت كل المرايا / التي تخدع البرق / أو
ترسمَ الحلمَ / في غير صوب البحار البعيده .

تعودين ! سديمية الوجهِ / طوطمك الرخو يزهو .
على أسفلِ النعلِ ألقاكِ / في فوّهاتِ البنادقِ عيناكِ
ضباعٌ من التاريخ مهزومةٌ تمرَّغ فيك / كبرياء الجراح الحزينه .
جيوش من النمل والدود والقمل / من خلفها / وأنا واجمٌ / كم
صدري / يداي / لكن صرختي ! لم تزل صرختي .

. . .

لي عيون بحجم المرارة / أرماح أحداقٍ ! تغير / تثقب ! ترتد ! تنزي ! داخلي ، داخلي يقول تفجر .
تطلينْ !

من آخر البحر ! لاوجع الأرض ! أو ذكريــات فصول الحريق ! تلوّن عينيكِ / أنثى ! هي الخصب / وهي البــلاد الــتي عرفت وهي حلم الطفولة / بــل صرخة البدء / من آخر اليأسِ / أقــوى من الموت ! أقوى ! ! ويبتدىء البحر عرس الهياج .

. . .

عند بوابة الأرضِ ! يتهدُ حصنٌ قديمٌ / وتصهــل أحصنــة الريــح .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

من هذا القادم من كلّ عذاباتِ العالم ؟
من هذا المتشظّي والآثمُ والنادمُ ؟
من هذا الطفلُ الحالمُ ؟ والتائه في كل بحارٍ
والضائعُ في كلّ فضاءٍ ؟ في كل مفازات النفي .

. . .

أحبّـك أغنيةً ! حلماً ، وطناً ، لحظةً تهب الأرض .
أحب طريقي إليكِ
وأعلم أنّ طريقي إليك ! تكلفني عنقي !!!

. . .

في حقلٍ للألغام ! حقلٍ متسعٍ بين محيطات الرعب / وتحت سماوات القصف

وعبر صحارى اليأس / وتحت وسائد هذي المدن الجوفاءْ .

تعبر أجيالٌ / آلت أن تصنع وطناً / آلت بالقتل ستغسل تاريخاً طفلٌ يقتل / حبلى تقتل / تجار الحرب وتجار الثورة / تجار الأسواقالسوداء وتجار البخور / وتجار عطور الزيف / وكل صيارفة الزمن العربيِّ الأسود / حتى الفقراء / وحتى الغرباء / وحتى الدهماء / وحتى من لا ذنب له / أو من شوَّه تاريخاً / لا بد من القتل / عبور حقول الألغام / لنصنع وطناً / ولنصنع إنساناً / ليكون لنا صوت في هـذا العالم / أو موتْ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في كلِّ حريقٍ ألمح ضوءاً يأتي / سفناً تومضُ / طفلاً يولدُ / في كل حريقٍ ألمحُ ألفَ طريقٍ .

لكن الإنسان هنا / لا يولد / لا ينمو / لا يكبر / لا يقتل .

الإنسان هنا يأتي / لا يعرف من أين / ويهرم في العمر / ويرحل يا أرضاً أعشقها / أعشق فيها ذاكرتي الأولى / وأحب عصافير الفجر وآفاق البحرِ / ولا زلت أخاف مزارات القريه .

لكنّي ! أسكن وحدي في إحدى أقفاص الرعب .

الإنسان هنا يحلم أن يصبح عصفوراً ! لكنَّ أباه يقصُّ جناحيه .

فيصير دجاجاً يأكل من حبِّ الأرض ويحمد خالقها .

يا أرضاً أعشقها ! لكني لا أعرف كيف تدور / ولا أملك فيها / إلا هذا الورق المتساقط من غابات النفي / ومن أزهار الحلم المسحوق أو المسروق أو المقتول .

« أنتِ ، ما تريدينَ ؟ أواه لو تقولي ؛ أيَّ شيء !

غير أن أحملَ في تابوتِ عينيكِ / وأمشي ! »

هكذا ! وفي أزمةِ الشوقِ / أطوف على هذه الشوارع / وجهاً تزوبعَ تعلو أمامي /جبال‌تراثية" رواسٍ /تقول البقاء الثباتُ / التجذّع َ أرفضُ ! قولي الحياة ولو لحظةً ! . . . !

ولكنني ! لم أقل بعد ما تفهمونه

لم تزل ناري لهباً أزرقاً / حبيبي لم تزل رمادية / لغتي ! لم تزل ضبابيّة / سفني ! لم تغادر / جزر الوحدة / سقف السماء الخاوي

وما بيننا قناعٌ / أقول : لا زلت أمزج جمر الحقيقة في اللزج

وما بيننا قناعٌ / أقول : لا زلت أمزج جمر الحقيقة في اللزج الزيف / « قوموا ! ساعدوني ! أقول : يكون اعترافي / حارقاً ساحراً / مضحكاً ومهيباً . »

« لست أنسى ! أنا كنت يوماً / فرساً في رهاناتكم / تعالوا إلى لحظة اعترافٍ / تعالوا نمدد أنفسنا كالخرائط الممزقة »

. . .

هل أدوّي ؟ أكاد أيبسُ ! قامرت بحبي / سفحته فيكِ / دمائي سقيتها أرضكِ البوارَ/ بقيت علىقبركِ الطوطمِ/ الشاهدَ الاشاره .

. . .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

هل أنا وحدي هزمتُ ؟ أسألوا قهقهة المقهى / ثباتَ الجذع فيكم
اسمعوا أصواتكم : لم تزل أصواتكم . / وأغانيكم / أغـانيكم
غبار الزمن الآخر يغشاكم / ولم يهتز شيءٌ تحتكم .
وتقولون : أتأمرنا وتنسى ! ما الذي أنسى ؟ وقد غيّـرت
عاداتي تقاليدي / نسيت / كل شيء .

. . .

« من أين ! تبتدىء البحارُ خروجها الجبار ؟ !

هذي لحظة اليأس الرهيب
ولحظـة الأمل العظيم
ولحظـة الموت المدوي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذه لحظة الهبوط إلى القاع
في القاع لؤلؤة / هل أقول هي الثورة ؟ هيـا إلى القاع نبحث عنها .
قد تكون قناعاً جديداً ! قد تكون رفيقاً جديداً يخون الرفـاق
قد تكون علامة نحسي وبؤسي !
قد تكون هي الثورة البدء / والثورة اللحظة الرائعة .
ربما لا تكون لؤلؤةً !
ربما حلزونٌ يخادعنا / في محارٍ من الوهمِ / لكنهـا
لحظة الهبوط إلى القاع

. . . .

أو لحظة ٌ للبداية

نبدأ / نعترف أولاً / حدث زلزالٌ رهيبٌ في هـذه المنطقـه من النوم / زلزالٌ في التراب والنفس والعقلُ . /

لم تعد هذه الأرض صالحةً لأنواع الزراعات السابقه !

لم تعد هذه الأرض صالحةً إلا لزراعة الألغام .

لم تعد راحة النفس إلا في قلق البال .

في الشك والقلق والتساؤل .

والعقل ما عاد يومض إلا بالفكرة الجريئة .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

تعالوا إلى لحظة اعتراف / نحن ما بيننا وبين الحياة جدارٌ رهيبٌ هو الانتظار / هو العيش خارج أيامنا / نحن يلزمنا البدء / فتـق البكارة / نحن ما بيننا وبين الحيـاة جدار هو الانتظار / هـو العيش خارج أيامنا . نحن يلزمنا البدء فتق البكارة / هـــذي دمائي .

تعالوا انظروها / تغلي وتنزف شوقاً / متى ستكون الحـدائـق نحن ؟ الزهور : الصبايا / البراعم : أطفـالك السـمر ؟ متى تعود أبواب البيوت تضحك ؟ تفتح أيديها وتـدعو ؟ متى كبرياء الحياة يولد فيك ؟ متى الكلمات تسافر بيضاء من غير سوء وينقلها القلب للقلب ؟

أراكم جميعاً / تقولون / متى ؟ ومتى ؟ كيف ؟ لكن !

تعالوا إلى لحظة اعتراف ! ليخرج واحدٌ منا وليقف عـارياً وليقل كلَّ شيء .

فقت هذا الصباح / كان في داخلي نهارٌ يموج من الغبطة / عذراء تقول لعطشان : هذا ثديي / وأرضٌ تشير / تهتف للجائع / لكنني سرت / وكنتم قبوراً تمشي / يطاردها الرعب / قلت : هـذا زمني ويبقى زمني ولن أبكي .

عرباتي / أصواتي / وأغانيَّ / اندفعي
بيدي مفتاحٌ بإسمه الجرأة العجيبة
الأفق الطليق صدري / وأنتم قضيتي .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وتلقيت سيل الحجارة / وانساب نهرٌ حنون من الدم / قلت غداً ستكون الموانىء أنتم / أحبكم / وأسافر فيكم / وأنسى / نسيت ! عدنا تواجهنـا / وقفت على الحلبة أهذي / أصـابعي تشير إليَّ / مصابيــح في داخلي ! أطفـأتهـا عتمات السكون . لا الريح ! لا الصخب الهائج / لا النفي في أوَّل الأرض / أو آخر الأرض لكنه الصمت ؛ / لكنها عتمات السكون .

. . .

أنقذوني ؟ أكاد أسقط / حولي أشراككم وأنا الطفل / اتركوني أكاد أموت / في داخلي حنينٌ لعينيك / وعدٌ من النار / حمامٌ زاجلٌ

للأحباء / تفحّم يا وطني / لأنني / حين جاش بي الطين أحرقت أمواجه وهتفت / وعانقت أغنية الريح .

. . .

كان الماء يفيض / والأرض تطوى / كأوراق دفتر طفلٍ / وأشباه تدعى الرجال / رأيت لكلٍّ أنشوطةً / تمدُّ إلى الماء والثمر المتساقط جسراً هزيلاً / ولم أرَ رأساً واحداً / بعينٍ ترنو إلى الشمس صاح بي صائحٌ / تدحرج إلى بركة الأسونة .

. . .

يتلوى مطر الهجرة مذعوراً
تنـــام
سعف الضوء على أقواسه
وبيوت العري
تلوي وتنام
بعد أن عانيت صمت المقبرة
بعد أن عانيت قصف الدسكره
بعد أن طاف على حوش المزار
آفنٌ ! مسَّ دخان المبخره
هكذا ! تختار صمت الحجره
هكذا ! تختار نار المشحره

(١) المشحرة : هي مفارة النار في قريتنا يشتعل فيها الشجر الاخضر واليابس .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

النار والقدر

شعر: حسين جليل

١ — النار

« إلى بابلو نيرودا »

في خيمةِ الحزنِ الرماديه
من يعشق النـار الإلهيه
في حبهـا ،
يموتُ ،
لا يخـاف
أن يموتْ
لكنّ من يخونها ،
يقتلهُ الخوفُ
ولا يموت

٢ — القدر

« إلى غسان كنفاني »

« إلى غسان كنفاني »
لكي . . . . لا نخون القدرْ

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لكي . . . . لا نغني
لإلهـة الشر ،
في غابة الخوف ،
حزن البشرْ
سكبنـا ،
على صخرة الصمت ،
أصواتنـا ،
ووقفـا ،
على قمة الليـل ،
ننتظر القادمين . . . . من الغيب ،
في ساعة غاب فيها القمرْ ،
— طال انتظار الأحبـاء .
— قد يقدمون مع البرق .
— قد لا تراهم عيون يتامى الحروب .
— هل يولد الأنبياء . . . . في زمن الخوف ؟
— قد يولدون .
— وقد يُقتلون .
ولكننـا ،
يا أخي في العذاب ،
سـكبنا ،
على النـار ،
أسرارنا ،
وانتظرنا القدر .

بغداد

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

آفـــاق المعـــرفــة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

□ مـواقف

دفاع عن الادب الفلسطيني	رشاد ابو شاور
الرسم ، الموت ، الحياة ، الجغرافيا ، الفيزيولوجيا	حسيب كيـالي

□ رسـائل

لندن : غنائية التكليزية على أرض اندلسية	جون فليتشر
باريس : الادب العربي في مناهج الاستشراق الفرنسي	عـلي الخير
القاهرة : : فلسفة العلم قديماً وحديثاً	بـلال جيـوسي

□ مراجعات

« اللاز » لبنة في صرح الرواية الجزائرية المعاصرة	جاكلـين الزعيم
الادب اللبناني في اللغة الفرنسية	د. بكري علاء الدين
حـزن حتى المـوت	أديب عـزت

□ مناقشات

الفـارابي عـربي	فـريد جحـا
ملاحظات حول السريالية واسـسها الفكرية والجمالية	صـلاح فائق

□ آفـــاق

انهم يحرقون مكتباتنـا القديمـة	صفوان قـدسي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

مواقف

دفاع عن الأدب الفلسطيني

رشاد أبو شاور

عجز الكلمات وتناقضها

كتب الناقد الياس خوري ، في مجلة شؤون فلسطينية ، العدد الثالث عشر ، عن ادب غسان كنفاني ، بعد استشهاده ، تحت عنوان : البطل الفلسطيني في قصص غسان كنفاني ؛ الشخصيات الثلاث التي تتحر· داخل هذه القصة لا يمكن فهمها دون فهم البؤس اليومي الذي يعيشه سكان المخيمات. إنها شخصيات واقعية تريد الخلاص بسرعة.

ويواصل الناقد رأيه في رواية رجال في الشمس ، في نفس المقال : قصة كنفاني هذه تمثل قفزة نوعية على المستوى الفني . الشخصيات تتحرك بحريه . إنها من أجيال مختلفة ، وأمامها هدف داحد .

هذه القصة الرمزيـة تتحاشى جميع مشاكل وتعقيدات الأدب الرمزي ، رمزها واضح وجلي .

الشعب الفلسطيني يموت كل يوم دون أن يصرخ ، فعلى الأرض أن تصرخ الآن .

في العدد السادس والأربعين من مجلة شؤون فلسطينية ، كتب الياس خوري ، عن رواية رجال في الشمس التي (بجلها) كثيراً في مقالته السابقة : فالرواية كعمل فنـي ، تبدو مقررة سلفاً ، إذ يتدخل الكاتب بشكل قسري ليقود أبطاله الثلاثة إلى الخزان . ثم ينسحب تاركاً لمصيرهم المجاني صدى مرارات الذروة المجهضة . ويجلس على حافةالصحراء ويجعلها تردد : « لماذا لم يدقوا جدار الخزان » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

إذن فالناقد الياس خوري غير رأيه ، بل نقض رأيه السابق ، تماماً . في المقالة الاولى ، رأى أن الشخصيات (تتحرك) بحرية . وفي المقالة الثانية قرر أن الرواية كعمل فني ، تبدو مقررة سلفاً .

تبدو لمن ، ياترى ؟ للناقد ؟ ولكنه يغير رأيه ، إلى حد نسف ما قاله سابقاً ، فمن يدرينا - مادمت أنا على الأقل لاأتفق معه - أنه سيغير رأيه الجديد في مقالة مقبلة ؟

ثم أليس العمل الروائي ، أو القصصي ، أو أي عمل ادبي ، مقرراً ، إلى حد بعيد سلفاً ؟ ألا يرسم الكاتب الشخصيات ، ويرتب الأحداث ، وتوالي الفصول ، والحوار ؟ هل يطالب الكاتب (بالرواية العفوية ، التي لاتضبطها قيود ، أو خطة تأليف ؟

يقول الناقد : فنلهث وراء محاولة السائق العبور في الوقت المحدد ، ثم حين يفشل ، تستسلم أجساد الفلسطينيين إلى الموت ، وتستسلم الصحراء لصرخات المؤلف وهو يدعو إلى دق الجدار قبل الموت .

الذي صرخ في نهاية رواية رجال في الشمس هو أبو الخيزران ، بعد أن مات الفلسطينيون داخل الخزان ، فألقى أجسادهم على (مزبلة) قرب مدينة الكويت . لقد (شلحهم) أبو الخيزران نقودهم القليلة .. والساعة التي كان (أسعد) يمتلكها .

لماذا فقد أبو الخيزران (العنين) الذي فقد رجولته في حرب ١٩٤٨ ؟ الذي يعمل أجيراً عند الحاج ، التاجر ، المهرب ، الكويتي ؟ لقد صرخ ، من أجل تبرئة ضميره أمام نفسه ، على الأقل . انه يدينهم (هم) الضحايا ، ولايتحمل المسؤولية ، أي أنه سقط حتى النهاية ، ولن يتحول ، بعد هذه الفاجعة . ومع ذلك ، وهذه قوة السؤال ، وأهميته ، فإن السؤال موجه ، لكل الذين يدخلون (الخزانات) ، ويموتون بصمت . انه دعوة . والفن (القوي) هو الذي (يوحي) ويحرك العقل ، في أكثر من اتجاه ، ويجعله يواجه أكثر من احتمال واحد للسؤال ... والإجابة .

ان السؤال : لماذا لم تدقوا جدار الخزان ، هو سؤال أبو الخيزران ، وسؤال المؤلف ايضاً .

ترى ، هل كان أبو الخيزران يرحل بسيارته بعيداً عن جثث الفلسطينيين ، دون أن يتساءل ، دون أن يعاني ؟ دون أن يحمل مسؤولية ما (حدث) لهجة ما ؟

السؤال لم يأت فجأة . لقد صب أبو الخيزران لعناته على رأس (أبو باقر) ، الذي أخّره في الحدود بممازحاته التافهة ، بينما (هم) في جوف الخزان ، تحت شمس تصب حمماً .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

الحدود مسؤولة ، عما جرى ، وهـذا صحيح . وفي هذه الادانة لابي باقر ، ادانة للكيانات السياسية ، التي تدمر طاقـة الامة .

أبو الخيزران مسؤول ، وهذا صحيح ، فهو يعيش على الفتات ، ويحلم بخلاصة الفردي ، بعد أن ضحى برجولته من اجـل الوطن ، الذي ضاع :

الذين في جوف الخزان مسؤولون ، لانهم (صمتوا) ، ولـم يدقـوا ، . لانهـم لـم يحددوا الاتجاه الصحيح لرحيلهم . لقـد ضاعوا ، وفقدوا حياتهم ، فهم مدانون .

لقد عجزت كلمات الناقد الياس خوري ، عن الاحاطة بعالم رواية رجال في الشمس ، (المصممة) جيدا ، والعفوية ، ايضا ، والتي تطرح التساؤلات دون قسر ، أو افتعال .

انني اتساءل ، اي الرايـين الـذين طرحهما الناقد ، نصدق ؟

ثم اتساءل ، ايضا . هل (يخضع) القارىء لتقلبات مزاج الناقد ، وتحولاته ؟

ثم انني اتساءل ، هل (يقسر) الناقد ، العمل الادبي ، على مقاييس وأفكار نقديـة (يعتنقها) ، أم يجب عليه ، أن يتعامل مع (العمل) الادبي ، ويسهم في شرحـه ، واكتشافه ؟

● ● ●

(الفلسطينيـة) . هـل هي في مواجهة (العروبة) ؟

في عدد شؤون فلسطينية الثامن والاربعين كتب ابراهيم خليل ، في (مراجعتـه) للمجموعة القصصية : جسر على النهـر الحزين :

وبعبارة أوضح فان قارىء النمـاذج القصصية القصيرة والطويلة التي كتبهـا كتاب يعيشون في فلسطين المحتلة ، يدرك أنها أخذت تشكل تيارا فنيا لـه خصائصه المضمونية والتكنيكية التي تمنحه صفـة الامتياز والتميز عن غيره من تيارات القصة ، ولعلي استطيع الزعم بان المقارنة بين هـذه النمـاذج القصصيـة مع نمـاذج الكتـاب القصصيين في المنفى ، تضعها في موضـع خاص . فعندما نقرا لكاتب كغسان كنفاني أو كاتبة شهيرة كسميرة عزام ، أو اي كاتب آخر ، لوجدنا انهم كتاب عرب يتناولون في قصصهم ورواياتهم القضيـة الفلسطينيـة وشعبها ، بدرجات متفاوتة من الاخـلاص والمعاناة .

ولكن ما هي يا ترى السمات التي تشكل (تميزا) وامتيازا للصفة في الداخل .

يكتشف الاستاذ خليل ابراهيم ، انها :
تقف على رأس هذه السمات ـمضمونياـ الحس الطبقي .

على فكرة ـ يقف الحس الطبقي ،وليس تقف ، لأن (الحس) الطبقي مذكر ، وليس مؤنث .

ومن جهة ثانية فان ما يقارب بين قصص هذا التيار فهمها لقضية الاحتلال .

والسمة الثالثة : ـ مضمونا ـ هيحرص كتاب هذا التيار على استيعاب جوانب القضية تاريخيا ومكانيا .

لنقف عند السمات المضمونية ، التي اكتشفها الاستاذ خليل ابراهيم ، وحرم الكتاب الفلسطينيين خارج الارض المحتلة من (شرف) التعامل معها .

ترى آلا يوجد (حس) طبقي في قصص غسان كنفاني ، وقصص سميرة عزام ، ومحمود شقير ، والريماوي ، ويحيى يخلف، وابو الهيجاء ؟

ان بعض القصص التيكتبهاالفلسطينيون في (الخارج) كانت فقيرة فنيا ، وحارة مضمونيا .. ارجو ان يقرأ الاستاذ خليل رواية أم سعد .

ان الكتاب الذين عاشوا ، وما زالوا يعيشون في المخيمات ، يعانون من الاوضاع الاجتماعية المتردية ، و ... يحاولونالتعبير، مضمونيا ، عن اهوالها ، وقسوتها .

اما مسالة فهم قضيه الاحتلال ، فانا أعتقد ان الكتاب ، في الخارج يعرفون انهم (خارج) فلسطين ، بسبب وجود عدو صهيوني اغتصب وطنهم ، ايوجد شك في ذلك .

أرجو ان يقرأ الاستاذ خليل قصصسميرة عزام ، خاصة (خبز الفداء) ، والطريق الى برك سليمان ... وفلسطيني .. ورواية غسان كنفاني ، عائد الى حيفا .. ورواية السفينة ، لجبرا ابراهيم جبرا . وعشرات القصص والمسرحيات والروايات ، التي تكشف طبيعة الصراع مع العدو الصهيوني .

أما مسالة الحرص على استيعابجوانب القضية تاريخيا ومكانيا ، فانا لا أظن أن الاستاذ خليل أجرى فحصا للكتاب فيالداخل والخارج ، لان هذا الامر يقتضي منهالذهاب، الى حيفا ويافا .. وبقية مدن فلسطين المحتلة ، ووضع جدول أسئلة يمثله شخصيا لتحديد درجة الوعي .

أما كتاب الخارج فمنهم من استشهدلانه يفهم المسالة تاريخيا ، و ... مكانيا . ترى ما هو المقصود بفهم المسالة مكانيا ؟

هل هي الحدود الجغرافية لفلسطين، أم غير ذلك ؟

ARCHIVE http://Archivebetasakhrit.com

والآن ، فانه يحق لي ، بصفتي احد الذين يكتبون من خارج الارض المحتلة — أن أسأل : هل فلسطين غسان كنفاني ، وجبرا ابراهيم جبرا ، وسميرة عزام .. تتناقض مع عروبتهم ؟ وهل استطاع كتاب القصة والرواية — الرواية قليلة جدا في الارض المحتلة — ان يكتبوا قصصهم ، ويطوروا أدواتهم بمعزل عن الثقافة العربية ، وما حققته القصة القصيرة ، على أيدي (عمالقتها) في الوطن العربي ؟

واسال أيضا :

لقد (اخرج) توفيق فياض من الارض المحتلة ، وهو الآن يكتب قصصه في الخارج ، فهل سيفقد الامتيازات المضمونية ، الطبقية ، التاريخية ، المكانية ؟

ترى هل الجغرافيا ، تجعل الكاتب متطور الادوات ، وتحرم غيره منها ؟

يبدو أن الاستاذ خليل ابراهيم لم يقرأ قصص توفيق فياض ، وزكي درويش ، ومحمد علي طه ، واميل حبيبي .. وغيرهم. كما يجب . اذ لو قرأهم بانتباه ، لما جمعهم معا ، ضمن اطار أدبي كما يجب . اذ لو قرأهم بانتباه ، لما جمعهم ، معا ، ضمن اطار أدبي واحد . ان قصص زكي درويش التعبيرية ، الموغلة احيانا في الغموض ، تختلف عن قصص توفيق فياض الواضحة ، البسيطة .

لقد حاول اكثر من كاتب وصحفي وناقد أن (يفرقوا) بين الشعر داخل الارض المحتلة وخارجها ، وأن يجعلوا من شعر الداخل ، الشعر المقاوم .. ويحرموا شعراء الخارج من هذا الشرف .

ألم يكن (كمال ناصر) شاعر مقاومة ؟ الم يستشهد من اجل فلسطين ، المكان ، والتاريخ ، والمستقبل .

ألم يحدث هذا الامر ، من قبل ، للكاتب غسان كنفاني ؟

أيها السادة ، النقاد ، وغير النقاد ، نرجوكم بحرارة .. أدباء فلسطين ، هم امتداد ، للثقافة العربية ، هم جزء منها .. والفلسطينيون ، في أي مكان ، يتكاملون ، ولا يتناقضون ، ويبقى الابداع (مسألة) فردية .. فكل كاتب يحقق ، بقدر ما لديه من موهبة ، وارادة ، وقدرة على التطور ..

الجغرافيا ليست موهبة ، ولا قيمة فنية ، لأنها قد تكون نتيجة مصادفة .

● ● ●

أين الرواد ؟

في حوار أجرته جريدة الدستور الاردنية ، مع القاص الفلسطيني محمود الريماوي ، قال : ان غسان كنفاني هو كلاسيك الادب الفلسطيني ، وان كاتبا واحدا لا يستطيع ان يسد الفراغ الذي تركه . نحن بحاجة (لحركة) أدبية كاملة لتسد الفراغ الذي تركه .

هذا ما قاله الصديق الريماوي (فالكلاسيكية) التي يتحدث عنها محمود ، هل هي العودة الى الاصول ، أم يا ترى انها التأسيس .

في كلتا الحالتين ، كان في فلسطين كتاب قصة قصيرة ، جاهدوا ، وكافحوا ، وأسسوا في ظروف صعبة ، بل تكاد تكون قاتلة لنشوء القصة . من هؤلاء ، المرحوم محمود سيف الدين الايراني ، الذي أسس مجلة (الفجر) المختصة بنشر القصة القصيرة ، وهي أول مجلة تختص بنشر القصة القصيرة في الوطن العربي ، وان كانت المجلة قد ماتت مع العدد التاسع ، عام ١٩٣٤ ، اذا كان الاخ محمود يقصد أن (غسان) ارسى ملامح القصة المتطورة ، فانه بهذا ، ينتقص من دور جبرا ابراهيم جبرا ، وهو دور ريادي . لقد كتب الاستاذ جبرا روايتيه ، صراخ في ليل طويل ، وصيادون في شارع ضيق ، في مطلع الخمسينات ، بالاضافة طبعا الى مجموعته القصصية الهامة : عرق .

أما سميرة عزام ، فقد وصفها غسان ، في رثائه لها عام ١٩٦٧ : كانت معلمتي ، فلا أظن أن احدا من الكتاب الفلسطينيين يقلل من دورها الريادي ، في كتابة القصة المتطورة فنيا ، والملتزمة بالقضية الفلسطينية .

انني لا أقلل ، هنا ، من الدور الريادي الهام للكاتب (غسان كنفاني) . ولكني ، أيضا ، أرى ضرورة الحفاظ على اسهامات، واضافات كتاب فلسطين الكبار ، امثال جبرا ابراهيم وسميرة عزام ، وغيرهم .

أما اننا بحاجة (لحركة) أدبية لتسد الفراغ الذي تركه غسان كنفاني ، فلا أظن انه لصالح الشهيد غسان .

غسان كنفاني لم يكن (سدا) في وجه القصة القصيرة ، أو الرواية الفلسطينية ، ولن يكون ، لأن (الطاقة) الابداعية للشعب العربي الفلسطيني ، قادرة على أن تضيف مزيدا من الروائيين والقصاصين .

ان دراسة (منجزات) غسان ، وتقييم أعماله الروائية والفنية ، هو افضل تكريم له . أما اطلاق الاحكام العاطفية ، فسيكون ضارا بنتاج غسان ، وبالحركة الادبية الفلسطينية ، لانه يقلل من شان هذه الحركة .

● ● ●

ARCHIVE
http://archivebeta.Sakhrit.com

الرسم ، الموت ، الحياة ، الجغرافيا ، الفيزيولوجيا

حسيب كيالي

ما العمل ؟

نصحوني أن اكف عن ذكر الاسماءعندما اتصدى لزاحلة . قالوا ان هذا ينال من وقاري وانا في هذه السن . ولما كنت حريصا على وقاري فقد انتصحت . والحقيقة ان الاوان آن لكي افعل ، بما نالني من نظرات السخط والصفن من كل من جرى ذكر اسمه على قلمي . وكنت دائما افاجا بذلكالتقبل الغاضب لما اكتب ، وأتساءل عن السبب . أهو في كون البنى الادبية والفنية عندنا هشة متهافتة ، آيلة الى السقوط في غالبيتها العظمى ، هجينة تغرب عيون اصحابها على مثال مثل لهم في خارج وطنهم وخارج ذواتهم جميعا ؟

الشهر الماضي أذيعت لي تمثيلية من محطة اذاعتنا أداعب فيها الفنانينالتشكيليين التمثيلية اوحتها الي حادثة جرت لي لماكنت اعمل في الصحافة اليومية ، الصفحات الأدبية : بضعةأصحاب أولعنا بتسلققاسيون في الخريف ، رغبة في النحافة باديء الامر ، وافتتانا بلوحات الغروب لانهائية التغير في آفاق دمشق ، ناهيك بمنظر المدينة الحالم من قبة السيار ، في تلك الساعات الملتبسة، حين يتوغل الليل الافق الشرقي ،بيناالغربي حرائق صامتة ومراوح أشعة ، وقزعات الغيم ترسم حينا اباهول وآخر ماذن معلقة أو حبيبين معتنقين او دجاجة وصيصانها...

ذات مساء كانتاللوحات فريسكا عبقريا يوقف القلب على شعرة حنانا واعجابا وسبحا في المدى ، واذا نحن باحدنا يهتف :

— أين رسامونا ؟

هذه الحقيقة أرخت من توترنا المنهك فضحكنا . قلت جذلا :

— رسامونا ليسوا فاضين . انهم يلهثون وراء الفوفية والتكعيبيةوالدادائيةوالانطباعية

والتعبيرية .. حتى ضيعوا رأس الشموط في الصناعة كلها . وجاءهم التجريد فلم يبق في العلبة ولا مسمار من فرحهم بانه خلصهم من التنكر . التجريد اتاح لهم مهما يخربشوا ان لانجرؤ على أن نقول لهم نشا الثلاثة كم ، ولا حتى ماأحلى الكحل في اعينكم الله يسلمكم للـ...تجريد !

لما كان الليل هرعت الى الصحيفة التي اعمل فيها و « نقشت » مقالا من كعب الدست أروي فيه ماجرى على السنتنا من حوار في هذا الموضوع .

قامت القيامة . كيف أمس قدس الاقداس ؟ كيف اقول راي الخالق ... ويتصدى لي احد الفنانين التشكيليين ويتهمني بالجهل والفجاجة ، واني لم اسمع ببراك او ماتيس او بيكاسو، وأن الخيرلي أن أعض لساني وألوذ بالصمت معطيا للخباز خبزه ولو أكله كله . وختم الأخ ، الفنان التشكيلي ، هجومه علي بكلمة نسبها لغويا قال فيها (الفنان وليس غويا كما ستعلم) : « الفنان ليس فوتوغرافا »

لم يرعبني هجومه ولكن ماأرعبني هو تقويله غويا ، الذي لم يعش ليرى التصوير الفوتوغرافي ، مالم يقله . ولما قلت له اني رجعت الى الانسيكلوبيديا وعرفت أن غويا بريء من دم الفوتوغراف ، ضرب يده في زناري وقال متوسلا :

ــ كرمى للرسول خلها بيننا .

وظل يتوحوح حتى اقسمت له ولكني مع ذلك قلت له :

ــ الآن ، وقد وعدتك هل تصارحني اذا سألتك سؤالا ؟

ــ اي بالله وحياة اولادي .

ــ قل لي قبل أن أطرح السؤال الرئيسي . اين درست الرسم ؟

ــ في الخارج

ــ كم سنة ؟

ــ ست سنوات

ــ طيب ، هل تستطيع أن ترسمني فاخرج من تحت يديك الخالق الناطق أنا ؟

فكر طويلا وهو يتأملني ، قال أخيرا .

ــ لا .

ــ لماذا ؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

ــ وجهك صعب .

ــ صعب ؟ !

ــ مافيه مايميزه . لاأنفك طويل ولاذقنك عريضة ولا أذناك كبيرتان ولا ...

ــ يكفي . رح الله يسامحك .

نعود الآن ، اذا سمحت ، الى التمثيلية الاذاعية . هذه أذيعت ذات صباح ، في التاسعة . في التاسعة وخمس وعشرين دقيقة رن جرس الهاتف عندي . قلت : « نعم ؟ » من الطرف الآخر من الخط تناهى الي صوت رجل غاضب ، ليس غاضبا وحسب . كان يغلي غليانا . سألني عما كنت انا فلانا كاتب التمثيلية التي أذيعت قبل عشر دقائق قلت: « أجل » طفقت الكلمات تتدافع ، تتقاتل،

تشتجر على الخروج من فمه . افهمني انه ، قبل أن يتلفن الي ، حاول أن يشكوني ،على التوالي ، الى وزير الاعلام ، المدير العام لهيئة الاذاعة والتلفزيون ، مدير الاذاعة ، مدير البرامج ... ولكنه لم يظفربواحد منهم فجاء الي يحاسبني الحساب العسير . لم اغضب قلت له في لطف :

ـ اذن انت تستعدي على السلطة !

كان عاصفابلكان يستشعر القهروالعجز في قرارة نفسه مثل مؤمن متعصب انتهكت مقدساته . حاولت ان اخفف عنه . مازحته. افهمته اني لست بفشيم كما نبزني ولكن لي رايا اقنع اذا لم اقله على طريقتي الخاصة .

وهذا بعض الشيء ولكن ماروعني ان حقبة أوحقبتين تفصل جيلي عن جيله وحسب، ولكن بيننا بعدا فضائيا ، كونيا . اوردت له بعض المعارف التي احسبها بديهية لمن كان يحترف التشكيل مثله ، واذا هو لم يسمع بها. ابديت له رأي في ان الفن ، اي فن ، اذا لم يخرج ولهاب الحياة يتضوع منه فهو سواد على بياض ... واذارأيي البسيط الميسور، ينزلق على اذنيه من غير ان يتسرب الى اذنه أو قلبه .

ما العمل ؟

الموت ، الحياة ، الجغرافيا ، الفزيولوجيا

رسام آخر لم يهاجمني انا ولكنه هاجم القراء حين نشر في احدى الصحف مقابلة جرت بينه وبين « شاعر ومفكر وكاتب » يقول عنه احمد سويدان في العدد ٣٩٨٨ من جريدة « الثورة » ما يلي :

« هذا الغموض في اكثر عباراته ، لماذا؟!»

المقابلة طرفة كوميدية تضحكك ولو كانت هموم الدنيا كلها جاثمة على قلبك . تصور : في احد المجالس تكاثرنا على قراءة نص المقابلة التي تحكي عن صخرة لها خصلة شعر ، وفيزيولوجيا أجريت لها عملية جراحية فانقلبت الى انتروبولوجيا وغربال اتخذ درعاً ، ودرعا صنع منها احمر شفاه ، ورجل له ثلاثة اديان ، وامرأة تعشق صرصارا وكاتب تحرير اتخذوا من جلوده حطباً ، وحطب صار كاتبا ، ورسام يحب القماط حتى اذا رسم ميتا لفه بقماط ...

دخنا ، الله الوكيل ،نحن الذين تقرأ في تذكرة هويتهم كلمة « متعلم » ، فكيف بالآلاف المؤلفة من الناس الذين لايميزون الخمسة من الطمسة ! لمن يكتب هؤلاء ؟ بمن يهزؤون ؟ على لحية من يضحكون ؟

قل هذه مسالة اخرى . المجلس الذي قرانا فيه نص تلك المقابلة ـ الاعجوبة داخ كما قلت لك . اكثر من هذا ،بعد تهانف ضاحك انداح بين حين وآخر ، ركبنا الجمود خمدنا. خيم علينا اسى كانه الشلل : المثل هذا يشقى العمال ثماني ساعات في الاقبية المظلمة ، والهواء العكر ، يعايشون سم الرصاص ونهر الاضواء الاصطناعية ؟ !

انفجر احدهم باكياً .

خفت أنا من خطر العدوى فلم أجد قدامي غير الهزل أروح به على هؤلاءالصحب. استنبطت طريقة لاضحاكهم . اقترحت :

ــ ماقولكم أن نقرأ الاسطر من الشمال الى اليمين ؟ ولم امهلهم حتى يعلنوا موافقتهم بدأت فورا :

ــ شعر خصلة لها صخرة عن ... ابو العلاء انتربولوجيا الى فانقلبت جراحية عملية لها أجريت فيزيولوجيا و ... ضحك واحد ضحكا مظلما ، رسم آخر مايشبه ابتسامة قاتمة و ... مرة واحدة عدنا الى « علم الله أجركم » ! من يعزيهم ؟ من يعزينا؟

التعرفة !

في لجنة البرامج التي تخطط لدورات الاذاعة « وضعوا » لنا كاتبا . قالوا انه فلتة ، ناجح ، وكانت احدى الاذاعات العربية تتهافت على « بنات أفكاره » ، وتشتريها فلفلا وقرنفلا . فلماذا لا نتعاون معه ؟ رحبنا بالفكرة تدأبنا . قال قائلنا : « ها هي ذي ابواب الاذاعة مفتوحة على المصاريع لكل صاحب موهبة كما نعلم جميعا، فليفتح الموهوبون هم أيضا ، مواهبهم على مصاريعها » . قال الذي وصفه لنا : «ولكن هذا تعرفته غالية . انه لا يقبل بأية حال أن يعامل مثلما يعامل من يتعامل معكم . انتم تعلمون : كل شيء يحرز ثمنه . والغالي هو الرخيص ! » .

وقلت في نفسي ضاحكا ، بوصفي عضوا في اللجنة : « هذي ما فيها شي : شرط في الحقلة ، ولا خناقة على البيدر ! » ولكني قلت في نفسي أيضا ، غير ضاحك هذه المرة : « كل شيء يرد فيه الاخذ والعطاء ، المساومة المفاصلة ، امساك اللحى ، راعنا نحن زباينك ، والله راعيناك ... الا الادب . الاديب في الاصل بيدر كرم على درب . لا يهمه الا ان يعطي . وأما العوض فينبغي له أن يأتي في المحل الثاني . من يضعه في المحل الاول فليس بأديب . قد يكون حرفيا، صاحب حانوت ، صاحب كراجة ، متعيشا، بياع أواع عتيقة ولكنه ــ أدبيا ــ متعوب حتى اللهات ! » .

وذهبت بي الذاكرة الى يوم كنت فيه هاربا من غرفتي في الاذاعة الى غرفة أحد كان بين يدي نص تمثيلي علي أن أنجز قراءته في سرعة . وبينما أنا مستغرق في القراءة دخل على الغرفة واحد من عهد المسرح والادب في قطر عربي شقيق . قال لي وعلى وجهه بسمة تجارية تراها على سحنات التجار الكاسدين :

ــ تسمح سيادتك أني استعمل التلفون؟

قلت حفيا :

ARCHIVE
archivebeta.Sakhrit.com

ـ تفضل . أهلا وسهلا . حلت علينا البركات .

كان من الهم في حيث لم يلمح حفاوتي . وبدا يتصل بالكبار من أهل المسرح والجاه ما كان أخفض صوته . كاد يذوب .

تركت ما بين يدي من نصوص ، وان تظاهرت بالانصراف عنه ، ورحت استرق السمع : تكلم أخونا ساعة وبعض الساعة من غير ان يخرج كلامه عن التعرفة والدفع والقبض والمكافأة و « البون » والفئة آ و .. « الا يوجد في التعرفة (التعرفة دائما !) سعر خاص للفطاحل والموهوبين ؟ لم يحك كلمة واحدة في الفن ، في الادب ...

وبينما هو غريق ذلك اللوبان التملي فتح الباب ودخلت زوجه . وهي أيضا من أهل الفن . كان وجهها ممتقعا ، مخربطا ، مقلوبا على قفاه ، فيه كل أحزان الدنيا . لم تعن حتى بالسلام علي . من أنا ؟! قال لها زوجها :

ـ ما بك ؟

قالت في لهجة هامدة ، جنائزية !

ـ ما فيه فايدة . ما قبلوا باي شكل رفع التعرفة الى أكثر من مئتين وخمسين ..

وشكا لها مر الشكوى من نتائج تلفوناته . وشكت له أمر الشكوى من نتائج اتصالاتها. وبكى ، وبكت . انتحب وانتحبت . نشج ونشجت . أعول وأعولت . لطم ولطمت .. ولما كنت بكاء خلقة ورقيق القلب أيضا فقد رفعت عيني عن أوراقي نهائيا ورحت ابكي وانتحب والطم قدهما وأكثر !

بعد تلك المناحة التي تفرط لها المرارة سافرت الى الخليج العربي . واذا أنا أرى العجب العجاب : عاد الزوج الباكي الى ما يسّر له . عاد تاجرا ، صاحب شركة انتاج نصوص ، وكذلك زوجه . رأيتهما هناك بام عيني .

ولكن يجب أن أعترف ـ انصافا لهما ـ انهما لم يقتصرا هنالك على التجارة الحاف وحدها . لقد ادخلا عليها ، عافاهما الله ، عنصرا دراميا هو ... البكاء !

صدر حديثا
عن وزارة الثقافة والارشاد القومي
سياسة المنتجات الاساسية والطاقة
في
هيئة الأمم المتحدة
(الدورة الاستثنائية السادسة)
د . عبد المنعم زنابيلي

http://Archivebeta.Sakhrit.com

رسالة لندن

غنائية انكليزية على أرض أندلسية

جون فلتشر *

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ولد (لوري لي) في (غلوسيسترشاير) بجنوب غرب انكلترا عام ١٩١٤ ، وظهرت له كتب عديدة منها :

« أرض في حالة حرب » ، و « رحلة ماجلان » ، و « وردة الشتاء » ، و « شراب التفاح في صحبة روزي » وهو الكتاب الذي اشتهر أكثر من سواه وبيع منه ما يقارب المليون نسخة . أما (لوري لي) الشاعر ، فقد نشر ثلاثة دواوين شعرية . وقد ظهرت آخر اعماله في عام (١٩٦٩) تحت عنوان :

« فيما خرجت في منتصف يوم صائف » بعد مرور ما ينوف على ثلاثين عاما على رحلته الاولى التي قام بها عبر اسبانيا ، سيرا على الاقدام وهو ما يزال شابا . وقد استقبل الكتاب بالكثير من المديح الذي تناول بشكل خاص غنائيته وثراءه اللغوي . ومع ذلك فالكتاب لا يقتصر على روحه الذاتية المتالقة وتصويره الحساس للاحظات الشاعر خلال طوافه باسبانيا ، وانما هو يقدم استبصارا لمجتمع وطريقته في الحياة ظلت قرونا عديدة دون أن يطرأ عليها أي تغيير ، الى أن اجتاحتها اخيرا حرب أهلية دامية . وعندما زار

---

* جون فلتشر John Fletcher كاتب ومترجم بريطاني متخصص بالادب العربي وقد كتب هذه الرسالة للمعرفة خصيصا .

(لوري لي) جنوب اسبانيا في فترة الثلاثينات فقد كان بوسعه على حد قوله : « أن يشتري الشاطئ كله مقابل شلن واحد . الاباطرة انفسهم غير قادرين على شراء الشاطئ الآن » .

« فيما خرجت في منتصف يوم صائف » هو قصة أول مرة ينفصل فيها الشاعر عن أسرته في جنوب غرب انكلترا الزراعي عام (١٩٣٤) والاثنا عشر شهراً التي قضاها يطوف في اسبانيا قبيل اندلاع الحرب الاهلية في عام (١٩٣٦) .

يغادر المؤلف المنزل وحيداً في صباح يوم صاف من أيام حزيران ، عمره لا يتجاوز التاسعة عشرة ، ويحمل خيمة صغيرة وقطعاً محدودة من الملابس وكمنجة يأمل ان يكسب بواسطتها ما يسد به الرمق . ويخلف وراءه أسرة فقيرة ومتماسكة ولكنها ليست معوزة ، وعملاً مسئماً ولكنه غير معرض للهزات في قلب انكلترا الزراعية . وخلال تجواله سيراً على الاقدام عبر الحقول في أول يوم من أيام شعوره بالحرية كشاب ، يحاول السيطرة على الشعور الحاد بالحرية والذي يأخذ بخناقه شيئاً فشيئاً ويهدد بان يدمره . لم تعد هناك من قيود أو واجبات . لم يعد هناك ضجيج منزلي وأوقات محددة لتناول الطعام . ليس ثمة من شيء غير الصمت الذي يوسوس له قائلاً : « اذهب حيثما تريد . كل شيء طوع بنانك . لقد سعيت لذلك . أنت بمفردك الآن ولن يوقفك أحد » . يشعر باغراء العودة الى البيت ولكنه واقع تحت سيطرة فكرة الاحساس بالضيق والمهانة فيما لو فعل ذلك .

وتبدأ ليلته الاولى في الهواء الطلق مفعمة بالصفاء على نحو يذكر بيومه الاول على الطريق . فثمة « النجوم المضيئة » وثمة « الفراغ الخفي للعالم والجداول العشبية الطرية » . ومع ذلك فان الرؤيا الرومانتيكية لا تلبث أن تعكرها الامطار بعد منتصف الليل بقليل اذ تظلم النجوم وتبدأ الابقار تتحرك في الحقل الذي اختاره للنوم . يزحف الى حفرة يمضي فيها ليلة بائسة الى أن يبزغ الفجر . وعندما يجد أنه قد اكتسب الثقة بالنفس والتجربة يذهب الى (ساوثامبتون) حيث يرى البحر لاول مرة ويبذل أول محاولة من محاولاته لكسب المال عن طريق العزف على الكمنجة . ويصف المؤلف وصفاً متألقاً ، بدء الوعي بالذات ، والشعور بالتوتر ، فيما هو يسير لمدة ساعة باحثاً عن مكان مناسب للعزف : « وكأنني موشك على ارتكاب جريمة » . ويستل الكمنجة من تحت

معطفه « كمسدس » والمعزوفات الاولى التي يعزفها تتصاعد « عالية ونيئة أشبه باحتجاج أجش » .

ولقد أثار دهشته انه لم يقبض عليه أو يرغم على الذهاب . وسرعان ما يجد أكثر من اثني عشر بنسا في القبعة الموضوعة أمامه . ومع ازدياد ثقته بنفسه يتعلم حيل الصنعة بسرعة فائقة . لا تملأ القبعة بالنقود فان ذلك يثبط عزيمة المتبرعين . لا تترك القبعة خاوية فان المتبرع لن يجد المكان الذي يضع فيه نقوده . اجمع النقود دائما بين عزف وعزف آخر ولكن ابق بضع بنسات في القبعة . المعزوفات البطيئة هي الافضل باعتبار انها تشجع المارة على التلكؤ في السير . المعزوفات السريعة تحثهم على المضي بسرعة .

يغادر العازف (ساوثامبتون) متجها الى لندن ليجد نفسه في صحبة العاطلين عن العمل والذين يذرعون انكلترا بلا هدف خلال الفترة التي اعقبت الازمة الاقتصادية الكبرى لعام (١٩٣٠) : « أشبه شيء بجيش مهزوم يبتعد عن حرب ، عظام وجهه غائرة ، وعيونه محتقرة من الاعياء » . وبالقرب من لندن تبدو له الفروق الاجتماعية لفترة الثلاثينات واضحة جلية مع تعاقب مرور سيارات (الرولز رويس) و (الديملر) المليئة بالنخبة الثرية فيما هي تتوجه الى ميدان سباق الخيل في (اسكوت) . ويمضي عاما كاملا في لندن وهو يعمل كعامل بناء زهيد الاجر قبل أن يقرر الرحيل الى اسبانيا في صيف عام (١٩٣٥) في وقت كانت فيه أوروبا مفتوحة على مصراعيها : « مكانا الحدود فيه عابرة ، والاسئلة قليلة ، والمسافرون لا وجود لهم تقريبا » .

ويصل الى شمال غرب اسبانيا ، لا يتحدث الاسبانية ولا يملك سوى شلنات معدودات في جيبه ، ويشرع في رحلة ستوصله الى قلب اسبانيا .. الى الشاطئ الجنوبي . ولدى وصوله الى ميناء (فيغو) يشعر مرة أخرى بشعور المسافر المؤقت بعدم الرغبة في ترك رغد المركب الذي جاء به من انكلترا وأوصله الى شاطئ أرض غريبة . ويصف هـذا الشعور فيما بعد بقوله : « قلق الوصول ليلا الى مدينة مجهولة ... ذلك الرعب الخفي الذي يبدو لصيقا بمكان ما الى أن يجد المرء سريرا لنفسه » .

وفي رحلته البطيئة باتجاه الجنوب ، عبر بلد الوليد ، ومدريد ، وقرطبة ، واشبيلية ، يصف المؤلف وصفا غنائيا ، اسبانيا التي لم تمسسها تكنولوجيا القرن

العشرين . انها بلد الأضداد . ثمة قبسات من وجوه النساء الاسبانيات الجميلات اللواتي يقطن في منازل طينية خربة ، والصباحات الطازجة والرطبة وساعات ما بعد الظهيرة التي تسيل حرا لاغبا ، والاطفال المهندمين والارامل بمسوحهن السوداء المهلهلة ، والفلاحين الكرماء والحرس القومي المفعم بروح العداء ، والشوارع « السوداء برهبانها » ، والحانات المليئة بالفوضويين الثائرين . الفقر والجهل والمرض مغلف بالكبرياء الاسبانية والخيال والجود . الالوان النهارية الزاهية للمسيرات الدينية ، مقابل الهواء الليلي الحار والخانق في الاسرة الرخيصة والمليئة بالقمل والحشرات . الكنيسة الكاثوليكية مسيطرة في كل مكان . وحتى المومس تصلب على صدرها قبل أن تعود الى زبونها .

ثمة أيضا ومضات من السخرية والفكاهة ، كوصف المؤلف لرجل من (قادش) يمضي لياليه على أسطحة المنازل وهو يعوي كأنه شبح من الاشباح ، لكي يلقي الرعب في قلب مالك بيته ويجعله يخفض من اجرة البيت . وهناك لحظات من الانحطاط الخلقي ، حيث يقوم صاحب المنزل الذي يقطنه المؤلف بمحاولة اغتصاب ابنته . وفوق هذا وذاك هناك المقاطع الغنائية الوصفية التي لا تعد . فالفلاحون في الحصاد : « مغمورون بالقمح ، المناجل تتألق كالاسماك بقبسات ايقاعية من الزرقة والفضة » . وهناك وصف أسراب الحداة والنسر : « تنعطف ببطء فوق الراس ، مربعة الاجنحة كالمراوح الكهربائية » ، واللقالق « جاثمة على المداخن تحدق بحزن عبر الوادي ، أشبه شيء بعرب نحلاء » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ويقدم المؤلف انطباعاته الاولى عن « مدريد » قائلا :

« انزلقت متغلغلا في دواخلها وكأنني أجوس أشداق أسد . وكانت رائحتها تشبه رائحة الأسد أيضا : زنخة مبهرة بالبهار وممزوجة برائحة القش وعصارات اللحم » .
ويلاحظ المرأة الاسبانية عن كثب :

« كانت تمثل الجاذبية الجنسية المقموعة لعذراوات مقهورات السلوك » . وهذه الصورة يقابلها ب :

« العيون الكسلى والملتهبة » و « الجسد الفلفلي » للمومس . ولدى انتقاله الى الجنوب ، باتجاه اشبيلية ، يجابه الحضارة الاسلامية ، القرى ذات الاسماء المغربية و « الفتيات ذوات الوجوه العربية المحجوبة » . وفي أشبيلية يدرك المؤلف ادراكا حادا ، القوى

الداكنة فيما هي تتجمع في سماء البلاد ، فقد وجه بحار اسباني شاب النصيحة اليه بقوله : « أنا لا أعرف من أنت . ولكن اذا ما أردت أن ترى الدم وأن تنظر هنا وهناك فلا بد أن ترى الكثير » . يتحرك الى الشاطئ عند « طريفه » ، ويتنقل صوب الشرق على طول « الرحم الازرق الهادئ » للمتوسط ، عبر القرى التي يكشف سكانها عن « الدم العربي الحاد الذي لم يستطع الفتح الكاثوليكي أن يبدده » . ومع ذلك فالتوتر في البلاد يتصاعد وعلامات الحرب الاهلية القادمة في ازدياد . وعندما يصل الى قشتالة ، يحدث استقطاب في الوضع السياسي باسبانيا مع فوز الاشتراكيين في انتخابات شباط (١٩٣٦) . قشتالة تنقسم على نفسها فيما يشرع الفلاحون والصيادون في الثورة على ملاكي الاراضي وملاكي الفنادق . ولا يجلب الربيع سوى المزيد من الدلائل الرمزية على الدم المهراق كما يصفه المؤلف بقوله :

« اللطخة المديدة الحمراء » من مياه الثلوج المسفوحة من جبال سييرا الحمراء التربة وهي تتدفق الى المتوسط . ثمة الآن بنادق ومدافع في القرية وحوادث اغتيال متفرقة من قبل اليمين ومن قبل اليسار ، ومظاهرات وقلاقل . وفجأة ظهرت الكتب والافلام « غير ممسوسة من قبل الكنيسة أو الدولة ، جالبة الى فلاحي الشاطئ ، للمرة الاولى منذ أجيال ، عبيرا حادا من العالم الخارجي » . ثمة حرية جديدة في العلاقات بين الجنسين : « انحسار قصير الامد في المحرمات .. انفجار مفاجئ وحاسر ومهووس للشهوة يتناسل من شعور بالخطر المنذر » .

تقصف القرية خطأ من قبل طراد . تحوم طائرة فوق الرؤوس بهمهمات تجسسية ، « تاركة السماء الزرقاء الصافية مشوبة بالغيوم المنذرة على وجوه مقلوبة . وقد شعر العديدون حتى تلك اللحظة ، بان قريتهم آمنة ومنسية ، والآن استطاعت عين الحرب اكتشافهم » . يجتاح الفلاحون الاشتراكيون القرية ، ومعهم أحلامهم في بناء رياض الاطفال والمستشفيات ومدارس التدريب ، والتخلص من الفقر والعوز . وقد كانوا يأملون بان تنقشع « الظلمة غير المحتملة » التي كانوا يعيشونها وان « زوجاتهم سيتحررن من الخزعبلات والشعور بالاثم والاعتراف ، وان أبناءهم سيصبحون عمالا مهرة وليس عبيدا ، وان بناتهم مواطنات ولسن عاهرات بيتيات » . وسرعان ما تشكل ميليشيا محلية من

رجال « عظام وجناتهم عالية وعيونهم مؤسية ، وخدودهم غائرة ، جنود غويا وقد عادوا أحياء مرة أخرى » .

وتزداد الحالة سوءا على سوء فينشب القتال ويتفاقم اتساعا . وبعد عام مضى على وصوله الى اسبانيا الى ميناء (فيغو) يتم اخلاء الكاتب من الشاطىء الشمالي من قبل مدمرة بريطانية ارسلت خصيصا من جبل طارق تحت سمع وبصر طائرة المانية « تتحرك بفضول على طول الشاطىء » . وبصمت كانت الدول الاوربية تتجمع لتتحرك الى « اسبانيا متخلفة ومنسية » .

★

بعد مغادرة (لوري لي) لاسبانيا بشهور في عام (١٩٣٦) ، عاد اليها ثانية واسهم في الحرب الاهلية ثم زار اسبانيا مجددا بعد مضي (١٥) سنة وامضى ثلاثة اشهر يجوب آفاق الاندلس ، وهي تجربته التي يصفها في كتابه : « وردة للشتاء » .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

* * *

يصدر حديثا
عن وزارة الثقافة والارشاد القومي
عصر التحليل
فلاسفة القرن العشرين
تاليف
مورتون وايت
ترجمة
اديب يوسف شيش

رسالة باريس

الأدب العربي
في مناهج الاستشراق الفرنسي

علي الخير   عبد الرحمن أيوب

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

يقوم اندريه ميكيل المستشرق الفرنسي ، واستاذ الادب العربي في « السوربون » ، بزيارة سورية خلال شهر ايار المقبل . ويذكر ان ميكيل قد عين مؤخراً في « الكوليج دو فرانس » . وقد قام باجراء هذا الحوار معه بتكليف من « المعرفة » كل من علي الخير وعبد الرحمن أيوب اللذين يدرسان عليه في باريس .

« المعرفة »

يشغل رئاسة القسم العربي للدراسات في اللغات والحضارات الشرقية وشمال افريقيا في جامعة السوربون الجديدة .

له تسعة مؤلفات مطبوعة وثلاثة قيد الطبع منها : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم (ترجمة ومقدمة وتعليقات) ـ كليلة ودمنة (ترجمة وتعليقات) ـ الجغرافيا البشرية العالم الاسلامي حتى القرن الحادي عشر ميلادي ـ الاسلام وحضارته من القرن السابع وحتى القرن العشرين (نقل الى الالمانية والبرتغالية والايطالية) ـ الادب العربي في سلسلة (ماذا أعرف) ومما لديه قيد التحضير والطبع : كتاب تاريخ الادب العربي (صدر منه حتى الآن ثلاثة مجلدات.

من تاليف بلاشير ويقوم الاستاذ ميكيل على اكمال التاليف والنشر بعد وفاة الاستاذ بلاشير) ـ قصة الف ليلة وليلة بعنوان غريب وعجيب ـ وله من الروايات وجبة العشاء ـ لاقان ـ الابن المنقطع وهي من روائع الادب الانساني (ترجمت الى الايطالية والالمانية) اما مقالاته العلمية فتزيد على ثلاثين مقالا تنصب في غالبيتها حول اللغة والحضارة العربية ، تقاسمت نشرها المجلات العلمية المعنية بشؤون الاستشراق وحضارة الشرق . ومن أبرزها ـ القدس العربية ـ

ابواب حلب في كتاب المقدسي ـ تقنية الرواية لدى نجيب محفوظ ـ الرواية العربية المعاصرة ـ عندما عربي يحاكم لورنس ـ من لبنان ـ العالم العربي من خلال ذاته ـ تشكل وانماء الكوادر في المجتمعات النامية ـ المصطلح العربي للقرابة ـ الشعر العربي بين الامس واليوم ـ وصف المغرب في جغرافية الاصطخري ـ الصحراء في الشعر العربي الجاهلي (معلقة لبيد) ـ من اجل تجديد في دراسة العربية بفرنسا ـ الميراث والتركات في كتاب الافصاح لابن هبيرة ـ وغير ذلك الكثير مما نشر في الموسوعة الاسلامية ـ الموسوعة العالمية وموسوعة لاروس .

س : لقد عرفتم جيدا في الاوساط الجامعية بوطننا العربي ، من خلال مؤلفاتكم ومقالاتكم عن الحضارة والادب العربي ، الا أنكم خلاف الكثير من المستشرقين العاكفين هم أيضا على دراسة هذين الحقلين اخترتم منهجا في الدراسة لا يزال قليل الانتشار في بلادنا ، الا وهو المذهب البنيوي . فلمَ هذا الاختيار ؟ وما هي حسب رايكم درجة اسهامه في وعي الثقافة العربية والتعرف بها في مظاهرها المتعددة ؟

ج ـ في الحقيقة انني افضل ان اقول انني أنتمي « للمذهب الجامعي » وساوضح ذلك : ان الطريقة التقليدية للجامعة الفرنسية تنبني على النص ، وهي عمليا ترى أن الدراسة يجب أن تتناول النص والنص وحده كموضوع لها . ولا اعني من ذلك ان الدراسات المماثلة الاخرى ، مثلا ، تلك المتعلقة بحياة المؤلف ، بالظروف الاجتماعية والاقتصادية لانتاج المؤلف ليست بذات اهمية ، بل هذه العناصر كلها من « سيرة وتاريخ وعلم اجتماع » يجب ان تكون محيطة بالنص ، وعلى هذا فابتداء من النص علينا ان نؤسس الطريقة .

ثم قلتم « بنيوية» سابين اولا انني بنيوي بحدود اقل من الاخرين ، ولا أظنني منتسبا الى المدرسة البنيوية كما تشتهر وتلتمع في أيامنا هذه من خلال الاسماء التي تعرفونها ، والتي هي من جهة أخرى تشمل سلسلة من التحليلات والطرائق غالبا ما هي شديدة الاختلاف الواحدة عن الاخرى ، لكن الذي يبدو لي أساسيا ، هو أن كل هذه المدرسة البنيوية بالمعنى العريض للتسمية ، انما تبنى في يومنا هذا على « النص » .. فما الذي أعنيه بكلمة نص ؟

أعني به المادة الخام التي استلمناها ، كما هي ، الخبر الذي أعطيناه ... ومن

الجلي أنه بدءا من اللحظة التي يطبع فيها النص يفلت من كاتبه ويغدو ملكا جماعيا ، ونحن فيما نحن عليه ، لنا ملء الحق وعلينا كامل الواجب في أن نطبق عليه التحليلات التي نخال أنها الاكثر موضوعية وانسجاما . اذ النص ليس فقط ما أراد الكاتب ان يكتبه (أسود على أبيض) ، ما أراد أن يوصله لنا ، بل هو ايضا كل ما وصلنا رغما عنه ، وبعبارة أخرى ان النص هو أدب الوعي وأدب اللاوعي في الوقت ذاته ، وكي أتكلم عن البنيوية أقول : انني اخالها جديرة بان فرضت (كمسلمة) أن عملية الخلق الادبية لا واعية بمقدار ما هي واعية . يضاف الى ذلك انها من حيث المحصلة تحترم مفهوم (عبقرية) الابداع لدى المؤلف أكثر بكثير من عديد من المدارس التي سبقتها .

وعلى هذا ، فان من الواضح وجود محذور ، هذا المحذور يكمن في الانغلاق ضمن حدود الشكلية . بالتاكيد ، دراسة نص حسب المذهب البنيوي تؤسس قبل كل شيء على دراسة الشكل ، بمعنى أنها تنادي بعدم الفصل كيفيا بين الشكل والمضمون ، فليس في طرف ما قاله الكاتب وفي الطرف الآخر الشكل الذي صيغ فيه هذا القول .

إنه لمن الجلي أن الكاتب لا يمكنه ان يقول شيئا ما الا بصيغة معينة ، وعلى هذا فان دراسة النص يجب ان تقودنا الى فهم هذه « الصلة الحميمة » بين المضمون الذي قيل وبين الاسلوب الذي قيل فيه .

الآن ، وقد تكلمت عن المحذور ، فما الذي اريد قوله من وراء ذلك ؟ أريد أن أقول ان كل دراسة نص يجب أن تبدأ بتحليل الشكل الذي هو « الكلمات ـ وزن الشعر ـ اللفظ ـ الصرف ـ النحو (تركيب الجملة) وباختصار كل هذه المادة التي تؤلف اللغة » الا أن كل هذا « الشكل » ليس غاية في حد ذاته ، في الواقع ! ان غاية الشكل هي الايصال (الخبر) . انه وسيلة المؤلف ليوصل الينا ما لديه ليقوله ، مرة أخرى اؤكد أن ذلك (التوصيل) يكون في صيغة ما . والمحذور ، هو في الانغلاق مثلا ضمن احصائيات الضمائر الشخصية في نص ما ، وهذا واحد من الامثلة ، من الطبيعي ان يوجد الكثير غيره .

واقع الحال ، ان على دراسة الشكل أن لا تنسى أبدا انها تهدف في النهاية ان تظهر لنا ليس فقط كيف تم صنع النص ، بل أيضا لماذا صنع النص ، وفي اعتقادي ان الدراسة الشكلية في مفهومها الواسع ولنسمها هكذا بدلا من الدراسة البنيوية ـ تحمل للفكرة شرحها وترجمتها ، تحمل لها طريقتها التي قيلت فيها ، كيف تقولبت ، كيف تكونت لتصل ، ... انها تحمل اشياء كثيرة ربما ما كانت طرق التحليل السابقة لتحملها .

* * *

س : كنتم دائما في محاضراتكم بالسوربون وفي حلقات البحث العلمي تحبون أن ترددوا وصف تراث العرب الادبي بانه وافر وغني ، أتعتقدون ، أن هذه الطريقة تسمح بقراءة جديدة للثقافة العربية بدءا من هذا التراث ؟ .

ج ـ لنميز اذا شئتم بين الخاص والعام، انني اعتقد أن لدى كل نص قابلية لهذا النوع من التحليل ، وافضل برهان على ذلك ما لدينا في فرنسا في وقتنا الحاضر ، اذ أن سلسلة من الجامعيين تدرس ليس فقط النصوص التي نسميها كلاسيكية من نثر وشعر في الادب ، بل أيضا الرواية والخطاب السياسي ، والصور المتحركة ... الخ . باختصار كل ما يمكنكم تخيله في مقال شفهي أو مكتوب .

وعلى هذا فالذي قلته منذ هنيهة يستدعي بشكل طبيعي أن الادب العربي بالمعنى العريض للعبارة ، هو أيضا طوع هذه التحاليل ، ويبدو لي انه هو بشكل خاص أكثر طواعية لذلك ، فما الذي اعنيه من ذلك ؟ سأتناول مثالا خاصا ، ذلك الذي للشعراء العرب الكلاسيكيين في العصر العباسي ، وليكن اذا شئتم ابا تمام فهو رجل نعرف عنه ان البحث المعجمي ، البحث عن الالفاظ ، قد لعب دورا أساسيا لديه .

ونحن امام شعر من هذا النوع يمكننا تبني أحد موقفين : اما أن نصرح بان الشعر ليس البحث النحوي ، ليس البحث عن الالفاظ . أو أن نقول عكس ذلك ، وغني عن القول انني اتبنى هذا الموقف ، وان كل الشعر انما هو بحث عن الالفاظ ، فلا حدود بين اللغة والشعر لان الشعر هو اللغة .

وكيما أترك قليلا المجال العربي أقول لو اننا قرنا كيفيا ان الشعر ليس بحثا عن الالفاظ ، فاننا سنعزل عن الادب الفرنسي شخصا مثل مالارميه Mallarmé الذي كانت كل ابحاثه الشعرية قائمة على البحث عن الكلمات ، وعن الارتباطات الخشنة بين الكلمات .

وعلى هذا النحو ، فانني أعتقد ان أبا تمام عندما يفتش في سياق شعري خاص جدا ، وليكن القصيدة التي هو في طريق كتابتها ، عن كلمة يعتقد انها اكثر ملاءمة له من غيرها ، فانني ارى انه في البحث الشعري له ملء الحق ان يقوم في الوقت نفسه بالبحث اللغوي .

ومن الطبيعي انني وأنا اتكلم عن أبي تمام لا أعني به الا شاهدا بين العديد من الشواهد ، لانه كما قلت منذ لحظة يبدو لي ان الادب العربي بشكل خاص جدير بهذا النوع من التحليل ، ولاننا نعلم انه منذ الجاهلية ، والبحث في الشكل يؤلف أحد المكونات الاساسية لهذا الشعر ولهذا الادب.

بعد كل ذلك ، لناخذ مثالا السجع ، وهذا أول مثال يلوح لي في الذاكرة .

في مقامات الهمذاني وفي مقامات الحريري اكثر ، يلعب السجع دورا اساسيا . هنا أيضا ، يمكن ان نبني موقفا تقليديا يتألف من القول : « ان البحث « المتكلف » واسمحوا لي بهذا التعبير ، لايفيد في شيء » كما أن بامكاننا طرح السؤال : لم قام الهمذاني او الحريري بهذا السعي وراء السجع ، وما هي الكلمات التي اختارها والتي عمل من خلالها هذا السجع ، وما هو دور هذه الكلمات في الداخل من نصه ؟

الذا ، لو شئتم ، فلكي ألخص ما قلته حول هذا السؤال . انني اعتقد ، بوجه عام ، أن هذا النوع من الدراسة مؤسس لكل نوع من الادب شفهي أو مكتوب وانه يشكل خاص يلائم الادب العربي تبعا للاهمية التي أولاها فحول الكتاب العرب للبحث في الشكل.

: إن محاضراتكم تجمع غالبية عظمى من الطلبة العرب الـذين يحضرون دكتوراه الحلقة الثالثة او دكتوراه الدولة ، فهل بسبب من هـاجس منهجي أم لسبب آخر أنكم تحاولون تنظيم هذه الحلقات حول دراسة عدد من مظاهر هذه الثقافة على ضـوء الاتجاهات المختلفة لهذه الطريقة ؟

ج ـ تحدثونني بصفة خاصـة عـن حلقاتي في البحث وتقولون عنها انها تجمع غالبية عظمى من الطلبة العرب ، وانتم ، في الحقيقة ، بذلك تثيرون مشكلة عامة جدا ، تلك التي للبحث الجامعي ، أننا في الوضع الذي نحن عليه ، للاسف ، قليلو العدد كثيرا . في الحين الذي لدينا في حلقة البحث الجامعي اتباع في غاية التنوع ، تنوع في الاصول الوطنيـة هناك العـرب وهنـاك الفرنسيون ، وتنوع في الاهتمام المنهجي ، معذرة ، فهناك تنوع في حقول البحث . أريد أن اقول ان باحثا ما يهتم بفقه اللغة بينما آخر يهتم باللسانيات وثالث بالادب القديم ورابع بالادب الحديث وخامس بالسينمـا وعلاقاتها بالادب ... الخ أخيرا التنوع الثالث ذلك الذي يتعلق باصطفاءات الباحث المنهجية التي يختار .

هناك من الناس من يريد العمل على منوال قديم ، فيحضر اطروحة عن حيـاة المؤلف واعماله . الدراسة الوحيدة الموضوع الكلاسيكية التي تمثل الاطروحة الجامعيـة التقليدية . هناك آخرون يريـدون العمـل حسب مناهج وطرق ماركسية تقليديـة هي الاخرى ، أو على العكس صححت واعيـد النظر فيها على ضوء نظريـة ل. غولدمان و كوخ . مثلا ، وأخيرا هناك غيرهم ايضـا من يرغب في العمـل من خـلال المنـاهج البنيوية .

لهـذا فانني أقول أن القاعـدة الذهبية « للـبريرة الجامعية » هي أن نترك هؤلاء الناس يعملون كما يشاؤون ، بطريقتهم التي يختارونها ، آخذين بعين الاعتبار أنه لا يمكن أن نقوم بأعمال جيدة عندما تفرض المنـاهج علينـا ، والقاعدة الذهبية الثانيـة والتي هي ناتجة عن الاولى ، أن علينـا ، وهـذا طبيعي ، أن لا نقوم بادب اسميه « ادب الصالون » ولست هنـا لأترأس أطروحـات تكون قوام محاضرة في قاعـة « بليال » او أي منتدى جماهيري آخر ، فنحن هنا لنقوم بأعمال علمية ، والقاعدة الوحيدة التي نفرضها ـ كما يرى ذلك كل الجامعيين الفرنسيين ـ على الباحثين الذين يعملون تحت اشرافي هو أن يلتزموا في نهاية الامر بالنص وتبقى بعـد ذلك المنهجية التي يتبعونهـا قليلة الاهمية ، فانا أطلب منهم أن يكون النص والنص وحده الوحي الوحيد لخواطرهم .

والذي اطلبه من الدارس في دراسته التاريخية والاجتماعية هو أن يقوم بها من خلال النص،

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

وبوجه آخر ، ان لا يحدثني ، مثلا ، عن اسبانيا الاسلامية فقط من خلال ما تمكن من قراءته ، أو من نسج خياله او تخميناته بل ان يحدثني عنها من خلال ماراه في النصوص المعاصرة التي تتحدث عن هذا المجتمع . وإذاً فلي سبيل أن الخص القول اخيرا : حرية مطلقة في الاختيار المنهجي انما طلب صارم باقتضاء الاعتماد على النص أيا ما كانت الطريقة المختارة .

س : انتم ، في الموضع الذي تعرفون من خلاله ان الجامعيين العرب يطورون باستمرار أبحاثهم العلمية المتعلقة بالمظاهر المتنوعة للثقافة العربية ، اتعتقدون والحالة هذه انه يجب أن تركز الجهود على الميادين القديمة أم الحديثة ؟

ج : بالحقيقة ، كلاهما ، الميدان القديم والميدان الحديث معنيان بتركيز الجهود لانهما شرط لازم ، فمن جهة فان دارساً ـ في وقتنا الحاضر ـ للأدب العربي في ميدانه القديم لا يريد أن يقطع لتاملاته امتداداتها الحالية والذي أعنيه من ذلك أننا نعرف ان العالم العربي في يومنا الحاضر له تاملات حول نفسه غير منفصلة عن تاملاته ليس عن حاضره ومستقبله فحسب بل ايضا عن تاملاته لماضيه ، ونحن نعلم باي ثقل تلقي (بالتعبير الانسب للكلمة) هذه التاملات حول الماضي ، حول المجد ، حول مساهمة الحضارة العربية في بناء الحضارات العالمية. نحن نعلم أيضا أي وزن تزنه هذه الخواطر تجاه الخواطر المعاصرة . وعمليا فان كل الحضارات على هذا النحو . إذ لا يمكنكم اليوم ان تقطعوا مثقفا فرنسياً ـ حتى ولو صرح لكم بعدم اهتمامه بعصر لويس الرابع عشر ـ لا يمكن ان تقطعوه عن هذا الارث ، لانه (اي هذا الارث) شاء أم أبى يشكل جزءاً من ثقافته ولو باللغة التي هي مع بعض التقريب في الاشياء ذات اللغة المتكلم بها في عصر لويس الرابع عشر ، وعلى العكس فانني لا اعتقد ان باحثا ينكب على الميدان الحديث يمكنه ان يتجرد كلية عن ماضيه . لا اعتقد مثلا أن باحثا يعنى بالرواية العربية المعاصرة يمكنه ان يقطع تفكيره عن تامل لغة هذه الرواية وعن المشاكل التي تنطرح فيما يخص العلاقة بين اللغة الحديثة لهذه الرواية واللغةالقديمة من العصورالوسطى، وهذا بطبيعة الحالمثال ويوجد غيره الكثير .

انما هنا أيضا يوجد محذور ، هذا المحذور هو في أن نرغب جاهدين في الخلط بين النوعين فنقول ان الادب العربي المعاصر هو الادب العربي القديم ، وحتى لا أبقى ضمن حدود العموميات فانني ساعطي مثالا بسيطا : لقد جرى ان جاءني عدد من الباحثين يعرضون علي مواضيع لاطروحاتهم حول الرواية في الادب العربي منذ البداية . انني اجد مداهنة في موضوع كهذا . ذلك لأن الرواية صنف أدبي يتحدد علمياً بتاريخ ، بمجتمع ، وباختصار بشروطالخلق لصنف أدبي .

نحن نعلم ان الرواية في الغرب ، وعلى الاقل في الادب الفرنسيولدتفي القرن السابع عشر ، على وجه التقريب ، وليس لانه وجد في القرن السادس عشر مؤلف نثري أظنه

بدعى « Leroman de Rose » تقول عنه انه الرواية . أبدا ، إذ يجب ان نعلم مانعني بحديثنا .

وإذا ما قيل لي انه يوجد في الادب العربي القديم عناصر روائية ، أبطال روائيون ، فانني أقول لهذا نعم . إنما الا يتكلم عن رواية في الادب العربي قبل القرن التاسع عشر . وانني ألح فاعيد مرة أخرى القول انني اعتقد ان دراسة حول الرواية العربية المعاصرة لا تنقطع عن بعض تاملات اكثر عمومية حول اللغة والادب العربي القديم ، إلا أنني لا اعتقد ان الرواية العربية المعاصرة تملك اصلا في الرواية العربية الخيالية في الادب القديم . (أعني الرواية بالمعنى الروائي) . وهذا يعني باختصار : انني اعتقد وجوب وجود دراسات وأبحاث عن الميدانين القديم والحديث كما أعتقد وجوب وجود تاملات في كل ميدان نحو الآخر على أن لا يؤدي ذلك الى اللبس بينهما .

* * *

س : أتعتقدون أن اللغة العربية لغة حية ، قادرة على تمثل طرق البحث المستوردة من الغرب . وأيضا قادرة على أن تخلق بنفسها المصطلحات التي من شأنها ان تجعل الثقافة العربية على مستوى الابداعية الابتكارية ؟

ج : أ ــ ميكيل : انني أعتقد فعلا ان اللغة العربية لغة حية ، ولا أحيلكم في هذه النقطة إلا الى ما جدّ في الاشهر القليلة الماضية من اعتماد اللغة العربية لغة عمل عالمي في المحافل الدولية كمنظمة الامم المتحدة ، ومنظمة اليونسكو ، اذا التطبيق نفسه قدم الجواب .

إلا انكم في الحقيقة تطرحون سؤالين أحدهما يتعلق بالعبقرية ، « الفطرة » والثاني يتعلق بالمصطلحات . أما فيما يتعلق بالعبقرية فاعتقد اننا ، هنا أيضا ، نستطيع العودة للتاريخ : فالعرب في تاريخهم القديم كانوا قادرين في حينه على أن يكونوا مبتكرين ولا ارى ما يمنع اليوم من ان يكونوا كما كانوا عليه . وبدقة أكثر فالامر هنا لا يتعلق بالابداع حسب المنهاج القديم ، بل الذي يبدو لي أن على العرب اليوم أن يكونوا في عالمهم الحاضر ومتطلباته على مستوى ابداع عرب القرون الوسطى في عالمهم الذي كان يخصهم وضمن الظروف التي كانوا يخضعون لها . وهنا أيضا ارى انه يجب عدم الخلط في الأمور ، فاما أن نكون مبتكرين انطلاقا من بعض المعطيات التي وصل اليها غيرنا ، او ان نكون مبتكرين انطلاقا من معطيات وصلنا اليها بانفسنا ، وهنا أحيلكم ، اذا شئتم ، الى محاولة ليفي ــ شتراوس : يمكننا ان نقول اليوم ان فكر شتراوس فكر ابداعي رائع ، غير ان فكره هذا قد انضاف هو نفسه الى كل ما وصل اليه علم الاناسة (الانتروبولوجيا) الامريكي من معطيات في عقد السنين العشرة الاخيرة ، وهنا أيضا لا اعتقد انه يجب ان نضاعف بلا طائل العقد والمشاكل وان نتساءل كيف يمكننا ان نكون مبدعين انطلاقا من اللاشيء ؟ وما كنا ابدا مبدعين انطلاقا من اللاشيء انني اعتقد ان « الابداعية » في أي حضارة من الحضارات

ما كانت البتة ابداعية مطلقة ، ومن حيث النتيجة فانه لا توجد حضارة مبدعة الا بمقدار ما تكون الحضارات الاخرى المحيطة بها مبدعة هي ايضا . اما فيما يتعلق بالمشكلة الأدق وهي المصطلحات فهنا ايضا أعتقد أن من الاولى التمييز بين المستويات .

هناك كلمة ترمز الى اشياء جديدة تماما، وهناك كلمات ترمز الى تعابير جديدة عن تصورات مجردة موجودة منذ القديم ، وهنا يبدو لي أن العربي في هذا الصدد لديه وسائل جمة لصنع هذه المصطلحات ، كما أن هناك الوسائل النابعة من لغته نفسها ، اما الطرق فهي متنوعة جدا ، هناك امكانية استخراج كلمة من قديم اللغة غلفها النسيان لنعطيها مدلولا حديثا ، هناك امكانية الاشتقاق، يضاف الى ذلك كله امكانية النسج اللغوي (المحاكاة) .

اريد ان أقول من ذلك : انني اعلم انكم انتم العرب خاصة ، حساسون جدا وفي اغلب الاحيان معارضون لاقحام الفاظ أجنبية في لغتكم ، هنا أيضا يجب ان لا تظنوا ان هذه المعارضة وتلك العقدة تنحصر بكم فمن حيث النتيجة ان كل اللغات هي أيضا كذلك .

وهاكم رد فعل ايتامبل Etiemble دليلا .

انني أتفق مع ايتامبل فانا اعتقد ان جزءا كبيراً من الالفاظ الانكليزية التي حقنت في اللغة الفرنسية كان يمكن ان تستبدل بالفاظ أخرى فرنسية . انما أيضا اعترف ان بعض الكلمات التي لانها خلقت في حضارة اخرى ، في لغة اخرى غير لغتي ، لا يمكن ان نجد لها مرادفا بالفرنسية حتما ، والحالة هذه ، أن نمر عبر هذه الالفاظ الاجنبية ، بطبيعة الحال تبقى هذه الحالات نادرة بقدر ما نتمكن .

هنا انا أطرح مانسميه في علم اللسانيات بالنسج اللغوي ، ترى أتستطيعون أنتم أن تتجاوزوا هذه العقبة أم لا ؟ على اية حال هذه قضية تعنيكم ، وان كنت لا ادري اذا كان باستطاعتكم تجاوزها او لا .

ويجب علي هنا ان اقول انه اذا تعذر عليكم وانتم امام فكرة حديثة ، ان تجدوا في اللغة العربية كلمة قادرة على اعادة الفكرة، فان ذلك لايستدعي التعقد .

لأن هذه الكلمة ، المصطلح (الاعجمية) ـ ستغدو وفي الاطار الذي ستندمج فيه ، في داخل اللغة ـ كلمة عربية كبقية الكلمات العربية .

وبهذا أجمل السؤال الموجه عبر هذه المصطلحات المتخصصة ، المصطلحات المبتكرة، أكانت أجنبية ام لا ، القضية المطروحة هي قدرة اللغة العربية على التكامل ضمن الاطار العالمي .

* * *

س : تسافرون بين الفينة والاخرى لبعض دول الوطن العربي حيث تلقون محاضرات علمية : لكن ذلك في اغلب الاحيان يكون في نطاق الاوساط الجامعية الضيقة .

الا تظنون أن تطوير التبادل بين الجامعيين غربيين وشرقيين قد يمكن

من فتح آفاق جديدة على مستوى البحث اللذين يتعلق هنا وهناك بالثقافة العربية قديمها وحديثها وبعملية الاتصال بين شعوب الغرب وبالأخص الشعب الفرنسي من جهة والشعب العربي من جهة أخرى ؟

ج : انني أرى أن الاولى التمييز بين الحالات . أعتقد أن حضارتين ــ وهما في حالتنا هذه ــ الفرنسية والعربية تتجاوران عن طريق علمائهما فقط لا يمكنهما تطوير حوارهما . اذ على أهمية هذا الحوار فانه لا يشمل كل الامكانيات المتاحة .. طبيعي أن حوار العلماء يمكن ان يكون الخطوة الاولى في تطوير العلاقات ، لكن على هاتين الحضارتين أن لا تحصرا صلاتهما بهذا النمط من العلاقات والذي اريد قوله هو أن هذه الصلات يجب أن تفتح آفاقا جديدة على قضايا اكثر اتساعا . ومن حسن الحظ أن تكون لدينا ــ في أيامنا هذه ــ دلائل كثيرة على أن هذه العلاقات في طريق التعدد ، يحضر الى الذهن مثلا ، وسأكون موجزاً بهذا الصدد ، العلاقات الاقتصادية بعد قضية البترول ، وبتعميم أكثر مشكلة الطاقة . هذا اختبار ، وباعتقادي أنه امتحان جيد ، واختبار ناجح لتطوير هذه المبادلات رغم المصاعب التي يسببها لهؤلاء واولئك في الوقت الحاضر .

وهنا بالطبع ، يجب وفي الداخل من كل من الحضارتين العربية والفرنسية ، أن تتطور عمليات التبادل بين العلماء فتشمل أكبر قاعدة ممكنة من الجماهير .

قلت ان من الواجب عدم الخلط (بين الحالات) والذي سأورده يكمن مني في الصميم : لو حاولت أن أحدد دوري أنا في حياتي العملية لوجدت أنه بصفة رئيسية داخل مجتمعي ــ المجتمع الفرنسي ــ فليس من دوري أن اعلم اللغة العربية للناطقين بها وبالتحديد ذاته ليس من دوري أن أعلمهم مناهج البحث ، التي اظن انهم اذا قدموا الى فرنسا يمكنهم تعلمها بانفسهم ، فانا هنا ، بصفتي الجامعية ، لأمدهم عند الاقتضاء بنصائحي وتجربتي ، ومرة أخرى أردد ، لست هنا لأعلمهم شيئاً آخر ، انا هنا لأرشدهم ، وهذا أمر مغاير ، وأخيرا فان دوري الاساسي ليس ازاء العرب ، اذ عليهم ان يتعلموا بانفسهم ، بل ان دوري في فرنسا ، ازاء الطلبة الفرنسيين ، وازاء الشعب الفرنسي .

أولا : ان دوري ، كعالم ، يتمثل ، وهنا أزن كلماتي ، في تلقين اللغة العربية للفرنسيين وبعد أن يحذقوها ، أعلمهم تطبيق مناهج البحث المختلفة على السياق العربي الذي يدرسونه .

ثانيا : ان دوري يتمثل ، بمقدار ما يسمح به وقتي ، في ايصال نتاج العلم والاستشراق الى أوسع محيط . ولقد حاولت ذلك عن طريق جهاز التلفزة . كما قمت به من خلال مقالات بسطت ليتناولها الجميع ، وأرى من الواجب التنويه أنني قمت بذلك ضمن انتاجي العلمي الخاص ، اذ أنني أعتقد أن من واجب العلماء التخلي باطراد عن أسلوب متميز بهم خاصة ، ولا أعني بذلك

على الاطلاق التنكر لأسلوب العلم ، وانما اعتقد الأوجب محاولة وضع العلم متساوقا مع أسلوب يفهمه أكبر عدد ممكن من الناس.

ربما يقال لي انني احاول في كتابتي صناعة الادب ، واجيب بكل صراحة أنني عندما اشاء ان اكتب الادب فانني اضع ذلك بشكل مواز ، فانا ايضا كاتب اديب وأصر على التصريح بذلك . على أنني لا احاول ان أصنع الادب عبر انتاجي العلمي بل أحاول وضع هذا الانتاج في متناول أناس ليسوا عربا ولا ناطقين بالعربية لا ولا مستشرقين ممن يهتمون مثلا بحقل المقارنة ، فالكتب التي انا بصدد كتابتها حول الجغرافيين العرب من جهة وحول الف ليلة وليلة من جهة أخرى لا أكتبها للعرب وحدهم او للمستشرقين بل اكتبها لزملائي من غير المستشرقين وأبعد من ذلك الى القاعدة الجماهيرية الاكثر اتساعا .

إذا وحتى ننهي الاجابة عن هذا السؤال وهذا الحوار بصفة عامة أقول : إن للعالم دوراً عظيما ، لكنه عظيم بمقدار ما يحاول عدم الانعزال داخل محيطه .

ختاما : ان القاعدة الذهبية التي تعرض لنا في هذه الحقبة هي ان نقطع انعزال العالم. صحيح ان هذه القاعدة تعرض علينا كثير من الصعوبات في مجال البحث ، سيما وأننا نشعر غالبا بتشتت افكارنا تجاه ذلك ومع ذلك فهذا فداء تداول المعلومات ، لمن اقتسامها بين أكبر عدد ممكن من البشر .

اما فيما يخص عملية التبادل ، من السؤال ، فانني اقول انه ، بطبيعة الحال ، من الضروري تطويرها بين الجامعيين الفرنسيين والجامعيين العرب ، لكن ، وانحدث هنا كجامعي فرنسي ، لا يجب أن نبقي عليها وحيدة الاتجاه ، اذ لا يمكن القول انه في الظروف الراهنة كثيرا ما يذهب الجامعيون الفرنسيون للبلدان العربية ، وهو اكثر بكثير مما يأتي الجامعيون العرب لفرنسا .

ولقد قلت انني اتحدث كجامعي فرنسي لانني عنيت بقولي انني اتمنى أن تعطى الجامعة الفرنسية الوسائل المناسبة لاستقبال اكبر عدد ممكن من الجامعيين العرب كأساتذة مشاركين مثلا .

وليت الجامعيون العرب الى هنا لاكمال صرح معارفهم ، أو لتقديم تدريس معين وهذا افضل ، وسابعد أكثر ، سيكون الافضل لو يأتي الجامعيون العرب لتقديم تدريس اللغة العربية موجه بشكل خاص للطلبة الجامعيين الفرنسيين .

باريس

★ ★ ★

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

رسالة القاهرة

فلسفة العلم قديمًا وحديثًا

بلال جيوسي

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

حيثما كان هناك علم ، كانت هناك فلسفته أيضا . ولما كانت صورة العلم ـ وليس نتائجه وحسب ـ تتغير عصرا بعد عصر ؛ فلا بد للفلسفة أن تتغير معه ـ أيضا ـ عصرا بعد عصر .

هكذا افتتح الدكتور « زكي نجيب محمود » محاضرته التي القاها في الثاني عشر من شباط ١٩٧٦ في الاتحاد العلمي المصري بالقاهرة تحت عنوان بن « فلسفة العلم قديما وحديثا » .

ويعتقد الدكتور « زكي نجيب محمود » أن لكل عصر علمي محور أساسي قد يتمثل في رجل أو كتاب في معظم الاحيان . هذا الرجل وكتابه يفرضان على عصر باسره مايكون العلم ، ما قضاياه ؛ وما منهجه .

ومن هنا « شهدنا ثلاثة مناهج علمية سايرت ثلاث مراحل في تاريخ العلوم . الاولى كان الرجل فيها « ارسطو » ، والثانية « نيوتن » والثالثة « اينشتاين » .

١ ـ ارسطو :

وكتابه الذي فرض نفسه نحو عشرين قرنا من الزمن : « الطبيعة » . وفي عصره ، وامتداد عصره ، فرض المنهج والمضمون العلمي ، وأين تكون مواضع البحث العلمي . كانت الفلسفة في حد ذاتها ـ عند ارسطو ـ فلسفة علم . كانت فلسفة الطبيعة هي فلسفة العلم . فالعالم والفيلسوف اتحدا في شخص واحد . واهم المعالم في النظرة الارسطية هي تمييزه بين معنيين للطبيعة :

Nature، وPhysics . والمعنى الثاني Physics

يطلق على الاشياء ؛ على الكائنات التي ستصبح موضوعا للبحث . ولكن المعنى الاول Nature يطلق على ما جعل الشيء هو ما هو . فما الذي جعل الانسان - على سبيل المثال - انسانا ؟ طبيعة الانسان . وعلى هذا المعنى من الطبيعة ينصب علم الطبيعة، وهو علم بالجانب الثابت من الاشياء والكائنات ؛ هذا الجانب الثابت هو الذي يحدد النوع . فالنوع مثل الختم: ثابت ولكننا نطبع به اسمارات كثيرة . هذا الشكل Form هو الوظيفة . لقد كان ارسطو بيولوجيا من الطراز الاول ، وكان عقله عقل عالم بيولوجي ، فلما اراد استخراج طبيعة الاشياء استخرج وظائفها . عام الطبيعة - اذن - هو الكشف عن الصورة ، وادراك الوظائف لا يأتي عن طريق الملاحظة ؛ ولكن بالحدس والبصيرة ؛ أي بطرق عقلية ، لهذا كان المنهج العلمي عقليا عرفا (القياس) . فالمنطق الارسطي هو منطق القياس .

لقد نظر « ارسطو » الى الطبيعة نظرة كيفية ، والعلم عنده يعتمد على الادراك العقلي . والجانب الهام من الاشياء هو الطبائع وليس المقادير .

٢ - نيوتن :

اختلفت الصورة عند نيوتن . كان ارسطو مهتما بالجوهر وليس بمظاهره . ولكن اللوحة الجديدة اختلفت . والظواهر احتلت المكان الاول . ولم يكن أرسطو معنيا بالعلاقات قدر عنايته بالطبائع ؛ فانتقل الاهتمام عند نيوتن الى العلاقات ، كما انتقل التركيز من الكيف الى الكم .

كانت الطبيعة عند ارسطو - فيما يقول الدكتور زكي نجيب محمود تتحرك تلقائيا من الداخل ، ولكن عند نيوتن اصبحت حركة الاشياء تأتي من عوامل خارجة عنها . هنا نشأت فكرة « التصور الذاتي » الهامة ، وقد خلقت نوعية العلم الجديد . فما دمت قد استلبت القدرة من الشيء وتركتها خارجية فان الشيء اصبح بلا حول ولاقوة؛ ويصبح علينا - اذن - ان ندرس كيف يؤثر كذا في كذا ، ونصوغ معادلة تقيس بالمقدار مدى التأثير الخارجي .

كان السؤال عند ارسطو : ما طبيعة الشيء ؟ واصبح عند نيوتن : كيف تعمل العوامل الخارجية في الشيء ؟ وهذا ما خلق الفكرة الآلية .

كان نيوتن يدعي أن قوانين الطبيعة مطلقة . ولكن من أين جاء هذا الاطلاق ؟ هنا نجد أن فلسفة العلم اخذت تنسخ عن العلم لتصبح امتدادا له . فقد راحت فلسفة العلم في ذلك العصر تبحث كيف دارت ماكينة العقل لتستخرج هذه القوانين العلمية .

ومن هنا نشأت « نظرية المعرفة » التي تبحث في العلاقة بين الـذات العارفـة والموضوع المعروف .

٣ ـ اينشتاين :

جاء القرن التاسع عشر بظاهرة غريبة: انسلاخ بين العلماء والفلاسفة . فكأن هؤلاء مجموعتان لا شأن للواحدة منهما بالاخرى ، بل أصبح هناك احتقار متبادل بينهما . يقول الفلاسفة ان العلماء ضيقو الافـق ، وينعي العلماء على الفلسـفة تأمليتهم . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلا اذ سرعـان ما التقينا مرة أخرى وأصبحنا نسمع بفلاسفة الرياضيات . على سبيل المثال :

ما هي مميزات العلم في هذا العصر ؟

أولا ، في منهج البحث : اذ لو اردنا فهم أي عصر لكان علينا أن نعرف منهج العلماء . ومنهج عصرنا هو التكنولوجيا . ولكن ماذا تعني هذه الكلمة ؟ انها مؤلفة من شقين : « تكني » أي أداة ، ولكن الأدوات مـوجودة منذ العصر الحجري . ولكن أضيف لها الآن « لوجي » أي العلم لانها أصبحت الآن منهجاً للتفكير ، علماً . ونحن نسمي حصيلة العلوم تكنولوجيا ، ولكن هذه نتيجـة وحسب ، والسـؤال : ما المنتج ؟ ما هو المعبر بين فكرة في رأس العالم وحصيلة ما في النهاية ؟ هذا الطريق ليس الاستنباط او الاستقراء وانما هو : الاجهزة ، فتقدم الجهاز هو تقدم العلم ، فالطريق هو طريق أجهزة .

ثانياً ، من حيث المضمون : فنحن نعرف أن نيوتن كان يعتقد ان المكان مطلق وكذلك الزمان . أي اننا لو أفرغنا العالم مما فيه ، فان ما يبقى هو المكان المطلق . لكن اينشتاين قال انه لا يوجد مكان إلا بحدوث حوادث فيه وكذلك الزمان .

اما فيلسوف العلم في هذا العصر فانه يقوم بواحدة من مهمتين :

١ ـ فهو اما أن يحصر نفسـه في فلسفة علم واحد ، فيفحص المفاهيم الاساسية التي ينطلق منها العالم ، ويردها الى جذورها .

٢ ـ او أن يحاول التفتيش عن وحـدة ناظمة بين كل العلوم . فالعالم اذ يكون منهمكا داخـل ميـدان الخاص لا يسـعـه أن يدرك العلاقات بين ميدانه والميادين الاخرى ، فيقوم الفيلسـوف بهذا العمل ، ويحـاول ايجـاد المبدأ الواحد او المجموعة القليلة من المبادىء التي توحد بين العلوم وهذا هو ـ كما يقول الدكتور زكي نجيب محمود ـ المنهج .

* * *

تلك هي الخطوط الاسـاسية في محاضرة الدكتور زكي نجيب محمود ، حاول فيهـا ان يتقصى صورة العلم ومنهجه ووظيفة فلسفة العلم في كل مرحلة من هذه المراحل البارزة

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

في تاريخ العلم الانساني . وقد كان ـ كعادته ـ حريصا على الوضوح ، بالاضافة الى انه قام في نهاية محاضرته بما اسماه « توظيفا » لها ، اي دور البحث في فلسفة العلم في مجتمعنا . وقال ان هذا البحث هام لاننا في الواقع مجتمع متخلف مازال ينقصنا المنهج العلمي حتى يصبح في امكاننا أن نتنفس هواء العصر . وأضاف إنه إذا كان يوجد في مجتمعنا علماء ، أي أناس يطلعون على انتاج غيرهم ويحفظونه ، فاننا مازلنا بحاجة الى العلم ، بمعنى المنهج العلمي الذي سيمكننا من اللحاق بركاب العصر .

تبقى هناك ملاحظتان أود اثارتهما قبل أن أختتم عرضي لمحاضرة الدكتور « زكي نجيب محمود » القيمة . فقد عرّف المحاضر المنهج المعاصر على أنه استخدام الاجهزة . والسؤال هنا : هل ينهض استخدام الاجهزة بذاته لان يكون منهجا عقليا ، أم أن المنهج هو هذه العمليات العقلية ـ من حدس واستقراء واستنباط ـ التي تدور في ذهن العالم أثناء استخدامه للاجهزة ؟ وفي موضع آخر عرف المنهج أيضا على أنه : ايجاد المبدأ الواحد أو المجموعة القليلة من المبادىء التي توحد بين العلوم . والسؤال هنا أيضا : هل إن هذه الفكرة هي واحدة من أهم أفكار فلسفة العلوم ولكن هل هي المنهج بعينه ؟ أم أن المنهج هو ـ مرة أخرى ـ تلك العمليات العقلية التي تدور في ذهن الباحث أو المكتشف أو المخترع اثناء انهماكهم في عملهم العلمي ؟

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

صدر حديثا

عن وزارة الثقافة والارشاد القومي

احصاء انتاج الدخل الوطني
وتطبيقاته

في القطر العربي السوري

عز الدين جوني

مراجعـــات

«اللاز» لبنة في صرح الرواية الجزائرية المعاصرة

جاكلين الزعيم

«اللاز» رواية من تأليف : الطاهر وطار ـ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ـ الجزائر ١٩٧٤

http://Archivebeta.Sakhrit.com

لئن كان الأدب الجزائري باللغة الفرنسية قد استمر وتجدد ، ومايزال ، بعد الاستقلال ، فان ادبا جديدا يلد ويمد له جذوراً في قلب المجتمع الجزائري ويتنامى شجرة باسقة معطاء . إن شاعرا فذا وفنانا شديد الالتزام بالثورة وبالشعب مثل كاتب ياسين قد طور أدبه بالانفتاح على اللغة الدارجة وعلى اللغة القومية ، لغة الضاد ، ووسع دائرة فنه ورسالته لتشمل الوطن العربي كله وتخص فلسطين وأيضا الفيتنام ، كما دلت أعماله المسرحية خلال السنوات الأخيرة .

بيد أن أدباً جديداً ، عربي اللغة ، جزائري المعاناة والالهام ، يخرج الى فسحة أدب العروبة واقعيا هادفا يعكس بصورة خلاقة فنية تجربة شعب في الكفاح وصيرورة مجتمع قيد التحويل والقلب والتجديد والتطوير بكل ما يمثل هذا من غنى وتعقيدات وآلام وتطلعات . إن الطاهر وطار هو أبرز القصاصين الجزائريين باللغة العربية ، وقد نال جائزة الدولة الاولى عن مجموع كتاباته في الذكرى العاشرة للاستقلال الجزائري . ولا يسع المرء إلا أن يلاحظ توافقا بين الانعطاف المأثور للثورة الجزائرية الظافرة منذ سنة ١٩٦٨ وتزايد عمقها الاقتصادي والاجتماعي بين سنة ١٩٧١ (وهي سنة التأميمات ثم تفجير الثورة الزراعية وعمل الطلبة المتطوعين) حتى الوقت الحاضر ، وغزارة انتاج الطاهر وطار . لقد أصدر سنة ١٩٦٢ في تونس مجموعته القصصية الأولى ((دخان من قلبي))

ولم ينشر سواهـا اي انتاج حتى بداية السبعينات حيث يفاجئنا بمجموعة قصصية ثانيـة « الطعنات » صدرت سنة ١٩٧١ في الجزائر وبمسرحية « الهارب » التي صدرت في الجزائر ايضا في نفس العام . وتجيء حصيلة الطاهر وطار غنية في سنة الذكرى العشرين لاندلاع ثورة الجزائر : « الشهداء يعودون هذا الاسبوع » مجموعـة قصصية أصدرتها لـه وزارة الاعلام العراقيةفي بغداد، ورواية « الزلزال » عن دار الآداب فيبيروت. اما قصته الجديدة « اللاز» (١) فقد خرجت من مطابع الشركة الوطنية للنشر والتوزيع بالجزائر عشيـة الاحتفالات الكبرى للذكرى العشرين .

لقد كتب وطار اللاز تتنازعه الرغبـة في « التعرية في آخر الجذور والانكباب على ابراز الوجـه الجديـد لبلادي التي تسير بخطى عملاقـة ، المدارس تنبت في الارض نبتـا والمعاهـد تتطاول في المـدن والقرى تطاولا والمعامل تشتغل بآلاتها أرضنا شرقيها وغربيها وشمالها وجنوبها ، والانســان في كل ذلك يتطور » (ص ٨) . ولذلك كان يطغى عليه الشعور بالذنب طوال السنوات السبع التي استغرقتهـا كتابـة هـذه القصة (١٩٦٥ ــ ١٩٧٢) . وانها لظاهرة صحية حقا ان يقف الأديب الجزائري التقدمي ليلقي نظرةالقصاص على حقبة من حقب الثورة .

اللون القصصي والمقومات :

هل نحن امام قصة ماساويـة لفرد او جملة افراد ام روايـة سياسية ام لوحـة قصصيـة يتراكب فيها التحليـل الاجتماعي والتشخيص السيكولوجي ؟ إن رواية اللاز لوحة تاريخية مؤثرة لنضال احد التجمعات القروية ضد السلطة الاستعماريـة الفرنسية خلال النصف الاول من عمر الثورةالجزائرية. وهـي تصوير روائي للتركيبـة الاجتماعيـة الطبقية في مجابهتها الموجبة لدعوة جبهـة التحرير الوطني الى الكفـاح والفـداء وفي مجابهتها السالبة بالمقاومة للبطش العسكري الفرنسي .

إن البعـد الطبقـي لهـذه التركيبـة القرويـة ينسحب على موقف عناصرها من كل من حركة الثورة المسلحة وطغيانقوةالاستعمار الغاشمة ويغني بذلك رواية اللاز ويجعلهـا عميقة بعيدة القرار . ويتجلى ذلك اشـد ما يتجلى في المستوى السيكولوجي للروايـة وفي بنية شخوصها وهواجسهم ومعاناتهم كما سنرى . والروايـة ترصد وتترجم دونمـا تقريرية على صعيد العمل الادبي مستويات متعددة من التناقض : التناقض الوطني مـع الإستعمار وهو الأساسي ومنه يشتقالتناقض بين الثوار وعملاء الاستعمار كالحركيينوكذلك التناقض بين الثوار والمترددين كالبورجوازيين الصغار . وهناك التناقض بين ثوار وثوار وهذا ما قصده الطاهر وطار بروايته اللاز .

(١) اللاز هي الكلمة الدارجة المشتقـة من اسم ورقة اللعب الآس وقد استخدمهـا المؤلف لقبا لاحد ابطال قصته .

فهي رواية سياسية اجتماعية سيكولوجية بقدر ما هي تاريخية . وهي جماعية غنية بالشخوص بقدر ما هي فردية . وهي تتمحور على العنف وتصنف فيه عنفاً ثورياً وعنفاً وطنيا بالاضافة الى العنف الاستعماري . وهي رواية جنسية تعالج مشكلة الكبت والحرمان والموقف الاجتماعي المنافق بحكم القيم السائدة من هذه المسالة كما تعالج مسالة الشذوذ الجنسي الفردي ونتائجها الموضوعية والعمياء والذرائعية ، إذ يبدأ الشذوذ الجنسي عند الضابط الفرنسي في المعسكر حالة فردية تتحول الى انتهاك القيم لدى الشعب عندما يدفع هذا العسكري ازرق العينين المرتزق بعطوش راعي العجول الى وضع جنين في احشاء خالته خيرية . وهو شذوذ يرتد ضد صاحبه ويصبح دافعاً لكل من اللاز وعطوش على التمرد والالتحاق بالثورة .وأيا كانت مستويات الفهم الروائي ولوالبها التناقضية المحركة ، فان العنف هو حقيقتها العظمى والعنف في الرواية مفهوم ومنطقيإن لم يكنحتمياً : عنفضد الاستعمار وعنف ضد الخونة وعنف ضد المترددينوعنف ضد العناصر اليسارية المتقدمة .

إن تفسخ الجهاز الارهابي للاستعمار الفرنسي وعنفه يؤججان نار التمرد ويقذفان بقوى من قلب هذا الجهاز الى صفوف ومعاقل الثوار . انهما يمارسان من الحقد الضرير ما يعبىء الجماهير لحماية الثورة النامية . والشراب ينتقل بعدوى الاتصال بالضابط الفرنسي الى اللاز فاذا بهذا يرتعش اذيفتقده في الجبل حيث التحق بالثوار . والتبغ والشراب ضرورتان للمناضل زيدان الذي عاشر الفرنسيين واكتشف موسكو واطفا بعض ظمئه وقلقه في محنة الخيار بين الذبح وانكار العقيدة .

البناء الروائي والحركة في اللاز :

ولكي يجعل الطاهر وطار قصته مشوقة تجتذب اهتمام القارىء وتشد حواسه وتقتات من فصوله ، فانه اختار تقنية روائية استلهم بنيتها وحركتها من بهلوانية المتلاعب بكرات عديدة في سيرك للتسلية وفعلا رسم الوطار عدة عوالم روائية متداخلة متكاملة اجتزاها من عينة من المجتمع القرويالجزائري الناهض بعبء ثورة التحرير ، انتقل بعدئذ في كتابته هذه القصة بين هذه العوالم ياخذ الواحد منها ثم يمضي الى سواه ليعود بعدئذ الى ما ترك محركا الاحداث مجددا فيه ، وهكذا دواليك ، فهو يتناول كلا من هذه العوالم المجتزأة في فصل خاص ثم يتركهفصلا آخر أو عدة فصول قبل ان يعود مجددا اليه. وانها لتقنية تشويقية بتحريك قطاعاتمجتزأة من عالم القرية تذكر بلاعب الكرات في السيرك حيث يقذف كبهلوان بكراته الواحدة تلو الاخرى في الهواء ويسارع على الفور لتلق ما يهبط منها فيقذفه عاليا من جديد محركا

كراته بطريقة متوالية ومتواجدة آخذا بالباب المتفرجين . ولئن كان للقبصة زمن حدد بعد مضي خمس سنوات على اندلاع الثورة ، فان مكانها ليس محددا . والواقع ان تحديد اسم القرية او اغفاله سيان ، فقد تعمد الطاهر ان تكون مغفلة الاسم مجهولة المكان ليعطي الرواية بعدا جغرافيا وطنيا هو بعد ثورة التحرير ذاتها .

الانتماء الجزائري :

ادب الطاهر وطار شديد الارتباط بالبيئة الجزائرية وقصته اللاز تنتمي اليها وتعبر عنها . والبيئة اذا ريفية وتختلف عن بيئة القاهرة الشعبية عند نجيب محفوظ . اللغة عربية لكنها جزائرية المنبت والسمات تشوبها لا بل تدخلها كلمات معربة دون جهد : السامبيط واللاز والكبران رمضان ، هذا فضلا عن الحكم الشعبية كجملة زيدان التي يرددها اللاز من بعده : « ما يبقى في الوادي غير احجاره » والصور البلاغية التي تشبه آذان بغال الثوار بالرادار الراصد للحركات المريبة وانبطاح البغال بحكم العادة عندما تحس بدنو اي خطر. والقصة تضع يد القارىء على مكان الداء وتجدد البطن التي حملت بالاثم إذ يقول زيدان في معرض رده على الشيخ : رغم انني في انقطاع تام ما يزيد عن السنتين فانني استطيع ان اؤكد ان تكوين جبهة من الافراد وليس من الاحزاب غير مفهوم ... الكفاح المسلح الذي توفرت شروطه فاندلع ، شيء ، واستغلال هذا الكفاح لتكوين حزب وحل جميع الاحزاب الاخرى شيء آخر (ص ٢٢٤) وبعد ان يذكر القصاص تعارف الشيخ وزيدان منذ سنة ١٩٢٥ وتوادهما رغم اختلاف وجهتي نظر حزبيهما في كثير من الامور، يذكر انتخابات ١٩٤٨ والخلافات ثم الصدامات المسلحة بين المجاهدين . بعد ذلك يمنح زيدان ورفاقه على لسان الشيخ مهلة أربع وعشرين ساعة ليفكروا « كما يشاؤون (ص ٢٢٦) . اي ان للمشكلة جذورها وتفرعاتها الجزائرية. وفي المنظور السيكولوجي يشكل الاختيار الصعب ان لم نقل المازقي ، احدى العتلات التكنيكية للبناء الروائي في قصة الطاهر وطار. ان قدور مدعو لان يختار بني « زينة الربعة المتلثة البيضاء العذبة » والبيع والشراء والتوسع في التجارة وشراء عربة شحن كبيرة وفتح مخزن للجملة ، او وبين جمع الاشتراكات والتبرعات وتوزيع المناشير وشراء الادوية والالبسة والاغذية وتهريب الجنود الجزائريين من الثكنة وتجنيد الشباب » (ص ٤٦ ــ ٤٧) . مقابل هذه الحيرة الاصيلة لدى

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

البرجوازي الصغير نجد ترجمتها في موقف اللاز من الصديد والشاشتان الذي تطلبه وترجمه الذي التفكير من أزلة صاحبه وتجديه على أمره . وعلى هؤلاء كان الانقلاب (الثوري) زمان ورفاقه في ترسخهم بين الاختيار اليمني الستاليني وهو يتطلب منه الى الاستسلام الفوري على يد الشيخ المذنب في القيادة العليا وبين الموقف التكتيكي الواقعي الذي يتطلب من الوقت .

ان الاختيار الفعال في سبيل النضال الثورة شكل وقد يكون دريرا . اللاز يريد لا تعطل ، بل هو بالمستقبل التفكير حتى يشرع بالانحراف الرئيسي الهدم بالانتقال يرفض وهو على وشك الهرب الى الجبل بعد الاتصال بالثورة وإبل زمنة التصويبة الرحمة المطلقة والارتقاء الى مرتبة رفاق الجملة . اما زمان ورفاقه فالشيوعيون الوطنيون يكون حتميا حتفه الارهابية إذ لا تفاعل ولا اليول بالقتل ولا خيانة القضية حتى عليه تحجيم الانصياع . والثورة في الوقت ذاته تلقي القبض وتفرض الانضباط التمسح ان لم تكن الامين ولا يكلف بشيء حدود الكتلة . وهكذا يلتبس اللاز ابامزيان يأمر من الشيخ مسؤول القيادة العليا ، ولكن الامتثال كان عليه يتقبل مثل الاتساق . وهكذا تبدأ اللاز الذي شنق

وعام في الأرض يصبح « ما يبقى في الوادي الا حجارة » .

وإذ يبقى القسم اليومي في صلاح الثورة عملية الاختيار الفردي في الوقت الذي يحول الفرد بدوره أمام المواقف الآنية الحاسمة يتنقل في ظروف المحنة ووسط المواقف والمشكلات المتوقعة وتجدها . الما المحنة الثورية تحدد العلاقة نوعية في المواقف . اللاز يتحول بارادته وبقيا منه من يريد اللاز بريد يتحرك بالناس الى ابن لم تجربه الوهل ما ان يعي وجوده ويتطرف في صفوف المجاهدين ويحيا بالتطهير حتى يجد عليه ابنه ليصاب بالجنون . الحوار مع الثوار يعمل على شيء حدوث الضابط الفرنسي الى حوار وقائل ام حدود الحق بالثورة ويظهر بعد الاستقلال رجلا عظيم القوة . وزيدان يتحول من قائد ثوري يحظى بمحبة رفاقه ضمن صفوف الثوار الى سجين سياسي أول في حادثة يحيي فيها اربعا وعشرين ساعة قبل ان يذبح لما يذبح الخروف . وهكذا يلقي نفس الاقدار بالمواقف ثورية سريعة في زمن الحرب والثورة والحدث الصنوع .

انشطار اللعنة :

قل جمال الطاهر وطار للعبث شخصا مأساويا بل مركزيا لا نجد هنا شخصين هما اللاز « الذي ابن نقبة والماكسوسيوزية

[illegible]

زيدان: [illegible]

[illegible]

عمو: [illegible]

[illegible]

الشيخ: [illegible]

[illegible]

اجانب لربطة الفلاحين انه يشير في الثورة قبل أن يستغل ضحية لعاطفتها . والشيخ الأخضر عند حمو يذكر بالسيد سليم طوان رغم أن الأول أفرغ والآخر بورجوازي مثقف متواطئ ثري . وهذا التجانب قبيح بين الصمود على السلم القبلي والانخراط في ثورة الفلاح وقد استشهد أبها هو موضوع مفصل في حالات معطوفي دائم البورجوازيين الصغار وموافقهم من العمل السياسي .

مسألة الجنس :

ومن خلال القصة يضع الرجل عدة مستويات السلوك الجنسي :

أن تدور إلى التاجر الشيخ روبي بشكل شباب الزوجة البيضاء الثالثة زوجة ويعلم بالزواج منها .

وينفرج القيد الجنسي لسوء العصام الثلاث دائما وصباركا وفوامة إلى مقاربة حمو التزوج ومواجهته بالتكرار . وعندما يراه طل في غرفي لاحسن الطفي منه يراه طل في غرفي لاعطاء تنفس منه

ولا زوجت الشابة [illegible] من الشيخ [illegible] [illegible] [illegible] الجنسي حتى يرد إلى صيانته الفرنسية [illegible] . [illegible]

والانتصار الذين بمجامعة ابن أخ زوجها بطولي حدما يلاقي طريقا احتلاله الواقي الضابط الفرنسي في المرة الأولى ويروجان الفرنسية السياه في المرة الثانية تبهيما لقاتلها .

أما بطولي الفلاحين طريقا أم الكلام برائيسه لم يضع جنبيا في ظل [illegible] لم يقبل العصابة الثلاث جنسيا .

ولا يسعنا إلا أن نلاحظ كيف أنها لم [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] من إيه الشهيد . [illegible] قرية بينما تجد [illegible] العمل بعد انتصار الثورة . [illegible] بطولي رجلا لا ثقة .

ويأتي إلى [illegible] القصة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] [illegible] في ظل [illegible] .

بما يتعرض له من تعذيب داخل الثكنة وتارة بما سيحل به عندما يطير بالبوح إليه . وموقف اسمي عندما علم بوصله إلى الوحدة الثالثة من العثور على من يعذبونهم ... [illegible] الكثيرين الذين كانوا مصيرا لعصيه ، كيف يرى الكثيري زيدان ؟ موقف الجماهير منه ونظرتها إلى الثورة ، ينظر زيدان إلى الثورة من خلاله بمفاهيم تلك الجماهير ؟ حالة ... لا أقل يوم واحد في الليلة يعني القصر منذ . إلى أن تطور ، خلفت ما عام وستالين ... في يقينه أنه يعني بها ... حتى الله إن كان لنفسه ، التحفظه بما كانوا إلى من التي التحفظه بعد ، الحركة الثورية والحركة ، اشتراكيا حقا والحركة ... [illegible] اقتحاما لرأسه ، فكانت ... في التي يقطع بينك وبينها ، هذا من النهاية الحقيقية (اللوه ٨ (ص ٢٥٧) .

أين هي الشكلة ؟ أترك زيدان ... ، لو كانوا كلهم مثلا ، لو كانت الأقلية أو على النصف من العمال ، لكانت المهاتفة ، لكانت الرد كيف افاهيم ، كيف اتقسم قلوبهم وأفهمهم ... انا ومن خليط من التجار والطالبين والوارثين والعسكريين المنحرفين في الجيش الفرنسي ، ذوي الرتب والنياشين ، الذين يتصورون أنها ما تريد أن يتصوروا ... اللا كتب على لنفسه ، تم التي القرب من مواجهة الحقيقة ... ، في الحين أن تكن الأغلبية من العمال ، لكانت من هذا

الزوج ... عندئذ كانت الكتابة تحمل أيديولوجية العمال ... وهنا أنه ... الكتابة أيضا من هذا الزوج ... فد النوع كانت في تغيير فعاليات الزعيم ... لكن سيكولوجية الثقافي ... العسير في الوقت الراهن أن يقوي أساليبهم ويعزم ... وحتى في الزمن سيكتشفون بأنفسهم أن الأشياء تحكم مثل المستمرين ، أصداء الزوج وسيكون أصداء ما دامو موجودين وحتى انما ما قدروا وأخذوا رؤوسهم الغامضة فالمهم سيرسلان ما يسترجعون وسيقرون على الزعيم .

هذه الحركة يرى أن تبقى الصراع الطبقي ليس إلا رؤيا يقينه مجرد حركة تمرد ... الطاهر لسان القطار أن يحرفها الاستغلال إلى جانبه الإنسان الثقافية ليلتقط الرجل بين أنين الطبقات والمسؤولية ص ٢٦٨

لعبد الطاهر وطار يعد أن أنهى هذه الرواية أن يطلع من عمره ... فيصنع رسما جميلا لعلاقة الاثار تلك التسيير الذاتي والثورة الزراعية وتأميم جميع الثروات الطبيعية والسيطرة على تجارتها الخارجية والصناعة والاقتصادية والفلاحة التي جالب جميع الشعوب الثقافية في العالم (من كلمة الغلاف) .

لهذا يشعبة الطاهر وطار في صرح الأدب الجديد بالعربية في الجزائر الحرة ، خطوة محمودة نحو أدب اجتماعي مبدع في الجزائر .

الأدب اللبناني باللغة الفرنسية

د. [illegible] الذيب

« Littérature Libanaise de Langue Française »

٢٦٠ صفحة من القطع المتوسط ، منشورات نعمان NAAMAN في كندا عام ١٩٧٤
تأليف : د. سامي خلف [illegible]

ARCHIVE
http://archivebeta.sakhrit.com

[illegible] في دراسة « الأدب اللبناني باللغة الفرنسية » لمؤلفه الدكتور سامي خلف ، [illegible] بوضوح لرصد [illegible] « شكري غانم » [illegible] في باريس عام ١٩١٠ [illegible] الأدب [illegible] [illegible] ويبحث المؤلف [illegible] والاقتصار على دراسة « [illegible] » الأدب اللبناني باللغة الفرنسية « [illegible] » [illegible] الأدب [illegible] [illegible] الأدب [illegible] الأدبي [illegible].

ينقسم هذا [illegible] الى جيلين من الكتاب ، الجيل الأول [illegible] [illegible] [illegible] في التربة اللبنانية ، [illegible] الجيل الثاني [illegible] الى [illegible] من جهة [illegible] من جهة أخرى . ويشمل الجيل الأول الفترة [illegible] الحرب العالمية الأولى الى منتصف القرن العشرين ، حيث يبدأ التاريخ [illegible] الجيل الثاني [illegible] . [illegible] لبنان [illegible] باللغة الفرنسية [illegible] في حقيقة « [illegible] » [illegible] .

وهذه « مفارقة خصبة » يجسدها فرج الله حايك .

ان أهم ما يلفت النظر في استعراض مراحل تطور الوسط الذي استطاعت اللغة الفرنسية أن تنجح بالانغراس والانتشار فيه بمثل هذه السرعة هو تلك النزعة الجارفة التي سيطرت على عقول عدد من المفكرين والتي بلغت حدا من التطرف يدعو للدهشة، الا وهي محاولة ايجاد جذور لهذا الفكر الغريب خارج حدود خمسين قرناً من التاريخ المتصل لمنطقتنا العربية ، والقفز فوق حواجز التاريخ والثقافة العربية للارتماء في أحضان « الاجداد الفينيقيين » .

« فقد تغنى منذ بداية هذا القرن عدد من الشعراء اللبنانيين ، معبرين عن عواطفهم باللغة الفرنسية ، بالماضي المجيد للدولة الفينيقية . فهم يبعثون في أشعارهم الملحمة الفينيقية ويريدون اعادة اكتشاف القواعد التاريخية للبنان عبر الماضي » (ص ١٤) . ولقد أضحت « المجلة الفينيقية » التي اسست في بيروت عام ١٩٢٠ اولى المجلات الثقافية الصادرة بالفرنسية في بيروت . وصارت نواة تجمع ثقافي مهتم بالاصول الفينيقية . و « يحتل الفينيقيون الذين لا نعرف شيئا عن أصلهم الشواطىء الشرقية للبحر المتوسط منذ بداية الألف الثالثقبل الميلاد » وقد اسسوا لهم موانىء اهمها أرواد وجبل بيروت وصوروأوغاريت.ونشبت حرب كلامية بين الجانبين (القوميون الفينيقيون والقوميون العرب) ولسوف يترك هذا النزاع حول (النزعة اللبنانيةالفينيقية) آثارا هامة على الانتاج الادبي لعدد كبير من المؤلفين اللبنانيين » (ص ١٦ .) إلا ان ذلك لا ينفي ولا يقلل من أهمية الدور الذي لعبته وتلعبه اللغة العربية في لبنان . ان النهضة التي شهدتها الآداب العربية في القرن التاسع عشر قد « حازت على اندفاعها في لبنان . وقد كان جهابذة اللغة العربية الذين أرادوا بعثها في نقائها من شعراء وقصصين وصحفين ونحاة ، لبنانيون » (ص ١٨) . كما أن العربية الآن حي بدون منازع « اللغة الاساسية » رغم المنافسة المتناقصة للغة الفرنسية . ولا يمكن حسب رأي السيد نجيب دحداح في كتابه « التطور التاريخي للبنان » أن نعتبر لبنان على شاكلة سويسرا. فاللبنانيون توحدهم « اللغة العربية الأم المشتركة » . وما أسهمت به اللغات الاخرى لم يكن الا اغناء للحياة الثقافية واسهاما في تطوير الحركة التجارية والسياحية . ويمكن اعطاء فكرة احصائية عن وضع لبنان من حيث عدد المتكلمين باكثر من لغة عام ١٩٦١ على الشكل التالي : يمثل الذين يجيدون الفرنسية والعربية معاً ٢٤ ٪ من نسبة السكان و ٢ ٪ لمن يجيدون الانكليزية الى جانب العربية . اما الذين يجيدون العربية والانكليزية والفرنسية ٣ ٪ .والذين

يتكلمون أكثر من لغة بالاضافة الى العربية يشكلون ٣٥ ٪ من السكان ، بالاضافة الى ٣٤ ٪ من الأميين .

النقطة الثانية الهامة التي يتوجب ان نلفت النظر اليها هي أن الدستور اللبناني (٢٦ أيار ١٩٢٦) في المادة ٩٥ قد كرس الطائفية . وكان ذلك اجراء موقتا لاحلال العدل والوفاق . ويرى الدكتور خلف بان الجماهير المثقفة « تنتظر بفارغ الصبر يوم القضاء على الطائفية » (ص ٣٢) .

وتتلخص النقطة الثالثة في الصداقة المتينة التي نمتها اللغة الفرنسية بين لبنان وفرنسا الى درجة أن الشعور الوطني قد عبر عنه في تلك الفترة ، لتحرير « الشرق العربي » ، باللغة الفرنسية . وكانت « المجلة الفينيقية » المجال الذي ربط من خلاله عدد من المفكرين اللبنانيين « الشعور الوطني » « بالحضارة الفينيقية » . وكانت بذلك « مكان تقاطع الاقلام اللبنانية لهذه الفترة . فبينما كان الشاعر هكتور خلاط يمجد روابط الصداقة التي تربط بين لبنان وفرنسا ، كان ايلي تيان يتغنى بحب الوطن. كما أن « الجبل الملهم » لشارل قرم يعيد الى الحياة العصر الفينيقي » (ص ٣٩) .

من خلال هذه النظرة السريعة الى الوسط الاجتماعي في لبنان ، مضافا اليها العوامل السياسية لتلك الفترة ، فانه يمكننا أن نرى بوضوح القاعدة التي ارتفع عليها هذا الأدب الجديد ، وما هو الدور الذي لعبه في تاريخ منطقتنا العربية .

الشعراء الرواد (١٩٠٠ — ١٩٥٠)

شارل قرم — (١٨٩٤ — ١٩٦٣)

كان شارل قرم يعتبر نفسه وريثا لاجداده الفينيقيين . « ولما كان مسؤولا عن مهمة أساسية قطع على نفسه انجازها حتى النهاية، فقد بذل كل ما في وسعه من موهبة وفكر ليعرّف العالم ومواطنيه بالدرجة الاولى بهذه الروح الفينيقية التي نشا منها » (ص ٥٤) . واعتبر عدد من اللبنانيين « الجبل الملهم » ملحمة قومية . وقد اشاد النقاد الفرنسيون عام ١٩٣٤ بموهبته « الشعرية الرفيعة » و بـ « نقاء الاسلوب والتناغم الكلاسيكي » لديه . كما امتدح اندريه فونتين « قوته الملحمية الحقيقية » ، فنراه يمجد « الفينيقيين » باعتبارهم أول من اكتشف الابجدية ، ويرتبط بهم لامتيازهم هذا المجد الذي احدثت الاكتشافات الاثرية الحديثة شرخا فيه ولم يعد مسلماً بصحته . « ماخطر ببال أحد ابداع الكتابة :

الآية الكبرى التي أتاحت للعبقرية الانسانية
أن ترفع المخلوقات الى مستوى الخالق
بحركة واحدة من اليد » (ص ٥٢)

ونراه في موضع آخر يمجد الشمس باعتبارها « أصابع الروح » والاذرع الذهبية

ذات الايدي الحانية » ، وهو يرفع هذه الصلاة الى بعل .

« ها أنذا عائد
مخلص
وفي وعار
كما عرفتني
يا شمس يا إلهي
هلا مزجت نارك المتاججة
بنار دمي
هلا اخترقت بجوهرك المصمت
معدني
هلا غزوت وجودي كاملا
ايتها الشمس ... ياصابون الملائكة
ايتها الضياء الفياض
مدي بياضك فوق ليل احزاني
واغسلني بهذا الزبد الرائع
انقذي نقائي » (ص ٥٦)

ونعثرعلى قصائد عديدة تدور حول الاشادة بالعلاقات القديمة الودية للبنان مع فرنسا عند كل من شارل قرم وهكتور خلاط وايلي تيان (١٨٨٥ – ١٩٥٧) . وآخر شعراء الجيل القديم هو ميشيل شيحا (١٨٩١ – ١٩٥٤) الذي كرس بقية حياته للصحافة وكانت « الاخلاق بالنسبة اليه جوهر كل حضارة » (ص ٦٨) . وهو على عكس سقراط ينصحنا بعدم الجري العنيد وراء الحقيقة . وكانه قد استخلص عبرة من حكم أثينا بالموت على سقراط :

« لا تنزلق في مهاوي التهور
باصرارك على طلب الحقيقة
فان نصير البداهة
هو بالذات عدو المدينة » (ص ٦٨) .

* * *

شعراء الجيل الجديد (١٩٥٠ – ١٩٧٠)

جورج شحادة

ولد في الاسكندرية عام ١٩١٠ . وقد برز اسمه مؤخرا بشكل صاعد في عالم المسرح. ولكن ذلك لا يمنع من تمتعه بعبقريته الشعرية التي يعترف لهبها الناقديير روبان قائلا : « يمثل جورج شحادة بالنسبة الي احد أعظم وأصل الشعراء في عصرنا . ويسعدني ان اكون متفقا على ذلك مع اكثر النقاد تشددا ونفاذا مثل اندريه برتون أو جابريل بونور ومع عدد من الشعراء امثال سان جون بيرس ورونه شار أو سوبر فييل » (ص ٧٠) .

ونقرا في مقدمة ديوان « الاشعار» المنشور عام ١٩٦٩ رأي الناقد الشهير غائيان بيكون في شعره : « ليس في هذا الشعر تجريبا لغويا : انه الام التجربة . فهو لايمد الجسر الذي يتيح له مغادرة ارضه الخاصة كلمة بكلمة ، هناك حيث تلتقي تحت السماء الكونية لهذه الارض أزمان بدون ساعات

ولا عصور . ليس من شك في أنه مصنوع من الكلمات ، إلا انه يفصح بكل بساطة عما لم يكن قد فاته دراية : انه يتتبع الاشاعة الدفينة لذكرياته الخام » (ص ٧٣) .

ويعتبر النقاد بان الحدائق في قصائد شحادة هي جنة الانجيل وأن الحمائم والعصافير تضفي ايقاع الانطلاق على هذه السعادة التي تشبه الحلم . ونقرا له في ديوانه « الاشعار » :

« لو انك مثل رهبان بلادي جميلة
لما انتحبت على الجنود القتلى ياحبيبتي
ولما بكيت على أشباحهم الهاربة من الموت
الموت عندنا هو زهرة الفكر
الأجدى ان نحلم بالعصافير المسافرة
بين الليل والنهار مثل مرور الأثر
حين تختفي الشمس خلف الاشجار
وتصنع من اوراقها مرجا جديدا .
آه يا حبيبتي
عيوننا هي عيون السجناء الزرقاء
بيد أن جسمينا مما تعبده الاوهام
كانتا ونحن مستلقيان سماوات في الماء
ويبقى الكلام غيابنا الاوحد » (ص٧٤-٧٥)

فؤاد جبرائيل نفاع

ولد عام ١٩٢٥ يعتبره المؤلف واحدامن أفضل الشعراء إلماما ، حتى إن جورج شحادة يعترف له بتفوقه عليه في النفحة الشعرية . ويمتلك نفاع مع جيرار دو نرثال الذي ينظر إليه شاعرنا بوصفه « الشاعر الاكثر شمولية» العديد من الصفات المشتركة القائمة على تعاطف روحي خاص . « فهو على شاكلته يجد في الحلم حياة أخرى ينفتح علينا من خلالها عالم الأرواح » (ص ٨٠) ولكن ذلك لايفقده أصالته التي كانت تقوده إلى آفاق جديدة. قال عنه جورج فيني : « إن نفاخ على وعي عميق بموهبته . ذلك انه يتجاوز فعلاالحدود اللبنانية ويمتد إلى ماوراء الاطر العادية لشعر يعلن عن فرنسيته . إنه شرقي الدار أوربي النفحة ويود بشكل عام أن يكون كليا ومطلقا » (ص ٨١) . ونحس ونحن نقرأ شعره بنزعته إلى «وحدة الوجود»الصوفية:

« لتجاوز روحي مظهر الإنسان
وتخفق برهة بين ذرات الريح
قبل أن تغرق في جذع النخلة
وقبل أن ترافق رحلة السنونو
وقبل أن ترعى تحت الشمس في جلد خروف
حتى تفيض اخيرا على كل الطبيعة »
(ص ٧٩) .

ندريه شديد

ولدت في القاهرة عام ١٩٢١ . وتميزت شاعريتها بالنزعة المأساوية لمعالجة انفعالات الحياة « فاحساس الموت يظهر منذ قصائدها الأولى دون أن يفارقها فيما بعد . بيد أنها تستقبل دونما تمرد ذلك المنظور الذي يرتسم

امام كل حياة دامجا الموت بالحياة »(ص٨٢).

« نعم ، اغنيك أيها الموت حتى الغياب الاقصى

ياحارس المجهول ويا مرج التائهين الحاني »

وهي تبدي لنا رأيها في الشعر قائلة :

« ليس الشعر ، كما قد يتخيله البعض انعتاقا او هروبا إلى ماوراء الواقع ، أو طريقة لتكييف او تزويق الوجود : إنه على العكس من ذلك اغناء لنا في مجمل الحقيقة. ولما كنا نحيا معظم الوقت بشيء من التعلق ظاهر الوجود اكثر عن باطنه فاننا نعلم ان الحياة ليست سجينة مظاهرها . إنها شيء مغاير لذلك . فليس بوسعنا ان ننسى بأن وجودنا محاط باللغز ، اللغز المشترك والذي نحمله فينا دفعة واحدة : « الفضاء » و « الذرة » . وقبل ان يكون الشعر فنا فإنه بحث عن هذه الحقيقة . إن الشعر أرض نعيشها بكاملها »

وهي تذكرنا بشعرها الحزني اشعار خوان رامون جيمنيز :

« أيها الراعي ، نحن على الناي
نشيد الشكوى القديم
وابك اعشاب التربة
وابك جوهرة الماء
وابك حلم الكرى وخدر النفس
أيها الراعي
هلا اغرقت الاشياء في نحيب الناي
في الجهة الاخرى للهضبة تمتد حقول اسبانيا » (ص ٨٤) .

المسرح

شكري غانم (١٨٦١ ـ ١٩٢٨)

تعود شهرته الى مسرحيته « عنترة » التي مثلت على مسرح « الأوديون » فيباريس عام ١٩١٠ ثم في « الاوبرا » عام ١٩٢١ بعد ملاءمتها غنائيا . وقد استطاع أن يثبتاقدامه على المسرح الغربي بعد صياغته لقصة عنترة العبسي المشهورة في التراث العربي صياغة درامية تتناسب مع ذوق العصر الذي كانت تطغى عليه مسرحيات من وزن « سيرانو دوبرجوراك » لمؤلفها ادمون روستان . وكانت القيم التي يجسدها المسرح في ذلك العصر هي قيم الحب والاخلاص والعواطف الملتهبة والبطولة . ولاتفوت شكري غانم الفرصة في التعبير عن آرائه في حرية الشعوب ، فيجري كثيرا من هذه الافكار على لسان عنترة ، مما يتعلق بحرية العرب .

جورج شحادة

يحتل مسرح شحادة عالميا نفس المكانة التي ارتفع اليها مسرح بيكيت ويونسكو وآداموف . وهم رواد مايسمى في فرنسا « بالمسرح الجديد » . ويكفي أن نشير الى ان مسرحيته « مهاجر برسبان » قد ترجمت الى اكثر من ٢٤ لغة ، وهي تمثل في جميع انحاء العالم .

اولى مسرحياته التي عرضت في فرنسا هي « السيد بول » عام ١٩٥١ على مسرح « لاهوشيت » . ويمكننا أن نلاحظ آثار الوسط الشرقي الذي نما فيه على كتاباته. فقد استطاع أن يعبر سرياليا عن ذكرياته في مشاهدة المسرح الشعبي العربي «الكراكوز».

الروايـة

فرج الله حايك

ولد عام ١٩٠٩ . ويلخص لنا الفكرة الموجهة لرواياته على النحو التالي : « أنا من اولئك الذين يعتقدون بان الكائن البشري ليس حرا . وان ثمة جبرية تسيطر عليه . فلو اننا كنا احرارا لما تمردنا .

والمشاهد هو ان الانسان يتمرد في كل لحظة ضد ذاته وضد السماء وضد المجتمع . الحياة الانسانية هي في تمرد مستمر . وذلك الجانب هو الذي راق لالبير كامو من ادبي » (ص ١٢٠) . أحدث مؤلفات فرج الله حايك « رسالة من همجي الى المتمدنين » يحمل فيها بشدة على الغرب وعلى حضارته وقيمه الآخذة في الانهيار . ويفرد فيه فصلا خاصا للقضية الفلسطينية مختتما هذا الفصل بالمثل الوارد في التلمود : « اضاع الجمل اذنيه حين اشتهى القرون » كما ان اليهود قد أضاعوا قيمهم الروحية عندما استبدلوا بها « الصهيونية » . كما يمكن مقارنة نزعته في التمرد بالنزعة السائدة في الفلسفة الوجودية عند كل من سارتر وكامو .

المحاولـة

ميشيل شيحا

تعود شهرته الى الافتتاحيات التي كان يكتبها في جريدة « النهار » ويعتبره الكثيرون من ابرز المنظرين السياسيين . وكانت رؤيته للبنان باعتباره « بلد الحلم والواقع في آن واحد » قد تسربت الى اذهان المثقفين اللبنانيين . فالحرية والاحترام هما عماد الحياة في لبنان ودعامة كل مؤسساته . وقد قال بان « لبنان سيهدم نفسه بنفسه فيما لو حاول اقتناص حرياته . وعلى العكس من ذلك فانه سيزدهر عندما يوسعها ويجعلها مجدية » (ص ١٣٦) . وقد كان بالاضافة الى تفاؤله بمستقبل العالم الحديث صائب النظر مدققا . ولم تكن ملاحقته للاحداث اليومية لتفقده عمق النظرة الشمولية ، مما يدعو مؤلفنا الى تشبيهه بـ بول فاليري . وقد انعكست آراؤه على الحياة السياسية والثقافية في لبنان . وقد قال عنه الرئيس شارل حلو بانه « يملا جوانب الوطن بشخصيته القوية . وكان عزاؤنا خلال ربع قرن هو انه جسد لبنان بشخصه واننا نستطيع بذلك مقارنته باكبر علماء العالم لهذا العصر على مستوى السلوك والفكر ». (ص ١٤٢) .

ولا يمكننا هنا الا أن نسجل له رؤيته السياسية من توقع خطر خلق دولة اسرائيل في قلب الوطن العربي . مما دعا البعض الى منحه لقب « أستاذ السياسيين اللبنانيين » فقد كتب عام ١٩٤٧ : « ان قرار تقسيم

فلسطين بخلق الدولة اليهودية من اعظم الضلالات التي ارتكبتها السياسة المعاصرة. ولسوف يجر هذا الامر وان بدا يسيرا العواقب الوخيمة . ولانكون قد امتهنا العقل اذا قلنا بان هذه القضية البسيطة ستعمل على زعزعة الارض من اسسها » .

ولايفوتنا هنا الحكم على النزعةالفينيقية، باعتبارها اساءة الى تاريخ العرب . وقد ركز الدكتور خلف على تهافت مثل هذا الارتباط بالماضي البعيد والتنصل من استمرارية التاريخ ، مستندا الى استنتاجات الباحث الفرنسي جان بيير آلم الذي يقول في كتابه « لبنان » : « لاتربط اللبنانيين والفينيقيين الا اصولهم السامية وان الفينيقيين هم أول من استوطن هذه المنطقة » (ص ١٦) .

ولقد وضع عالم الآثار روبير شارو في كتابه (تاريخ الانسانية المجهول منذ مائة الف عام) اطروحة انصار النزعة الفينيقية التي يزعمون من خلالها بان الابجدية هي اختراع اجدادهم موضع الشك . « قال شارو اثر البحوث التي اجراها في مدينة تياهوا ناكو (بوليفيا) وهي ، حسب تقدير الاثريين اقدم مدينة في العالم : ان انسان هذه المدنية أتى ، عدا العلوم الفيزيائية بسر الكتابة .. أي الكتابة الخطية الالفبائية وهي الشبيهة بالكتابة التي نستعملها اليوم والتي يشك في أصلهاالفينيقي لاعتبارها مستمدة من مصر التي لم تكن الا مستودعا لها » (النهار ١٩-٨-١٩٧٤) .

وتجدر الاشارة هنا الى اخطار الانسلاخ عن الواقع العربي للبنان والتي تجلت في الحوادث الاخيرة المؤسفة . ان الادب اللبناني باللغة الفرنسية مدعو لالتزام قضايا الامة العربية . وهو مطلب يمكن تعميمه على كافة اشكال الآداب التي نبغ اصحابها في البيئة العربية ، سواء أكان ذلك بالفرنسية ام بالانكليزية وفي كافة الاقطار العربية .

حزن حتى الموت

أديب عزت

فاضل السباعي – قصص – منشورات المؤسسة الأهلية للنشر والتوزيع – بيروت – ١٩٧٥

تطرح هذه المجموعة القصصية الجديدة لفاضل السباعي ، مسألة أعتقد أنها هامة وجديرة بالذكر ، فقد سبق للمؤلف ان أصدر في السنوات العشر الماضية وعلى نفقته الخاصة كمية كبيرة من الكتب ، منها الروايات ، ومنها القصص القصيرة ومنها قصص للاطفال ، حتى بلغت كتبه ثلاثة عشر كتاباً واكثر ، فهو كما يذكر في كتابه هذا يعد للطبع كتابين آخرين ، وبالتاكيد من وجهة نظر ما ان في هذا الاصرار جهداً مشكوراً ، وتعباً واضحاً ، وأدباً يستحق الاحترام ، غير أن للمسالة وجهاً آخر يجعل القارىء يتساءل :

ماذا اضافت هذه الكتب ، الروايات ، القصص الى الحركة الادبية العربية ، وهل استطاع صاحب هذه المؤلفات ان يفرض حضوره بها ، أن يؤكده في الساح الادبي بتفوق ما ، مهما كان ضئيلا ، وهل امتلك بعد تجربته الطويلة في هذا العبث الكتابي المتعب صوتاً خاصاً ، بعداً متميزاً ، فرادة معينة ؟

و .. في مجال الشعر مثلا ليس لبدوي الجبل اية مجموعة شعرية مطبوعة ومع ذلك فانه ملء الساح الادبي الشعري ..

و .. ليس لنديم محمد اية نشاطات شعرية الان على مستوى النشر ولكن لا احد يستطيع ان يحذف اسم نديم محمد من ذاكرة الحركة الشعرية في القطر ، وفي مجال القصة القصيرة لا يمكن لاحد أيضا أن لا يذكر ، أن لا يتوقف عند اسم زكريا تامر

ذلك لانه قدم قصة جديدة ، نكهة جديدة، اسلوبا جديدا . وقبل أن يكتب عاش ما كتبه ، عاناه وبذل جهدا لفهم الانسان ودود الادب ، وثمة قصة طويلة واحدة لصنع الله ابراهيم هي تلك الرائحة استطاع بها صنع الله أن يفرض لاسمه مكانا في القصة العربية والامثلة كثيرة ولا مجال هنا لذكرها كلها .. ونعود لمجموعة الاستاذ فاضل السباعي حزن حتى الموت ، ولا باس ان نذكر هنا أن القصة القصيرة بذات مسيرتها في قطرنا عام ١٩٣١ وكان السائد في تلك السنوات البعيدة رومانتيكيات يحاول كتابها تقليد المنفلوطي والرافعي واضرابهما ويحلقون بعيدا في اجواء الخيال والعاطفية المفتعلة وتقع قصصهم في الانشائية والترهل غير أن ذلك كان مرحلة وكان لهم عذرهم لكن الاستاذ السباعي يعيدنا في مجموعته هذه الى تلك البدايات المتعثرة وبدون مبرر بعد ان قطعت القصة كما هو معروف الكثير من مراحل التطور وبعد أن اختلفت الظروف وتطورت الحياة وتطور الادب فلم تعد القصة تعتمد على الحكاية السردية الوصفية الخارجية واستفادت الكثير عبر مراحل تطورها فلجات الى الشعر والى التكثيف والى الضبط في اللغة ، وتجاوزت الانشائية والخيالية المفرطة والعاطفة المفتعلة، ولكن في مجموعة الاستاذ السباعي هذه الكثير من العودة الى الوراء . والكثير من الافتعال والخيال وعبر خمس عشرة قصة هي قصص الكتاب تسود الانشائية ويستمر في كل القصص الاسلوب السردي الوصفي الخارجي ، وهموم الابطال في كل قصص حزن حتى الموت هي واحدة : الذعر ، الخوف من المطاردة ، الاحساس بالمطاردة . الهموم مفتعلة، سطحية، ساذجة غير معقولة وغير موجودة في حياتنا المعاصرة ولا مبررة وابطال القصص يحملون حروفا لا أسماء ويفترسهم الاحساس الدائم بالذعر وخوف الاعتقاد وليس ثمة في القصص عند أبطالها في اي انتماء ما ، أية جريمة ما ، أي نشاط ، أية فعالية سياسية أو غير سياسية تبرر ذلك الاحساس ، ذلك الخوف، سوى رغبة المؤلف وخياله الجامح ولاتختلف القصة الاولى «يقظة بعد سبات طويل» ، عن القصة الثانية «الصورة والاسم»، كما لاتختلف القصة الرابعة العينان في الافق الشرقي عن القصة العاشرة « حتى موسم الزيتون » كما لا تختلف أيضا وايضا كل هذه القصص المذكورة عن القصة الخامسة عشرة والاخيرة من قصص الكتاب « الايدي الالكترونية».. ففي القصة الاولى «يقظة بعد سبات طويل» يبدا المؤلف قصته على النحو التالي :

وجد س نفسه يصحو مع الفجر الباكر . وسرعان ما خامره احساس قوي بانه متاخر . وبان عليه أن يؤدي عملا هاما ، ثم فطن الى أن جسمه منهك .. وينظر الى ساعته ويفكر ويحس انه مهدد بخطر ما ، ويذهب الى

الفرن ويناقش الناس وتقع مشاجرة ويعود الى بيته :

دخل باب البناية

صعد الدرجات الاولى وثبا ، ولكن جدارا صفرا ارتفع في وجهه عند المنعطف ، كالسد ، فتعين عليه أن يتسلقه ليتابع الصعود ، بذل جهدا فائقا حتى استطاع تسلقه ، ثم الانحدار منـه الـى الجانب الاعلى من الدرج ولكنـه (فوجيء) عند المنعطف الثاني بسد آخر ، فتسلقـه ، ثم بسـد ثالث ورابـع ص ١٥ ويرتمي في النهاية على صدر أمه :

ـ خائف ! اني خائف ، يا أماه .

وارتمى على صدرها مستسلما لسبات جديد .

وفي القصة الثانية « الصورة والاسم » يلقي ج نظرة رضى الى أوراقه التي سفح على بياضها جهدا ذهنيا مضنيا و : « واعتصر قلبه أسى عميق : هكذا ! هكذا ! رجل مثلي يتطارد ، بظل يطارد ـ كلص ـ دون ذنب جناه ص١٧ » . وفي قصة الامتناع: « مع بزوغ الشمس وصلوا ، اقبلوا من كل فج ، ليحيطوا ببيته احاطة السوار بالمعصم:

أخرج الينا ، امنحنا الفرصة لنسوي أمرنا معك بالحسنى . » ص ٧٨

وفي قصة « مواطن في المسيرة » يتوقف « ك » :

توقف « ك » مبهور الانفاس ، على ضفة نهر تحت شجرة صفصاف عتيقة :

اأكون قدقتلت ، حقا زعيما من زعمائهم؟

ود لو يبكي .

اية جريمة اقترفت يدي ، وانا لا أدري !!

آه ، أين المفر ؟

ود لو يبكي ، ولكن الدموع تحجرت في مقلتيه .

بريء ، بريء ..

ولكن احدا لا يسمعه . ص ٨٩

وفي قصة « انتظار تحت الشمس » :

فكر « ل » بتصميم : لابد من ان يطلقوا اسري ، يوما ، لابد .. فاذيع في الارجـاء السر الذي اكتشفت ، فينالوا ما يستحقون من العقـاب !

وحفا ببصره الى الشباك العالي ، المقضب ، الذي يمنع غرفته الصغيرة اليسير من النور ص ٩٠

وفي قصة : « لا ضير فليغرق العالم » : وقف « س » على منبر في جانب من باحـة المدرسة ، يشهد كيف تغوص الاقدام في باطن الارض ! وحدث نفسه عاجبا : ما اصلب ما اصلب قاعدة المنبر تحت قدمي ثم سرعان ما يجعل المؤلف بطله « س » يترنم : واخذ يترنم :

ـ بريء بريء : ... صدقوني انني بريء ! ... ص ١٠٢ وفي صفحة ١١٢ نرى بطل المؤلف قد سافر . والى اين ؟ الى الفضاء :

وقهقه عاليا :

ـ ساحيا في الفضاء الى الابد خالدا ومنعما » .. ثم ينهار على ركبتيه ، يدق جدار المركبة ويصرخ :

ـ « لقد ضيعت كل شيء ! وكتبت على نفسي أن اشقى الى الابد ! آه ، ليت الحزن يقتلني . ص ١١٣ ، وفي القصة الاخيرة من قصص الكتاب « الايدي الالكترونية » يكون بطل القصة :

كنت سائرا في طريق خلوي ، احلم . وانا اترنم باغنية راقت لي .

(فجاة) ، برز امامي رجل ، وانا اتابع ترنمي : لا باس ، فليطرب ! ولكنه استوقفني باشارة من يده . قطعت غنائي ، وانا احسبه رجلا قد ضل طريقه :

ـ نعم ؟

فسالني عابس النظرة ؟

ولما لم تبدُ لي فيه رقة الرجل « الذي ضل طريقه » فقد أدركت انه احد اولئك الذين سئمت ان يعترضوني اينما سرت وحيثما حللت ، يسائلونني ويستجوبونني ، واحيانا اضطر الى ان الوذ بالفرار هربا منهم . » ؟؟ !! ص ١١٤ وفي ص ١١٦ نجد البطل :

دفعته دفعة يسيرة ، فاذا هو يتهاوى على الارض كومة من .. ورق ، من قصاصات ورق صغيرة .. سرعان ما اخذت تذروها الريح ، وتابعت سيري في الطريق الخلوي ، وانا اترنم باغنيتي . » ؟؟ !! وهكذا .. وكما لاحظت ويلاحظ القارىء من خلال ومراجعة قصص هذه المجموعة ، فان الابهام والتجريد والابتعاد عن الواقع واللجوء الى الخيال المفتعل ، واصطناع الرموز اساء الى هذه المجموعة .

★★★

http://Archivebeta.Sakhrit.com

مناقشات

الفارابي عربي

فريد جحا

- ١ -

ذكريان غاليتان مرتا بنا في ربع القرن الاخير ، ولا نولهما - مع الاسف - ما تستحقان . أولاهما : في السنة الخمسين من هذا القرن الميلادي وهي ذكرى مرور ألف عام على وفاة أبي نصر محمد الفارابي ؛ والثانية في السنة السبعين من القرن ذاته ، وهي ذكرى مرور ألف ومائة عام على ولادته .

هاتان الذكريان عزيزتان علينا في هذا القطر العربي السوري ، لا لان الفارابي قد قضى السنوات التسع الاخيرة من حياته في حلب ودمشق مؤثراً اياهما على بغداد ؛ ولا لانه مات في دمشق ودفن في مقبرة الباب الصغير ؛ ولا لانه عاش سنوات حياته الاخيرة في بلاط الامير العربي العظيم سيف الدولة...

هاتان الذكريان عزيزتان علينا لما تقدم ، ولما في حياة الفارابي من نبل وسمو ، وللاثار الكثيرة الكثيرة التي خلفها ، والتي تجاوز عددها السبعين بين كتاب ورسالة ، تناولت مختلف مناحي الثقافة المعروفة في عصره ، وبعضها يحتل مكانة ممتازة لا في تراثنا العربي فحسب ، بل وفي تراث الانسانية ايضا[1]. ولأن اليونيسكو أخيرا قد أوصت بان يحتفل - بدءاً من عام ١٩٧٠ - بمناسبة مرور ألف ومائة عام على ولادته .

- ٢ -

ومنذ ذلك العام احتفل بالفارابي فيلسوفا وعالما وموسيقيا وانسانا كبيراً في

(١) كتبه : آراء أهل المدينة الفاضلة، واحصاء العلوم ، والموسيقي الكبير .

الاتحاد السوفياتي وتركيا وايران والعراق ؛ وخصص المجلس الاعلى للفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في الجمهورية العربية السورية ، يوما من أيام عيد العلم الخامس عشر (٢) ، فالقيت عنه بعض المحاضرات ، واقيم تمثال له في احدى حدائق دمشق ، كما أصدرت مؤسسة البريد طابعا تذكاريا عنه .

وقد اخبرني احد الذين اطلعوا على ما تم في ذلك اليوم ـ وهو من اثق بثقافته وذوقه وبمحبته للتراث ـ ان ما القي فيه من محاضرات لم يوف الفارابي حقه ... كما أن صورة التمثال الذي اقيم ، والتي وزعت صورته على المشتركين ، توحي بان التمثال لم يكن موفقا ، ففيه يظهر الفارابي أعمى ، ويشبه فلاسفة الاغريق ... كما أن تقاطيع وجهه لا توحي بالذكاء ... اما الطابع الذي أصدر فكان غالي الثمن (١) باهت الالوان ... (١) يضاف الى ذلك كله ان أجهزة الاعلام لم تتابع الاحتفال ولم تعرف به تعريفا كافيا ... اما مجلة (المعرفة) التي نحبها ، فقد نشرت مقالا في عدد شباط من عام ١٩٧٦ ، بعنوان (مولد الفارابي وفلسفته) ....

وهذا المقال هو الذي دفعني الى كتابة هذه الكلمة .

- ٣ -

انا أحيا مع الفارابي منذ اربعة اشهر . قرأت الكثير الكثير مما كتب عنه باللغتين العربية والفرنسية . واطلعت على آثاره المتوفرة اطلاعا دقيقا ، وقرأت بعضها قراءة مفصلة واعية ... ثم القيت عنه محاضرة ، في فرع اتحاد الكتاب العرب بحلب (٢) ، وستنشر لي مجلة المعلم العربي مقالةاعددتها عن (الفارابي فيلسوف العرب والمعلم الثاني والموسيقي الكبير) ؛ وساسهم في ندوةتاريخ العلوم عند العرب (٣) ، ببحث عن (الفارابي العالم) .

- ٤ -

وهاانذا من موقع المعرفة والمسؤولية ، اكتب هذه الكلمة ردا على المقال المذكور المنشور في مجلة المعرفة .

ان الفارابي عربي،سواء كان تركي النسب، كمايرى بعضهم ، أوكان « ايراني المنشا »(٤)

(٢) اقيم في شهر ت ١ من عام ١٩٧٥ .

(٣) لعله ليرة ، وليرتان ، والمفروض ان ان يكون رخيصا ليسهل تداوله ، فيكون ذلك وسيلة جيدة لاعلام عدد كبير من الناس .

(٤) القيت مساء ١٩٧٦/٢/٢٥ .

(٥) ستقام الندوة في جامعة حلب بين ٥ و ٧ من شهر نيسان عام ١٩٧٦ .

كما حاول أن يثبت الدكتور محمد جواد مشكور في مقاله الطويل ذاك ...

انه عربي تمشيا مع حديث الرسول العربي الانساني : « ليست العربية باحدكم من اب ولا أم ، وانما هي اللسان ، فمن تكلم بالعربية فهو عربي » ... كان الفارابي يتكلم العربيـة ، وكان نتاجـه الفكري كله بالعربية .

وهو عربي ، لانه درس في بغداد ،وعاش حياته كلها في ظل الدولة العربية متنقلا بين عواصمها . ثم لانـه قضى السنوات الاخيرة من عمره في حلب ودمشق ، متمتعا باحترام الامير العربي العظيم سيف الدولة واكرامه ، ذلك الامير الذي جعل من حلب درعا يدفع عن بلاد العروبة والاسلام هجمات الاعداء ، ومربعا يلتقي فيه أعاظم الشعراء والفلاسفة والمفكرين .. الا يكفي بلاط سيف الدولة فخرا أنه ضم بين جنباته المتنبي الشـاعر الكبير ، والفـارابي الفيلسوف والموسيقي والعالم ؟

— ٥ —

أما قضية أصله التركي أو الفارسي ، فنجد الرد عليها لـدى المستعرب ماكس فانتـاغو في مؤلفـه (المعجـزة العربيـة Le Miracle Arab) . فقد ضـم كتابه القيم ذلك بقوله : « مما لا شك فيـه أن العلماء والفنانين لم يكونوا كلهم من دم عربي ... ولكن ما أهمية ذلك ؟ فهل نظن أن كل ما نسميهم يونانا هم من دم هيليني نقي ؟ لا احد يزعم ذلك . فلقد كان بينهم ليديـون وكاريون ومقـدونيون وسوريون . نسميهم يونانيين لانهم كانوا يتكلمون ، أو يكتبون ، أو يفكرون باليونانية .

كان ايزوقراط يقول : اليونانيون هـم الذين يشاركون في تكوين ثقافتنا ، لا الذين يشاركوننا في اصولنا .

وبالرغم من فوارق الجنس والعصروالازياء واللهجات ، فـان العبقريـات المختلفـة كالخوارزمي وابن سـينا وابن رشـد وابن خلدون تسمح لنا ، لمجرد كونها قد فكرت بالعربية أن نسمي العصر الذي عاشت فيه باسم (القرون الوسطى العربية) ، تماما كما نسمي العصر السـابق باسم (القـدم اليوناني) . » (١)

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

(٦) المعرفة عدد شباط ص ١٥٤ .

(٧) ماكس فانتاغو ، المعجزة العربية ، ترجمة رمضان لاوند طبعة دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٦ ص ١٠٠ — ١٠١ والافضل أن نترجم كلمتنا بالعصر اليوناني .

ملاحظات حول السريالية

وأسسها الفكرية والجمالية

صلاح فائق

لا أعتقد بان مقالة الاستاذ فايز مقدسي (السريالية وأسسها الفكرية والجمالية) المنشورة في العددين الاخيرين من (المعرفة) قد اضافت اي كشف اساسي لما هو معروف عن هذا الموضوع ، بشكل عام ، لدى القراء المهتمين . الخص اسباب اعتقادي هذا بالنقاط التالية :

ARCHIVE

(١) ان المقالة ، رغم كونها مجرد عرض تاريخي للمصادر الفكرية والفنية والسريالية، فانها تجاهلت تماما ضرورة درس هذا الموضوع من خلال تاريخ المجتمعات التي ظهرت فيها وكذلك ضمن تاريخ الأدب نفسه . وفي الحقيقة ، فان مصادر السريالية قد تأسست ونمت في بلدان أخرى غير فرنسا ، مثل المانيا وانكلترا وأمريكا وغيرها [١] . ان السريالية من حيث مصادرها الفكرية والجمالية ومن حيث مظاهرها ونتاجاتها انما هي ذات طابع عالمي .

(٢) لم تعط المقالة الاهتمام الكافي لشرح موقف السريالية من التراث الفكري والادبي السابق . ان مفهوم السريالية عن التراث هو مفهوم ثوري فعلا . وان اهمال هذه الناحية يسيء الى شمولية السريالية . يقول بروتون (ان التراث الثقافي يجب أن يكون البحث عنه متواصلا . ثانيا ، يجب فصل ما يمثل فيه عبثا لا فائدة منه ، بقصد التخلص منه .

---

(١) انظر بشكل خاص كتاب الاستاذ علي الشوك : الدادائية ؛ وكتاب موريس نادو :
The History of surrealism, Translated from the French by Richard Howard, Published by Penguin Books, 1973.

ثالثا ، ان القسم الوحيد المقبول لتلك البقية يجب أن يستعمل ليس فقط كعامل في التقدم البشري ، بل أيضا كسلاح يشهر ضد انحطاط المجتمع البورجوازي ») (٢) .

(٣) توحي المقالة ، من خلال ايراد بعض النصوص الصوفية مع مقارنتها بالاكتشافات النفسية والحالات السريالية الخاصة بالذهن ، بأن ثمة مصدرا للسريالية في الصوفية والهرمسية كما أشار الكاتب . والحال ان موقف السريالية معروف حول الدين والالحاد. ان منطلق الصوفي هو ، أساسا ، ديني . وان ما يصبو اليه هو تغير يخص وعيه وحياته الشخصية . وهذه الغاية لايمكن أن تكون أساسا لمشروع جماعي للتحرير . ان تغيير الشاعر لذاته ، الشاعر السريالي ، لن يتم بشكل نهائي بدون الانتقال التاريخي للشعر من مجرد كونه شكلا الى مادة ، من حلم الى واقع . وان هذا الانتقال مشروط بتغييرات طبقية وسياسية على مستوى العالم ككل . يقول بروتون (الثورة البروليتارية هي وحدها التي تمنحنا الامل في تحقيق كلمة لوتر يامون) (٢) .

(٤) لم تعر المقالة اي اهتمام لمواقف الرواد السرياليين من الناحية السياسية . موقف بودلير ورامبو ، بشكل خاص ، من الانتفاضات والثورات العمالية التي كانت منتشرة في ذلك الوقت . يكفي أن نقرأ قصائد رامبو لنكتشف تناقضا رئيسيا بين فضيحة أحلام الشاعر وفضيحة انحطاط الأوضاع الاجتماعية . جاء في (ليل الجحيم) لرامبو (هواء الجحيم لا يتحمل الاناشيد) و (الجحيم لا يقوى على الوثنيين) . وكيف يمكن تجاوز هذا (الجحيم) الذي يعبر رمزيا عن الواقع اللا انساني ؟ يجيب رامبو « أيها البشر المساكين ، ايها العمال ! لا اطلب صلوات ؛ بثقتكم وحدها أصبح سعيداً » . ويمكن لفهم المواقف السياسية للسريالية الرجوع الى البيانات والنشاطات السريالية ضد الحرب ، تأييد الثورة الاسبانية ، مقاومة الاحتلال النازي لفرنسا ، مقاومة الستالينية في الثقافة وفي الممارسات السياسية ، وغيرها .

(٥) تجاهلت المقالة بشكل كامل أي اشارة الى واقع السريالية الحالي كحركة وكتائر ، لقد تحدثت عن السريالية وكأنها حركة تقبع في التاريخ . ان تجاوز السريالية

---

(٢) خطاب اندريه بروتون في اتحاد الكتاب . ترجمة هيئة تحرير مجلة الرغبة الاباحية ـ مجلة السرياليين العرب في باريس . العدد ٢ ص ٤٢ . وكذلك كراس (الوعي المدنس) ١٩٧٥ الصادر عن المجموعة ذاتها .

(٣) الرغبة الاباحية العدد الخامس ص ٥ نهاية ١٩٧٤ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

لن يتم بدون تحقيقها . وتحقيقها مشروط بقيام ثورة جذرية تطيح بكافة الاسس والمظاهر اللاانسانية لواقع العالم الراهن . لهذا فان لكل فترة زمنية سرياليتها الخاصة التي تعبر عن نفسها بوسائل وبادوات جديدة مبدعة . نشير هنا الى الازدهار الحالي للحركة السريالية في امريكا وفرنسا وانكلترا (٤) . انها تعبر عن حاجات جماعية لم تلب بعد .

(٦) من الخطأ الحديث عن الادوات والاكتشافات السريالية عبر تاريخها وكأنها وسائل ادبية تصلح لكل وقت ولكل حالة نفسية وذهنية . ان الحديث يجري في المقالة وفي بعض الكتب المترجمة عن السريالية عن موضوع الاسس الجمالية للسريالية وكأنه حديث عن مبادىء ايديولوجية واقانيم دينية .

(٧) اذا كانت الدادائية قد حققت كل امكانيات القول ، وأغلقت بهذا نهائيا باب الفن المحض ، فانها في الوقت ذاته طرحت بشكل نهائي مسالة تحقيق الفن في الحياة . ولا قيمة للسريالية الا باعتبارها امتدادا لهذا المطلب . وكان من الضروري أن يكرس الكاتب اهتمامه لعرض النشاطات والآمال السريالية التي هدفت إلى تحقيق هذا المطلب، أو اسباب اخفاقها في انجاز هذا المشروع الثوري .

(٨) ما عرضه الكاتب من تاريخ محدود للسريالية ولاسسها الفكرية والجمالية هو تكرار ، بصيغ أخرى ، لما طرحه فاولي في كتابه (عصر السريالية) وكاروج (أندريه بروتون والمعطيات الاساسية للحركة السريالية) ، ولم أجد في مقالة الاستاذ الكاتب ما يتعدى ما طرحاه . وهذا رغم ان الكتابين يرجع تاريخهما الى ١٩٥٠ بينما المقالة كتبت في الاشهر الاخيرة .

---

(٤) أشير هنا الى نشاطات المركز السريالي في شيكاغو ، والى كراساته ومعارضه المتواصلة . وخاصة مجلته الاساسية ARSENAL - Surrealist Subversion

وكذلك كتاب

The Surrealist Movement in England ,by Paul C. Ray . New York 1972 .

آفـــاق

إنهم يحرقون مكتباتنا القديمة

صفوان قدسي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أتساءل أحياناً : لو حذفنا من المكتبة العربية مؤلفات زكي الأرسوزي وساطع الحصري ، فما الذي يبقى من الفكر القومي العربي ؟.

لا أدعي أن مكتبتنا العربية سوف تخلو من أية كتب ذات فائدة في هذا المضمار ، لكنني أقول إن هذه المكتبة سوف تصبح ، بغير مؤلفات الأرسوزي والحصري ، أكثر فقراً وأقل فائدة .

من هنا خطورة ما يجري في حياتنا الفكرية والثقافية بين وقت وآخر من محاولات للتقليل من شأن هذين المفكرين القوميين ، والتعامل مع مؤلفاتهما على أنها تنتمي إلى عصر مضى .

والأخطر من ذلك ؛ أن هذه المحاولات تجري في غياب أي جهد حقيقي للبحث عن آفاق جديدة لفكرنا القومي . ومنذ سنوات طويلة ، وأنا أتابع كل ما ينشر من مؤلفات أو دراسات تتصل بالفكر القومي .

ورغم أن بعض هذا الذي نشر لا يخلو من قيمة ، فإن كثرته الغالبة ليست أكثر من « تهميش » على كتابات الأرسوزي والحصري . كذلك فإن البعض الآخر من هذا الذي نشر ، يحاول أن يرتاد آفاقاً يصبح معها فكرنا القومي فكراً هجيناً لا يملك من مقومات الفكر القومي غير الإسم .

وما زلت أذكر انه حين بدأت اللجنة المكلفة بتخليد الأرسوزي ، بنشر أعماله الكاملة ، كان هناك من يحاول إثارة الشكوك حول جدوى هذه المهمة التي أوكلت إلى اللجنة ، وحول ما إذا كان الأرسوزي يستحق أن يخلد ، وحول ما إذا كانت مؤلفاته جديرة بأن تنشر كاملة ، بعد أن نشرت متفرقة . وكان الدافع إلى إثارة هذه الشكوك واضحاً . فالذين لا يحبون الأرسوزي ، لا يفعلون ذلك لسبب غير مفهوم ، وإنما هم يفعلون ذلك لأن الأرسوزي يمثل شيئاً فريداً ومتميزاً في فكرنا القومي . إنهم يفعلون ذلك لأن الأرسوزي قامة مديدة لا تصل إلى مستواها إلا قامة ساطع الحصري ،وحين تسقط هذه القامة ، فإنه يصبح من اليسير تصفية القامات الأقل أهمية في فكرنا القومي .

إن الذين يريدون هدم زكي الأرسوزي وساطع الحصري ، إنما يحاولون إحراق مكتباتنا القديمة . ولو أن مكتباتنا القديمة أصبحت قديمة فعلاً ، ولو أن فكرنا القومي تمكن من إقامة مكتبات جديدة ، إذن لكان بالأمكان اعتبار محاولات إحراق مكتباتنا القديمة مجرد اجتهاد يقوم على اعتبار الدور الذي قامت به هذه المكتبات منتهياً . لكن الأمر ليس كذلك . فمكتباتنا القديمة ليست قديمة فعلاً ، وفكرنا

القومي لم يؤسس حتى الآن مكتباته الجديدة ، ومن هنا يمكن القول إن إحراق مكتباتنا القديمة مسألة ليست على جانب كبير من الخطورة فحسب ، وإنما هي في الوقت نفسه عملية مريبة لا بد من كشف حقيقة القائمين عليها وإماطة اللثام عن حقيقة الأهداف التي يرمون إلى تحقيقها .

ثقافة عربية أم ثقافات ؟

لو صح مايدعيه البعض من انه ليس للعرب ثقافتهم القومية ، أفلا يصح القول آنذاك إن على العرب أن يصنعوا ثقافتهم القومية ؟

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

هذا ليس أكثر من مجرد افتراض . ذلك ان الوجود العربي أساساً ، مدين باستمراره لهذه الثقافة ، على الرغم من ان هذه الثقافة تبدو في بعض الأحيان غائبة أو محتجبة .

وفي كل حال ، فان اثارة الشكوك حول وجود ثقافة عربية مشتركة تسهم في عملية التوحيد القومي ، ليست مجرد وجهة نظر يطرحها البعض بين وقت وآخر ، وإنما هي في الأساس جزء من خطة منظمة ترمي إلى سلب العرب من كل فضائلهم ، وإلى وضعهم خارج تاريخهم .

وأذكر ان مناقشات واسعة جرت ذات يوم حول ماإذا كان ثمة ادب عربي واحد أم آداب عربية متعددة . وكان مما أثار هذه

المناقشات ، وجهات نظر غريبة نشرها أمين الخولي منذ عدة عقود . وكانت وجهات النظر هذه تقوم على فكرة خطيرة مؤداها انه لم يوجد في يوم من الأيام مايصح أن نطلق عليه اسم الأدب العربي ، وإنما الذي وجد هو آداب عربية فحسب . بل لقد مضت هذه النظرية إلى ماهو ابعد من ذلك عندما زعمت أن هذه الآداب ليست آداب أمة واحدة ، وليست لها صفة واحدة ، بل هي آداب أمم مختلفة المذاهب والأجناس والبيئات

ولم يكن ممكناً أن تمضي هذه الآراء دون مناقشة . فانعقد الحوار حولها لينتهي إلى تغليب الرأي الذي يفند هذه الآراء . لكن صاحب هذه الآراء ، فيما اعلم ، لم يتخل عن نظريته حتى وفاته .

ARCHIVE

ومازلت اذكر ماكتبه الدكتور شكري فيصل في كتابه « مناهج الدراسة الادبية » ، وهو رسالة الماجستير التي اشرف عليها الأستاذ الخولي نفسه ، من مناقشة هادئة لآراء استاذه ، لايستطيع القارىء في نهاية المطاف إلا ان يقول أن الدكتور فيصـــل قد هدم نظرية الخولي من اساسها ولم يبق منها شيئاً .

واغرب مافي الأمر كله ، هو أن الذين يقولون بعدم وجود ثقافة عربية مشتركة ، أو ادب عربي واحد ، يتناسون دور اللغة العربية في اضفاء مظهر من مظاهر الوحدة على هذه الثقافة ، وعلى هذا الأدب . فاللغة الواحدة ، في حد ذاتها ، عنصر من عناصر التوحيد القومي والثقافي . واللغة الواحدة تضفي على الوجودين القومي والثقافي ، وحدة قادرة على الصمود في معركة اقتلاع ثقافات الضعفاء لحساب

ثقافات الاقوياء . وفي الوقت الذي لم تتوفر فيه للعديد من الثقافات في العالم هذه الخصيصة ، تبدو الثقافة العربية القومية ، بامتلاكها اللغة الواحدة على الأقل ، أقدر على المجابهة الآخذة بالاحتدام بين ثقافات الاقوياء وثقافات الضعفاء .

والاغرب من ذلك ، ان الذين يقولون بعدم وجود ثقافة عربية واحدة ، يغضون ابصارهم عن حقيقة شائعة وهي أن العرب لم تكن لهم ثقافتهم الواحدة فحسب ، وإنما عربوا في الوقت نفسه ثقافات الآخرين . وعندما وقع العرب على أرسطو ووجدوا فيه عقلاً فلسفياً عظيماً ، لم يكتفوا بترجمته ، وإنما قاموا بتعريبه أيضاً . بمعنى ان العرب لم يكتفوا بنقل ارسطو إلى لغتهم نقلاً آلياً ، وإنما نقلوه كما فهموه وكما احبوا ان يفهموه بما يتفق مع ثقافتهم ومعتقدهم وحضارتهم التي كانت في ذلك الوقت في ذروة ازدهارها وانتشارها .

والذين ينكرون وجود ثقافة عربية واحدة إنما ينكرون ، أدركوا ذلك أم لم يدركوا ، وجود تراث عربي قومي يخص العرب من دون غيرهم من الأقوام . وفي ذلك كله مافيه من مجافاة للحقيقة البسيطة والقائلة ان هناك تراثاً عربياً هو في نهاية المطاف حضارتهم وثقافتهم .

نحو احياء ثقافي قومي

ماالذي نملك أن نفعله في مجابهة هذه المحاولات المبذولة لاقتلاع ثقافتنا القومية ؟ .

هل نستسلم لهذه المحاولات فنخسر بذلك سلاحاً لعله أكثر اسلحتنا مضاء وأشدها فاعلية وتأثيراً ؟

هل نخدع أنفسنا بالقول ان هذه المحاولات سوف تخفق في نهاية المطاف لمجرد اننا نتمنى ذلك ؟ .

هل نستسلم للمنطق القائل إن هذه المحاولات لاتعدو كونها وهماً يسيطر على الشعوب حين تشعر انها مهددة في وجودها ؟ .

يخطىء من يظن ان هذا كله يمكن أن يفضي إلى أية نتيجة محققة ، بل يخطىء من يظن أن اسلوب الاستسلام ، وخداع النفس ، والارجاء ، هو الاسلوب الناجع في مجابهة هذا التحدي .

هناك أولاً محـــاولات تقوم بها ثقافات الاقوياء لابتلاع ثقافات الضعفاء .

ARCHIVE http://Archivebeta.Sakhrit.com

وهناك ثانياً محاولات لاثارة الشكوك حول ثقافتنا العربية الواحدة من حيث هي موجودة ، أو على الأقل من حيث هي قادرة على الاستمرار .

وهناك ثالثاً محاولات لاظهار لغتنا العربية على انها لغة متاحف ، وان لهجاتنا المحلية تمثل لغات جديدة قائمة بذاتها .

لكنها كلها محاولات يمكن عن طريق التصدي لها واظهار عجزها وتهافتها ؛ أن تتحول إلى مجرد جهد ضائع لاجدوى منه .

يمكن اظهار عجز هذه المحاولات وتهافتها عن طريق إظهار ان الثقافة العربية تستند إلى تراث قومي يكشف عن خصائص الشخصية

العربية ، ويسهم في تحديد ملامحها ، وان هذا التراث يمكن أن يقوم بدور بارز في هذه المجابهة المحتدمة .

ويمكن ذلك أيضاً عن طريق اعتماد الايجابي في هذا التراث اساساً لبعث ثقافي قومي . ذلك ان من يتأمل في تاريخ النهضة الأدبية ، سوف يضع يده على حقيقة مفادها ان عصر النهضة الأوربية اعتمد في ثورته على سلطة الكنيسة ، على احياء التراث اليوناني والروماني . فما الذي يمنع من أن يعتمد العرب في بناء صرحهم الحضاري والثقافي الجديد على احياء تراثهم القومي ؟ .

ويمكن ذلك ، مرة ثالثة ، عن طريق اظهار ان اللغة تعتبر مؤشراً من مؤشرات القوة أو الضعف ، مما يستوجب ايلاء لغتنا القومية اهتماماً خاصاً ، وعدم تحويلها إلى لغة متاحف ، والتصدي للمحاولات المبذولة لاحلال اللهجات الاقليمية محلها ، وهي لهجات يراد لها ان تتحول بمرور الزمن إلى لغات مقطوعة الجـــذور باللغة الأم .

لقد قرأت في يوم من الأيام نصاً لمفكر عربي في هذه المسألة بالذات ، واغلب الظن ان هذا النص مازال صالحاً للقراءة ، وهو أن هذه الازدواجية في مسألة اللغة مخالفة لمقتضيات الحياة القومية السليمة من وجوه عديدة ، فان كل أمة من الامم تحتاج إلى لغة « موحّدة » تزيدها تجاوباً وتماسكاً فتكون « موحِّدة » ؛ لأن مهمة اللغة لاتنحصر في ضمان التفاهم بين المتخاطبين الذين يعيشون في قرية واحدة أو مدينة واحدة ، ولا بين الذين ينتسبون إلى اقليم واحد أو قطر واحد ، بل هي ضمان التفاهم والتكاتب والتخاطب والتجاوب بين جميع

ابناء الأمة الواحدة على اختلاف مدنهم وأقطارهم ، والتاريخ الحديث مليء بأمثلة بليغة على الجهود الجبارة التي بذلها ، ولا يزال يبذلها ، عدد غير قليل من الأمم والدول في هذا السبيل توطئة لاستقلالها أو ضماناً لوحدتها .

من الماضي الى الحاضر .. وبالعكس

هل نحن أمة تجهل تاريخها ؟ .
هل نحن أمة لاتعرف قيمة الأبطال من رجالها ؟ .
هل نحن أمة تجحد العظماء من قادتها وعلمائها ومفكريها وكتابها ؟ .
هل نحن أمة لاتعرف موقعها من التاريخ والحضارة ؟ .
هل نحن أمة لاتعرف كيف تمد جسوراً لعبور الحاضر إلى الماضي ، وعبور الماضي إلى الحاضر ؟ .

ARCHIVE http://archivebeta.sakhrit.com

لاأظن أن الأمر كذلك ، وان كنت اعرف ان العديد من المستشرقين يرون هذا الرأي .

لاأظن اننا أمة تجهل تاريخها ، وان كنت أعرف اننا بحاجة إلى أن نعيد كتابة تاريخنا .

لاأظن اننا أمة لاتعرف قيمة الابطال من رجالها ، وان كنت اعرف اننا لانضع أبطالنا حيث ينبغي لهم أن يوضعوا .

لاأظن اننا امة تجحد العظماء من قادتها وعلمائها ومفكريها وكتابها ، وان كنت اعرف اننا نستهين في بعض الاحيان بهؤلاء العظماء ، أو نضيق بهم فلا نحلهم المحل اللائق بهم .

لأظن اننا أمة لاتعرف موقعها من التاريخ ومن الحضارة ، وان كنت أعرف أن البعض منا يحاول أن يستلب منا هذه البقية المتبقية من تاريخنا وحضارتنا ، التي تمثل شاهداً على أننا امة راسخة الجذور ، عريقة في الحضارة .

لأظن اننا أمة لاتعرف كيف تمد جسوراً لعبور الحاضر إلى الماضي ، والماضي إلى الحاضر ، وان كنت أعرف ان الكثرة الغالبة منا تريد من الماضي ان يكون حاضراً حضوراً كلياً في حياتنا ، في مقابل قلة قليلة تريد أن تعدم هذا الماضي وأن تحذفه من حياتنا .

أليس أمراً للدهشة والاستغراب انه نادراً مانعثر في بلادنا على نصب أو أثر يشير إلى عظيم من عظمائنا ؟ .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

أليس مدعاة للعجب أننا قلما نجد علامة من علامات هذا الماضي ، اللهم فيما عدا بعض الاحجار والاعمدة التي هي شواهد على الجانب المادي من هذا الماضي ، لكن الجوانب الاخرى لانكاد نجد لها أثراً ؟ .

هل اسوق مثالاً واحداً على ماأقول ؟ .

في يوم غابر من حياتي ، كنت أقرأ في كتاب عن الفارابي ، فوقعت على عبارة تقول إن المعلم الثاني قد توفي دمشق ودفن في ظاهرها في الباب الصغير. وأذكر انني ذهبت بنفسي اسأل عن ضريح هذا الفيلسوف العظيم ، فأضعت ساعات طوالاً في البحث دون طائل فلجأت وقتها إلى مديرية الآثار والمتاحف أسأل واستفسر ، وا كتشفت

انهم لايعرفون . وحين شاركت في اعمال المؤتمر الخامس لكتاب آسيا وافريقيا الذي انعقد في شهر أيلول من عام ١٩٧٣ في مدينة ألما – آتا عاصمة جمهورية كازاخستان السوفييتية ، وقعت على مفاجـأة لم أكن اتوقعها ، وهي انهم هناك يحتفلون بالفارابي باعتباره واحداً من عظمائهم ، لمجرد أن الفارابي ولد في مدينة يسمونها هناك « أوترار » ويطلق عليها العرب اسم « فاراب » ، في حين أن الفارابي غادر مسقط رأسه وعمره ستة أعوام ، قاصداً بغداد التي كانت في ذلك الوقت عاصمة متألقة للحضارة العربية ، ثم إلى بلاد الشام حيث استقر به المطاف في دمشق حيث توفي ودفن . وبهذا المعنى ، فإن الفارابي الذي هجر مسقط رأسه ، وتثقف بالثقافة العربية ، وكتب وألف باللغة العربية ، وأسهم في بلورة معالم الحضارة العربية ، أصبح بشكل من الأشكال عربياً ، إن لم يكن بالانتماء الحضاري ، فباللسان العربي على الأقل .

إنني لا أدعو إلى إثارة جدل حول عروبة الفارابي ، فقد بدأ هذا الجدل الدكتور جواد شكور في العدد قبل الأخير من « المعرفة » ، وتابعه الأستاذ فريد جحا في هذا العدد مقدماً وجهة نظر مخالفة تماماً لوجهة نظر الدكتور مشكور ، وإنما أدعو إلى إقامة جسر نعبر عليه من الحاضر إلى الماضي ، ومن الماضي إلى الحاضر .

إنني أدعو إلى ردم هذه الفجوة بين وعي الناس وبين تاريخهم . بين حاضرهم وبين ماضيهم الغابر .

اعـــلان

عن مسابقة سينمائية عن حرب تشرين

بتوجيه من السيد الرئيس حافظ الاسد ، تشكلت لجنة عليـا مهمتها انتاج فيلم عن حرب تشرين يكون بمثابة وثيقة تاريخية للاجيال ، ولوحة شاملة لهذه الحرب ، لا من حيث استيعاب معاركها وتفصيلاتهـا كلهـا بل من حيث تقديم بانوراما عنها تتكشف في بؤرتها اهم معارك هذه الحرب ونتائجها عسكريا وسياسيا.

ان الفيلم المنشود في التصور المبدئي فيلم روائي يقوم على قصة وحدث وليس فيلما وثائقيا بحتا ، وهو ينطلق من المعارك التي دارت على الجبهة السورية ، ويعطي في التمهيد او التظليل ملامح او مشاهد من الحروب التي سبقت ، على أن تكون قضية فلسطين ، بشكل أساسي ، محورا فكريا للفيلم يهدف الى ابراز البعد القومي اضافة الى البعد الانساني الذي يرسم او يشير إلى اغتصاب اسرائيل لفلسطين واحتلالها الاراضي العربية وتشريد السكان وذبحهم ، ونسف البيوت وقصف المخيمات .

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

ومع أن معارك تشرين في الجولان هي النقطة المركزية في الفيلم ، الا ان هذه المعارك لن تكون بشكل تسجيلي منفصل أو مسقط أو مقحم على الفيلم ، بل من نسيج حدثه العام ، تعطي دلالاتها من وقائعه ، وتتبع جزئياتها من ادوار شخصياته الانسانية ، الموضوعية والمقنعة ، مع مراعاة عدم الافتعال ، والابتعاد عن التصوير الاحادي الجانب للشجاعة او الجبن ، للبياض او السواد ، بل ان تتداخل الالوان وتعبر بصدق عن واقع حرب كانت هي نفسها عظيمة في واقعها .

ان اللجنة العليا المكلفة بانتاج هذا الفيلم تدعو الكتاب السوريين والعرب الى الاشتراك في المسابقة التالية :

١ ـ وضع قصة سينمائية عن حرب تشرين التحريرية .

أ ـ وضع فكرة سينمائية تكون معالجة اولية وتصلح نواة لفيلم طويل يمكن تطويرها فيما بعد .

ب ـ إذا وجد سيناريو جاهز عن حرب تشرين يمكن ان يدخل المسابقة ويقيم عند قبوله على اساس سيناريو كامل او جزء من سيناريو ، اذا وجدت اللجنة ضرورة لتجزئته او تطويره او تعديله .

جـ ـ وضع افكار أو تصورات عن الفيلم المقترح يمكن ان تفيد اللجنة في عملها.

٢ ـ يجب ان تخدم القصة او الفكرة السينمائية أو السيناريو الاهداف العامة لحرب تشرين التي أشارت الى بعضها مقدمة هذه المسابقة ، وان تكون مؤلفة ومستمدة من واقع هذه الحرب .

٣ ـ تاريخ المسابقة من اول آذار ١٩٧٦ الى غاية نيسان ١٩٧٦ .

٤ ـ تؤلف لجنة من الكتاب والسينمائيين العرب للنظر في مواد المسابقة واعلان الفائز منها .

٥ ـ تمنح القصة الفائزة جائزة قدرها / ١٥٠٠٠ / ليرة سورية .

أ ـ تمنح الفكرة السينمائية الفائزة جائزة قدرها / ٥٠٠٠ / ليرة سورية .

ب ـ يمنح السيناريو الفائز جائزة قدرها / ٢٠٠٠٠ / ليرة سورية .

جـ ـ اذا قررت اللجنة الاستفادة من جزء من السيناريو تقوم بتقدير المكافأة التي ستمنحها الى الكاتب .

د ـ تقدر اللجنة مكافأة الافكار أو التصورات المرسلة عن الفيلم في حال اعتمادها أو الاستفادة منها ، وتعلم صاحبها بذلك .

٦ ـ المادة الفائزة تصبح ملكا للجنة ولها حق التصرف فيها بما يخدم اهداف الفيلم .

٧ ـ ترسل مواد المسابقة في ظرف مختوم وداخله ظرف مختوم أيضاً باسم الكاتب وعادته على العنوان التالي لجنة مسابقة فيلم تشرين ـ وزارة الثقافة والارشاد القومي .

دمشق
عن اللجنة العليا
وزير الثقافة والارشاد القومي
فوزي كيالي

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com

شؤون فلسطينيــة

دورية فكرية لمعالجة احداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة

تصدر شهرياً عن مركز الابحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

رئيس التحرير : الدكتور أنيس صايغ

★ ★ ★

مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية

تصدر عن جامعة الكويت

رئيس التحرير : الدكتور محمد الرميحي

فصلية علمية تعنى بشؤون الخليج والجزيرة العربية السياسية، الاجتماعية ، الاقتصادية ، الثقافية ، العلمية

★ ★ ★

الثقافــة العربيــة

مجلة شهرية جامعة

تصدرها المؤسسة العامة للصحافة

بالجمهورية العربية الليبية

ARCHIVE
http://Archivebeta.Sakhrit.com